

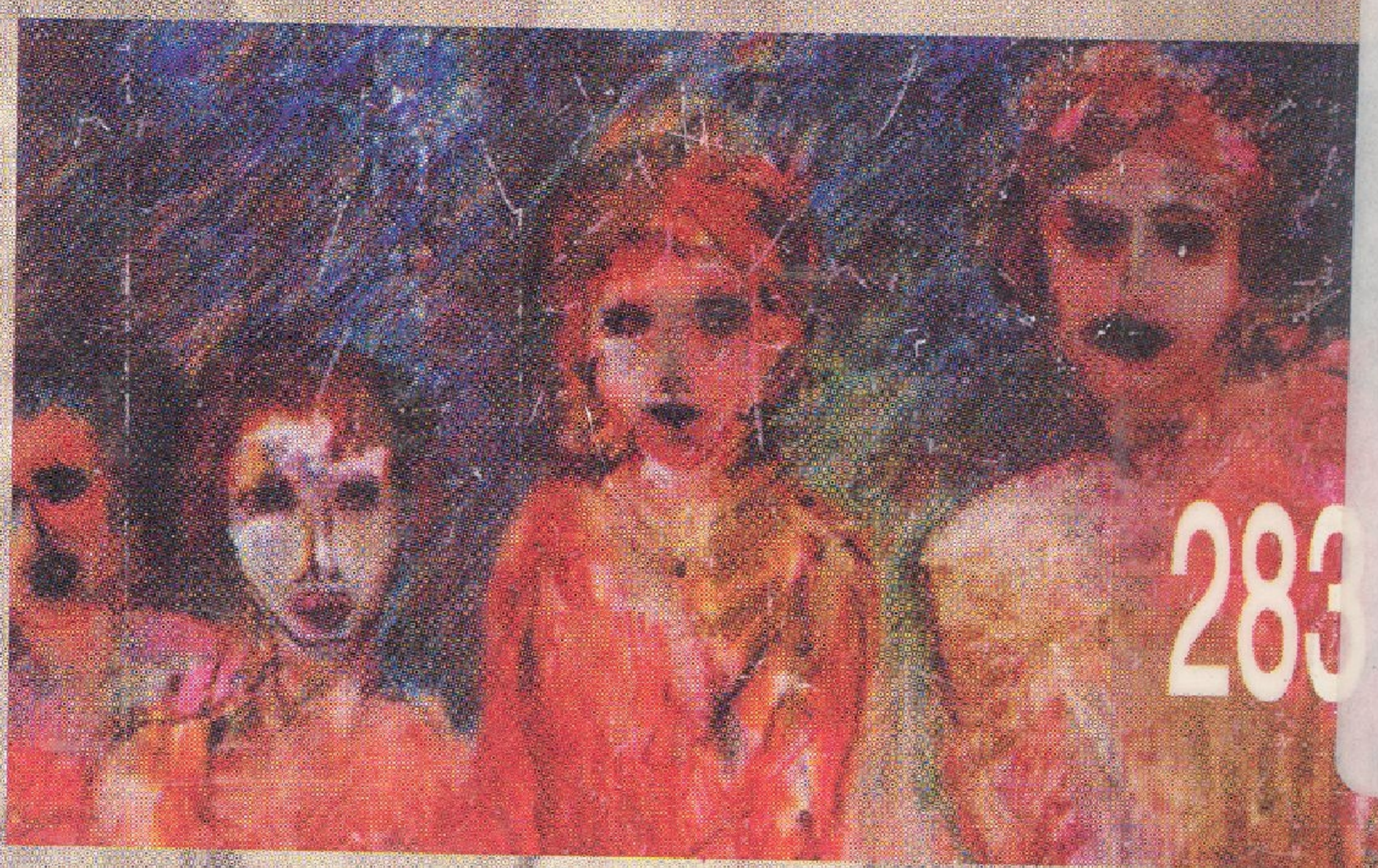
المشروع القومي للترجمة

السهل يحترق

مجموعة قصصية للكاتب المكسيكي خوان رولفو

ترجمة وتقديم:

على عبد الرؤوف البمبي



283

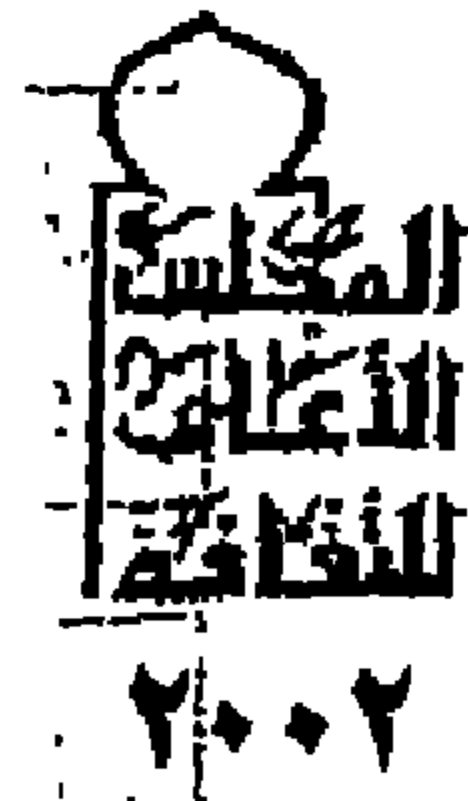
المشروع القومي للترجمة

السهل يحترق

مجموعة قصصية للكاتب المكسيكي « خوان رولفو »

ترجمة وتقديم

على عبد الرؤوف البمبي



المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

**Juan Rulfo : El llano en llamas.
Cátedra, Madrid, 1988(4^a edición) .**

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezeira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 6358084 E.Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات الشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والنواصب
الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها فهي اجتهادات أصحابها في
ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

« خوان رولفو » والسهّل الصامت الحزين

أمريكا اللاتينية مارد جبار ظل حبيس القمقم آلاف السنين إلى أن اكتشفه التاريخ مصادفة ونزع عنه الغطاء .. لم يكن يدور بخلد «كولبس» أو « كولون » - وهو يبخر بسفنه من مرفأ إشبيلية عام ١٤٩٢م باتجاه الغرب قاصداً جزر الهند الشرقية - أن القدر يزفه إلى عالم بكر يتألق جمالا وسحراً .. انعقدت ألسن البحارة والعلماء المرافقين للمكتشف العظيم عندما وجدوا مالم تره عين ولم يخطر على قلب بشر ماثلاً أمامهم : طبيعة تضطرب جوانبها بشتى ألوان العجائب والغرائب من ينابيع وأنهار وأشجار ونباتات وزهور وطيور وحيوانات وأسماك ... الخ ، لم يعثروا لمعظم هذه الغرائب على مسميات فى اللغة الإسبانية ، وهدتهم قريحتهم لاختراع أو استنباط أسماء لها من الأساطير وقصص الفروسية الجامحة .. إنه عالم فائق الوصف ، يكتتفه الغموض ويحتاج تفسيره لشطحات الخيال ، عالم يختلط فيه الواقع بالأسطورة ، ويمتزج فيه الحاضر بالماضى السحيق ، وتسكنه - بعد الاكتشاف - أخلاط بشرية من كل حدب وصوب ، ومع هذا - أو لأجله - فهو عالم يموج بالاضطرابات والعنف ، وتعشش فيه المتناقضات بالرغم من تخلصه من التبعية للفاتحين وامتلاكه لزمان نفسه ...

والمكسيك التى ينتسب إليها كاتبنا « خوان رولفو » (Juan Rulfo) هى جزء من هذا العالم المدهش وتاريخها الحديث حافل بالثورات والانقلابات وحركات التمرد والعصيان التى يحتاج بيانها إلى

عشرات الصفحات ؛ ولذا فإننا سنقتصر على الإشارة إلى تلك الحقبة التاريخية التي تشكل فيها وجدان « رولفو » وكان لها الأثر في تحديد هويته ورؤيته للعالم المحيط به كمبدع وقاص .

عندما ولد « رولفو » كان قد مرّ على ثورة (١٩١٠) ثمان سنوات ، وعندما صدرت مجموعته القصصية « السهل يحترق » (١٩٥٢) كانت آثار هذه الثورة قد أصبحت واضحة للعيان ؛ فقد ازدادت الكثافة السكانية ، وتضاعف الناتج القومي عشرات المرات ، وحدث نمو كبير في معدلات التصنيع ، وأنشئت الجامعات وتعددت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى ، وعُبدت الطرق وشقت الترع والقنوات ، وأقيمت المشروعات الزراعية الكبرى ، وهجر الفلاحون قراهم وانتقلوا إلى المدن للعمل في مصانع السيارات والبيبسي كولا والعيش في أحياء عشوائية بداخل أكواخ ... إلخ ، لكن هذا النمو الاقتصادي لم يعد بالنفع على القاعدة الشعبية العريضة ، بل استأثرت به الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات وكبار المستثمرين وعدد من الانتهازيين (القطط السُّمان) الذين لا تخلو منهم مجتمعات العالم الثالث .

وبالطبع فقد جنّدت الدولة - بحزبها الأوحيد - من يتغنون بتحقيق الثورة لأهدافها ، وبالرغم من الدعاية الرسمية والبطش بأصحاب الرأي المخالف فقد وُجد من يعلنون زيف هذه الادعاءات أو يتهمون الثورة بخيانة مبادئها .

وعلى صعيد الأدب اهتم أصحاب الفريق الثانى (المعارض) بتسليط الضوء على المشاكل الجمة التى يعانى منها الفرد العادى وعلى الظروف الصعبة التى تمسك بخناقها من زمن بعيد ، ولم تخفف الشعارات الثورية منها بل زادتها بلّة عندما ملكت الأراضى الشاسعة الخصبة للشركات الكبرى لكى تصدر منتجاتها إلى الخارج ، وأجبرت الفلاحين على الهجرة إلى المدينة للقيام بأهون الأعمال أو محاولة تجاوز الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية فراراً من قسوة الجوع ... الخ ، ويطلق على أصحاب هذا الاتجاه بالكتاب « الإقليميين » أو « المحليين » وهم يعتبرون إحدى حلقات السلسلة الطويلة التى تضم كثيراً من كتاب القصة فى أمريكا اللاتينية ابتداء من العقد الثالث للقرن العشرين ؛ فهؤلاء الكتاب قد نصبوا أنفسهم وسطاء بين الفرد الأعزل وبين الطبيعة القاسية المكفهرة ، وحملوا على عواتقهم مهمة تخضير القفار المترامية الأطراف ، وسبّر أغوار بقايا الثقافات القبلية ، وتسجيل النوائب والكوارث ، ورصد الصراعات الاجتماعية فى الإقطاعات الزراعية والمناجم والمجتمعات العمرانية الجديدة ... إلخ .

ورائد هذا الاتجاه هو البوليفى « ألتيدس أرجيداس » الذى أدان (عام ١٩١٩) استغلال البقية الباقية من الهنود الحمر ، ثم تبعه بعد ذلك كثيرون مثل المكسيكى « أجوستين يانيث » ، والبيروانى « خوسيه ماريا أرجيداس » ، لكن أبرزهم جميعاً هو الكاتب الجواتيمالى « ميغيل أنخل أستورياس » .

وخصائص هذا الاتجاه الأدبى - بالرغم من حنكة أصحابه المتأخرين وبراعتهم - تتمثل فى : التصوير الفوتوغرافى للواقع

دون تجسيد وإبراز ملامحه ، واللجوء إلى التعميم ، والتزام الحرفية
والعناية بالصياغة الأسلوبية ، اختيار النماذج المثيرة والغريبة التي
يطغى إبهارها على ما يمكن أن تتركه من أثر في الذاكرة ، والإغراق في
اللهجات المحلية التي تحصر الشخصيات في نطاقها الإقليمي وتحد من
انتشارها خارج حدودها الجغرافية .

وعندما وصلت فترة الخمسينيات - أو « الفترة المدهشة » ، كما
يطلق عليها النقاد - نشطت القصة في أمريكا اللاتينية من عقائها
المحلي وانطلقت صوب العالمية إلى أن بلغت ذروة النضج والإتقان -
أو « الانفجار » - خلال الستينيات .

وفي المكسيك كان صاحب الدعوة إلى التحرر من الإقليمية هو
الكاتب « أوكتايفيو باث » ، حينما نادى عام (١٩٥٠) بضرورة أن
يتحدث المواطن المكسيكي عن نفسه في أدبه كما يحدث في الغرب ،
وإتاحة الفرصة للتأمل الثاقب لأغوار الذات بحيث يمكن عرض الأشياء
كما هي ، مع تفادي الروابط المحددة المحسوسة التي تصلها
« بالتاريخ » - بقدر المستطاع - .

و« خوان رولفو » يعتبر مزيجاً من الاتجاهين السابقين أو - بمعنى
أصح - كاتباً « إقليمياً » متفرداً ، ينوء بتبعية المحلية ، لكنه لا يغفل أنماطه
بقيود تعوقها عن الانتشار .

لكن من هو « خوان رولفو » هذا ؟ ولماذا كل هذا الحزن الذي
يعشش في كتاباته ؟ وما سر استخدامهم لهذا الأسلوب الشديد الصرامة
المترع بالألم والوحدة والعنف ؟

سنحاول فيما يلي الإجابة على هذه التساؤلات من خلال التعرف على رؤيته الخاصة للعالم كما تتجلى في مجموعته القصصية الرائعة « السهل يحترق » . ويأدى ندى بدء نقول إنه مما لاشك فيه أن لحظات التوهج في مسيرة المبدعين الكبار قليلة ، فمهما كثرت أعمال هؤلاء وتعددت نجد أن روائعهم لاتزيد عن عملين أو ثلاثة أو ما لا يتعدى أصابع اليد الواحدة بأى حال . و«خوان رولفو» واحد من هؤلاء الذين حفروا أسماءهم بحروف من نور ونار في سجل الإبداع الروائى بالرغم من أن مجمل حصيلته الإبداعية قد لايتجاوز الثلاثة أعمال : « السهل يحترق » (El llano en llamas) ؛ « بيدور پارامو » (Pedro Páramo) ؛ « لاکوردییرا » (أو « سلسلة الجبال ») (La Cordillera) .

ولد « خوان رولفو » عام (١٩١٨) فى « أبولكو » (سايولا) التابعة لولاية « خاليسكو » المكسيكية . وهى منطقة قاسية ، جافة وشبه خربة ، نزع معظم سكانها فراراً من الثورات والحرائق والتصحر . ومن بقى منهم هناك يعيش فى ظروف مناخية وإنسانية غاية فى السوء ، يعانى قسوة الطبيعة وظلم الفقر وإهمال السلطات المركزية . ومع ذلك فهم قابعون هناك ، هامدين مثل ما يحيط بهم من أشياء ، مذعنين لقدرهم فى انتظار الموت - حسبما تشير إحدى قصص مجموعة « السهل يحترق » - . لم يستقر « رولفو » فى « أبولكو » كثيراً لأنه انتقل مع أسرته ، بعد بضع سنوات من ولادته ، إلى « سان جبريل » ، وهناك أدركته ثورة « لوس كريستيروس » (Los Cristeros) التى اندلعت عام (١٩٢٦) واستمرت ثلاث سنوات كاملة ، وفيها فقد أباه وجميع أعمامه .

يتحدث « رولفو » عن الأثر العميق الذي تركته هذه الثورة في حياته قائلاً : « كانت طفولتي بالغة القسوة والصعوبة . تبعثرت أشلاء عائلتي بكاملها في مكان تم تدميره وسحق كل ما فيه (..) . لأجد إلى الآن تفسيراً منطقياً لما حدث (...) لايمكن إلقاء التبعة برُمَّتْها على الثورة . إنه شيء يضرب بجذوره في أغوار الماضي ، شيء قدرى ، غير منطقي . لا أستطيع العثور حتى اليوم على سند واحد يبرر قتل أسرتي بهذا الشكل أو لارتكاب سلسلة الفظائع والاعتقالات دون سبب » .

وبعد الثورة بست سنوات ماتت أمه وتركته وحيداً فأخذته دار لرعاية الأيتام ليبقى فيها أربع سنوات : من العاشرة حتى الرابعة عشرة . تركت هذه السنوات ندبة لا تنمحي داخل كيان الصبي ، عندما يتذكرها « رولفو » يقول بصوت مُجَلَّل بالأسى : « ما تعلمته كان الاكتئاب ، كانت فترة من الفترات التي عانيت فيها من وحدة قاسية وأصابتني بحالة من الاكتئاب لم أشف منها حتى يومنا هذا » .

وتذكرنا هذه العبارة بأخرى وردت على لسان إحدى شخصيات قصة « قل لهم يتركوني أعيش » (وهي تنتمي لمجموعة « السهل يحترق ») ، تقول : « من العسير أن تنمو وأنت تدرك أن الشيء الذي يمكن أن تتشبت به جذورك قد مات » .

المهم أن « رولفو » استطاع - في ظل هذه الظروف الصعبة - إنهاء تعليمه الأساسي ودراسة المحاسبة وإمساك الدفاتر ، وبعدها ذهب إلى العاصمة (مكسيكو) ليدرس القانون ، لكنه لم يكمل دراسته بسبب توقف الدراسة بالجامعة لمدة ثلاث سنوات . اضطر « رولفو »

للعمل مبكراً في الوظائف الحكومية ، وتقلب بين العديد منها ، حيث اشتغل في مجال الإعلام (التليفزيون) ومصلحة الرى وهيئة الهجرة وتوفيق أوضاع الجماعات المنعزلة من الهنود الحمر ، كما عمل « سيناريسست » في فترة من حياته ، ومن الوظائف التي أحبها عمله في المشروع الحكومى لرى إقليم « بيراكروث » ذلك لأنها انتشلته من العاصمة وأعادته إلى أحضان الريف .

وفى خلال كل هذا لم تنقطع صلة « رولفو » بالقراءة التي أحبها منذ صغره ، وقد أتاحت له وحدته فرصة الاطلاع على آداب متعددة ، منها الأدب الروسى والأمريكى والأوروبى ، لكن الأدب الذى استهواه وملك عليه نفسه هو الأدب النورماندى .

من هذه الإطالة السريعة تتضح الأبعاد المأساوية للحياة التي كان على « رولفو » أن يعيشها ، فقد ولد فى أقصى الولايات المكسيكية مناخا وأفقرها تربة حيث اعتاد سكانها - طبقاً لتصريح له - على العمل عشرة أضعاف سكان الولايات الأخرى ليحصلوا فى النهاية على الناتج نفسه .

وعلاوة على قسوة الطبيعة فقد عانت ولايته وتلظت بنيران الثورات والاضطرابات المتكررة التي أكلت الأخضر واليابس وأتت على جميع أفراد أسرته واضطرتته للإقامة فى دار للأيتام ، ولم يسر عنه بعد ذلك مغادرة هذه الدار والانتقال إلى العاصمة التي كانت تنتظره بفاصل من المشاكل (أهمها الوحدة والعوز) أضف إلى حمله الثقيل وزناً إضافيا من الحزن والكآبة ، ولذلك فهو دائماً صامت وحزين وصارم ومكتئب وخجول ، ولم تشفه الشهرة بعد ذلك من هذه الأوجاع بل إنها اصطدمت مع ما يعتمل بداخله من يأس وصرامة ، وكانت السبب

المباشر في إقلاله من الكتابة بالرغم من موهبته المتوقدة ومع هذا فقد عاش « رولفو » مدرِّكًا لقيمة ما أنجز - على قَلْتِه - وظل محترمًا ومحبوبًا حتى وافته المنية عام (١٩٨٦) .

نشر « رولفو » أول قصة قصيرة له عام (١٩٤٢) في إحدى مجلات « وادي الحجارة » (عاصمة ولاية « خاليسكو ») ، وشهدت السنوات التالية قصصاً أخرى له ، لكن شهرته ومكانته الأدبية الرفيعة يدين بهما لمجموعته القصصية التي صدرت عام (١٩٥٣) تحت عنوان « السهل يحترق » ، ولروايته المنشورة عام (١٩٥٥) بعنوان « يدرو پارامو » ، وقد توالى طبعاتهما بعد ذلك داخل المكسيك وخارجها ، ثم أطبقت فترة من الصمت تزيد عن الأحد عشر عاماً قبل أن يعود لاستكمال خيوط مشروعه الأخير الذي اختار له عنوان « لاکوردییرا » (أو « سلسلة الجبال ») .

وبرغم هذه الندرة ، فإن مجموعته القصصية وروايته اللتين ظهرتتا في الخمسينيات تعكسان بوضوح رؤيته الخاصة للعالم والواقع المكسيكي في فترة زمنية وتاريخية واضحة المعالم ، تتجلى هذه الرؤية في الحزن واليأس اللذين ملكا عليه نفسه من جرّاء نشأته على أرض عاقر عبوس ، أراد أن يتشبث بها فخانتته في وقت كان ينهار فيه كل ما بداخله ، أرض تضطرب جنباتها بالألم والعنف المتراكم عبر القرون وجاعات الثورات وحركات التمرد والعصيان لتطلقه من عقاله . يقول « رولفو » واصفاً طبائع سكان قرى منطقته (مثل « سان جبرييل » ، « تابوتيتلان » ، « سايولا » ، « تونايا » ، « سان يدرو » ، « تالپا » ... الخ) .

« ... إذا تحدثت معهم يخيل إليك أنهم لايجرعون على قتل ذبابة ،
إنهم أناس فى غاية الهدوء ، فلاحون من هذا النوع الذى يحتوى على
قدر من المكر والاحتتيال والتأهب ، لكنهم فى الوقت ذاته سليمو النوايا ،
ومع هذا فخلف ذلك الرجل يمكن أن تتوارى مجموعة من الجرائم .
عندئذ يختلط عليك الأمر ولا تدرى مع من تتعامل : مع قاتل محترف أو
مع فلاح بسيط .. » .

إن « رولفو » يحمل على كاهله كُرب وألم الرجل المعاصر الذى
ابتلته الظروف بالعيش فى الفترة الشائهة التى أعقبت الثورة وتنبأ بها
« سوليس » المارق بطل قصة « الناس اللى تحت » لمواطنه « مانويل
أثويلا » .

إنه مثل رجل منهار من الداخل يتأمل الأراضى الجافة ، الذرة التى
لا تكبر ، الغبار ، الرياح التى لامعنى لها ، قوافل الحجاج إلى « تالبا » ،
الجرائم الغريزية العمياء ، العنف الميكانيكى الأحمر ، المأساة والفاقة
الخرساوين ، الاستسلام لتصاريف القدر العاتى .. إنه يرى هذه الأشياء
مثل كوابيس لا يمكن أن تداويها برامج الإصلاح الاجتماعى ولا الوصفات
الثورية .. لا يوجد أمامه ، بالتالى ، شىء خارجى يمكنه الاتكاء عليه ،
ولذلك نجد أن شخصياته - سواء من الرجال أو النساء - مُجبرة على
العيش بدواخلها والإذعان للقدر فى انتظار الموت الذى تعتبره أملها
الوحيد .

ففى مقابل البعد الخارجى الذى تعتمد عليه واقعية كُتَّاب الثورة
المكسيكية التى تستغرق فى الجانب التهذيبي ، وواقعية كتاب

الثلاثينيات والأربعينيات التي تهتم بالواقع التاريخي وتضع الهدف السياسي - الاجتماعي نصب عينيهما ، نجد أن الكُرب والحزن القديرين يصبغان نثر « رولفو » بصبغة قاتمة ويتغلغلان في لغته وجميع تيماتيه .

وتتجلى رؤية « رولفو » الشخصية للعالم في كيفية معالجته للزمن المتعلق بشخصياته . فبينما كان النثر الروائي الجيد قبله (« مانويل أثويلا » و « مارتين لويس جوثمان » ، على سبيل المثال) يعالج الواقع بالطريقة الديناميكية السيّارة ، نجد أن « رولفو » يعيش زمناً داخلياً ذاتياً يفرض إيقاعه على كل واقع منفصل عنه ؛ ولهذا السبب نلاحظ أن السكون والإيجاز الرتيب المشبعين بالتوتر والمأساة يسيطران على قصص مجموعة « السهل يحترق » والتي تبدو وكأن الزمن فيها قد توقف وتجمد سرّياته ، وينسحب هذا القول على جميع القصص سواء الوصفية منها (مثل « لوبينا ») أو الحوارية (مثل « قل لهم يتركوني أعيش ») أو التي تتناول حدثاً خارجياً (مثل « تالبا ») .

وقد استطاع « رولفو » بيده الخبيرة الماهرة إيقاف الزمن ومحو الروابط الخارجية للشخصيات ليصنع لنا هذا العيش الباطني ، ويجعلنا نحس بالمأساة الوشيكة التي لا مناص منها .

ولشرح وبيان هذا التكنيك (توقف الزمن وتجمد سرّياته) سنضرب بعض الأمثلة الموجزة ، ونبدأها بقصة « لوبينا » :

يقودنا « رولفو » من بداية القصة إلى زمن غير حقيقي (وهمي) ، إلى زمن متوقف داخل شخص ما ؛ فالعبارة الأولى من القصة تخلو تماماً من أية إشارة يمكن أن تساهم في تأطير المكان وتحديده .

« من بين تلال الجنوب العالية فإن أكمة « لوبينا » هي الأشد ارتفاعاً والأكثر تحجراً » . ثم يتابع الوصف المثقل باللون الرمادي بهدف إبراز الجوانب السلبية للعالم الخارجى : « إنها موبوءة بتلك الحجارة الرمادية التى يُصنع منها الكؤس وإن كان فى « لوبينا » لا يصنع منها كس ولا يستفاد منها بشيء » .

وتطالعنا الفقرة التالية بعلامات تشير إلى محذوف : « ... والأرض شديدة الارتفاع » ، وما حسبناه وصفاً للمؤلف يخيل إلينا الآن وكأنه تأمل لشخص ما ، وبالفعل عندما نصل إلى نهاية الفقرة نعرف أننا دخلنا - دون أن ندري كيف - فى وصف منطوق ومستمر على لسان أحد الأشخاص : « أحيانا يزدهر نبات « الشيكالوته » بشقائقه البيضاء ، مختبئاً بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظل . لكن الشيكالوته سرعان ما يذبل ، وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية ... » . لانحس هنا بأن أحداً يكتب بل يتكلم ، والإبهام الذى يشع من « أحد » يساعد على حجب هوية المتكلم ، وهكذا نكتشف أن ما بدا وكأنه وصف خارجى ، من عمل الراوى ، ما هو إلا طرف لمحادثة نابعة من داخل الحكاية نفسها .

ويزداد حجم الدهشة عندما نصل إلى الفقرة الثالثة والتي نستدل من العلامة التى تبدأ بها (الشرطية) على أن الكلام الذى سنسمعه ما هو إلا جزء من حوار : « - سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على « لوبينا » . إنها قاتمة » .

وفى نهاية الفقرة الثالثة يطالعنا شخص آخر - نظن أنه المؤلف -
ليقول : « ظل ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتاً برهة محملاً فى
الفضاء » .

من يتحدث ؟ ومع من ؟ وأين ؟ وبهذا الشكل ينقلب الحوار إلى نوع
من « الديالوج » الداخلى « لذلك الرجل » الذى لانعرفه ؛ إلى ديالوج عارٍ
تماماً عن ملايسات الزمان والمكان .

وهذه إحدى خواص « رولفو » الأسلوبية وسمة من سمات رؤيته
للعالم : إنه لا يكلف نفسه مطلقاً عناء تسمية شخصياته أو إزالة
مايكتنفها من غموض وإبهام .

ومن جهة أخرى ، فقد ساهم هذا الإبهام الذى يغلف المكان -
بالإضافة إلى اللون الرمادى والإلحاح على الجوانب السلبية فى الوصف
وتحول الكاتب بخفة من دور الراوى إلى تقمص دور إحدى الشخصيات
- فى إضعاف الروابط بين الواقع وبين من يلاحظه (وهذا ما يسمى
بالواقعية السحرية) .

وكما تقدمت القصة زاد الإحساس بالجمود والتوقف الزمنى ،
فـ « لوبينا » من الخارج لا يحدث فيها شىء (تمطر قليلاً نعم ،
تمطر قليلاً) ؛ لا يتحدث فيها أحد تقريباً ولا يعمل ؛ حتى الريح بالرغم من
جوارها فهى ساكنة و « مكومة » هناك . كل شىء متوقف فى « لوبينا » :
« إنه مكان يعيش فيه الحزن » ، لا يوجد هناك سوى العجائز جالسين
على عتبات دورهم « معلقين أبصارهم بشروق الشمس وغروبها ... إنها
العادة ، يطلقون عليها هناك « القانون » ، والقانون والعادة من الأمور
الثابتة التى لا تتغير .

وطبقاً لرأى الشخص الذى يتأمل بصوت مرتفع ، فإن الإيقاع الخارجى للحياة فى « لوبينا » معطل ، وتكرار هذا الشخص للكلمات والأفكار يودى إلى تقوية الإحساس بالعزلة ويتوقف كل شىء :

« - سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على « لوبينا » ، إنها قاتمة - يقولون إنها تجرر رماداً من البركان ، لكن الشىء المؤكد أنه هواء أسود . عما قريب سترى ، إنه يمسك بتلابيب الأشياء فى لوبينا وكأنه يعضها ... عما قريب سترى » .

وتكرار الكلمات والأفكار خاصة أسلوبية أخرى لـ « رولفو » ، ويبدو كأن شخصياته لاتريد الخروج من ذواتها لكى لاتسمح بأى تطور أو نمو زمنى ، ولذلك فهى معتادة على تكرار بداية الفكرة كل بضعة جُمَل ، مما يعطى الانطباع بأن الكلمات تنطلق فى اللحظة نفسها دون فاصل زمنى .

وبهذه الطريقة يقدم لنا « رولفو » رؤيته لواقع الحياة الريفية المكسيكية التى يبدو فيها وكأن شىئاً لا يحدث فى الخارج ، وإذا حدث فإنه يتم بطريقة آلية ، وفاءً لقانون العادة ، أو فى شكل انفجار عنيف (شخصى أو جماعى) يترسب فى النهاية داخل عتمة السكون بذوات الأشخاص الذين يشبهون الطبيعة القفر وكأنهم جميعاً رموز خرساء .

ولم تسلم القصص ذات الطابع الدرامى المعتمد على الحوار من خاصية تعطل الزمن وتجمد الأحداث الخارجية ، فالقصة التى

تحمل عنوان « قل لهم يتركوني أعيش » تتضمن انفجارين عنيفين من تلك الانفجارات التي تقطع السريان الرتيب للزمن الداخلى لهذه الشخصيات : حادث قتل ، وبعده بخمس وثلاثين سنة حادث إعدام ، وهما فى الحقيقة حدثان ميكانيكيان لاغيران من سكون وكرب الواقع الذى يتخيله المؤلف بداخل شخصياته ، بل يمكن القول بأن الرقابة وشدة وطأة القدر على هذه الذوات يؤديان إلى تضائل الإحساس بكل حدث خارجى ، هذا لأننا بداخل حيوات مطرودة من « التاريخ » ، بداخل عالم يبدو من داخله وكأنه لامفر من الإذعان الصامت لحتمية « المكتوب على الجبين » .

لنتأمل هذا الجزء من القصة :

« من كان يظن أن ذلك الحادث الكريه الذى عفى عليه الزمن وابتلعه النسيان - حسب اعتقاده - سيعود ليطل برأسه من جديد ، عندما دفعته الظروف ليقتل « دون لويى » ، لم يقتله شططا كما يدعى أهل « ليما » ، بل كانت لديه الدوافع والأسباب ، مازال يذكر ما حدث :

كان « دون لويى تيريروس » صاحب إقطاعية « لاويورتا دى لاويدرا » وفوق هذا أباه من العماد ، ولهذا السبب اضطر « خوبنتثيو نابا » لقتله ؛ لكونه صاحب « لاپويرتادى لاويدرا » ولأنه أيضاً أبوه من العماد ، ومع هذا منع ماشيته من المرعى .

تحمل فى البداية ، مراعاة لما بينهما من أواصر الصلة ، لكنه بعد أن حل الجفاف ورأى ماشيته تتساقط واحدة بعد أخرى من فرط

الجوع الذى ألهبها بسياطه ، وأبوه من العماد ما زال يركب رأسه ويضنُّ عليها بعشب خيوله ، قرر وقتها إزالة سياج المرعى أمام كَبَّة حيواناته شديدة الهزال لكى تأكل حتى التخمة . لم يعجب هذا « دون لوبى » وأمر بإعادة السياج إلى ما كان عليه ليعود « خوبنثيو نابا » ليفتح فيه من جديد إحدى الثغرات . وهكذا ، ظلت الثغرة تغلق بالنهار لتفتح بالليل بينما ينتظر القطيع هناك متربصاً بجانب السور ، ذلك القطيع الذى كان يستمد من قبل مقومات وجوده ، معتمداً - فقط - على شَمِّ رائحة العشب دون التمكن من الوصول إليه .

احتدم النزاع بينهما ولم يصلا لاتفاق

وقتل لى عاجلاً من العجول .

فى شهر مارس يكون قد انقضى على هذا خمس وثلاثون سنة ، لأننى أمضيت الشهر التالى له هائماً على وجهى فى الجبل فراراً من العدالة .

إن القدر المشئوم والتأمل المقتضب يمثلان هنا لُحمة التكنيك القصصى لواقعية « رولفو » التى تعتبر حادث القتل ومرور الخمسة والثلاثين عاماً وكأنها لم تكن .

ومن سمات هذا التكنيك الذى ينفرد به « رولفو » أنه عندما يشير الى الواقع الخارجى ، فإنه لا يحاول تفسيره أو شرح الميكانيزم الداخلى لهذا الواقع الذى يتأمله أو يخترعه ، بل يقدمه كما هو ويتركه ليتكفل بشرح نفسه ، وعلى هذا فالموضوعية الغربية التى قد تتراعى

من بين ثنايا هذه المجموعة القصصية لاتمت بصلة لأشكال السرد التقليدية أو للتراث القصصى فى حقبة ما بعد الثورة .

ومن الغريب والمدهش حقًا أن يطل علينا هذا التكنيك الخاص بكتابتنا فى موضوع مثل المطاردة التى تتناولها قصة « الرجل » ، إن الزمن فى هذه القصة لا يتحرك فى اتجاه أفقى (من — إلى) بل فى خط رأسى (من أسفل إلى أعلى) ذلك لأن الأحداث تتراكم فوق بعضها بحيث تصبح نقطة النهاية فى مستوى نقطة البداية نفسها وتكون النتيجة إصابة الزمن بالشلل وتجمد الأحداث أو - بمعنى أصح - تحركها فى مكانها نفسه . وكل هذا يتم فى تكنيك معقد إذ من الصعب التمييز فى سرد قصة المطاردة بين صوت الراوى / المؤلف أو المطارد (الساعى للأخذ بثأره) أو المطارد (من عليه الثأر) أو شاهد العيان الوحيد ؛ ولذا فمن الضرورى اتمام قراءة القصة - شأنها فى ذلك شأن معظم قصص المجموعة - حتى يمكن تجميع النتف التى تتساقط من اشارات المتكلمين ورسم صورة تقريبية لجوهر الأحداث .

لكن ، بالرغم من تناثر الموضوع (التيمة) إلا أننا نستطيع بعد تجميع أشلائه الإجابة على الاستفسارات الرئيسية . والجزء الأول من القصة يسير أو يتحرك واقفًا فى زمنين : الزمن المتعلق بإشارات السهارب ، والزمن الآخر يتعلق بإشارات من يطارده ، وفى منتصف الطريق يضطلع بالمهمة راوٍ يتحدث بضمير المتكلم ، ثم وجهة نظر

الشاهد العرضي : وهو راعي أغنام يدلى بشهادته أمام سلطات الأمن بالمنطقة . . . وجميع شخصيات القصة هلامية أو زئبقية لا يمكن الإمساك بها ، لأنها سرعان ما تنفقت من بين أصابعنا وتتلاشى في السهل .

وإزاء هذه الرؤية الخاصة لكاتبنا مازال القارئ حتى اليوم يقع في حيرة إذا أراد شرح وتفسير هذه المجموعة القصصية : إذ لا يستطيع تحديد ما إذا كان « رولفو » يريد أن يقدم من خلالها صورة لما كان زملاؤه في جيل الخمسينيات يسمونه « الذات المكسيكية » (جوهر عارٍ عن التاريخ) ، أو إذا كانت تعكس رؤية خاصة به لعالم قد تشكل خلال فترة طويلة ومعقدة من العنف التاريخي .

وهناك العديد من القصص ذات الأهمية الكبيرة داخل المجموعة ومنها على سبيل المثال : « لقد أعطونا الأرض » (التي تفتتح المجموعة) ؛ « الليلة التي تركوه فيها وحيداً » ؛ « نقطة العبور إلى الشمال » ، « يوم الزلزال » ؛ « السهل يحترق » (وهي التي أعطت عنوانها للمجموعة) . والقاسم المشترك بين هذه القصص يتمثل في إمكانية تحديد إطارها التاريخي : « فالسهل يحترق » و « الليلة التي تركوه فيها وحيداً » تتناولان طرفاً من أحداث الثورة المكسيكية (١٩١٠) وحركة التمرد التي قام بها « لوس كريستيروس » (١٩٢٦-١٩٢٨) ؛ أما « لقد أعطونا الأرض » فتشير إلى عقم سياسة الإصلاح الزراعي وعدم مصداقيتها ؛ بينما تتناول « يوم الزلزال » الديماغوجية السياسية التي سادت فترة ما بعد الثورة ؛ وتكشف « نقطة العبور إلى الشمال » عن التردّي المعيشي وحالة البؤس التي أجبرت - ولاتزال - ملايين الفلاحين على محاولة

التسلل عبر الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ومن جهة أخرى ، فإن القراءة المتأنية لهذه المجموعة تبرهن على مدى سطوة « القانون » (أو القدر) على القاعدة البشرية العريضة حتى قبل الاحتلال الإسباني ذاته . كما يتضح أن هذا « القانون » لم تُمله قوة خارج أسوار الحياة ، وإنما سنُّه ويسنُّه - دائماً - آخرون بعيداً من أجل مصالحهم ومنافعهم الشخصية ولا تعرف منه الجموع سوى آثاره السلبية عليها ، وهذا « القانون » يمثّل - اجتماعياً - فى شخصية « مندوب » الحكومة أو « الحاكم » أو « الإقطاعى » أو « ربّ العمل » أو الزعماء وأشباههم أو فى الحكومة ذاتها بعسكرها وقضاتها ومحاميتها ، ولما كان « القانون » فى صالح هؤلاء الآخرين الذين يصوغونه بعيداً ولا ترى منه الكتل البشرية إلا ما يعكّر صفوها فإنها لاتجد وسيلة للاحتجاج سوى الثورة الدموية التى تنتهى دائماً بالهزيمة والفشل الذريع ، وتكون النتيجة هى السقوط فى مستنقع الخنوع والإذعان والاستسلام لهذا « القانون » (أو القدر) .

وكل شخصيات « رولفو » تقريباً من هذا النوع الخانع لقدره المستسلم له .

وعلى سبيل المثال ، فإن الراوى فى قصه « عند السحر » ليس متأكداً من ارتكابه لجريمة قتل صاحب العمل « دون خوستو » : « يقولون إننى قتلته . ربما » ؛ ومع هذا لايدافع عن نفسه بل يستسلم ويدعن لما يقوله الآخرون ، وكأن هذا قدره الذى عليه أن يقبله فى صمت ولذلك نجده يرجع وجهه نظر الآخر (القدر) ويقول فى تبدل :

« لكن لاشك في أنهم لم يضعوني في السجن عبثاً وإنما لشيء فعلته ، ألا تعتقد أنني على صواب في هذا الاستنتاج ؟ » .

شيء مشابه لهذا نجده في « لقد أعطونا الأرض » ، وبالتحديد في شكوى الفلاحين لمدوب الحكومة من عدم نفع الأرض التي سلموها لهم :

« - اكتبوا ما تقولون في شكوى ، والآن أغربوا عن وجهي ، إنه الإقطاع الذي يجب أن تصبوا عليه جام غضبكم وليست الحكومة التي تمدكم بالأرض .

- مهلا ، ياسيادة المسئول . لم نقل شيئاً ضد الحكومة . كل كلامنا موجه للسهل ...

لكنه لم يرد سماعنا » .

وصورة أخرى للإذعان والاستسلام نراها في هذا الرجل الذي لم يقاوم السلطات عند إلقائها القبض عليه وهو يعلم المصير الذي ينتظره ، بل إنه قام بعد ذلك بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التي سيعلق عليها .

يقول الراوى في قصة « ألا تذكر ! » : « قبضوا عليه في الطريق . كان يعرج ، ولما جلس ليستريح وصلوا إليه . لم يقاوم . يقولون إنه هو الذي قام بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التي حازت إعجابه لكي يعلقه عليها » .

فالسلطات الحكومية بكل أفرادها وهيئاتها لا تتدخل لإصلاح أحوال الناس أو لمساعدتهم بل بصفقتها - كما سبق وأشرنا - ممثلاً للقانون (أو القدر) ولذا فهم لا يتوقعون خيراً من جهتها ،

لكنهم برغم ذلك يرضخون لأحكامها على اعتبار أنها شيء قدرى لا يمكن دفعه أو الفكك منه .

لنتأمل هذا الجزء الساخر الحزين من قصة « لوبيينا » والذي لا يحتاج إلى تعليق لشدة بلاغته وتعبيره :

(حاولت ذات يوم إقناعهم بالذهاب إلى مكان آخر ، أرضه جيدة .

« هيا من هنا ! - قلت لهم .. لن نعدم وسيلة للإقامة فى بقعة أخرى . ستساعدنا الحكومة » .

سمعونى دون أن تطرف لهم عين ، نظروا إلى من قيعان عيونهم بنقطة الضوء التى تطل منها بعيداً .

- تقول الحكومة ستساعدنا ، يا حضرة المدرس ؟ أتعرف الحكومة ؟
قلت لهم نعم .

- نحن أيضاً نعرفها . يالها من مصادفة ! ما لانعرف عنه شيئاً هو أم الحكومة .

قلت : لهم إنها الوطن . هزوا رؤوسهم قائلين : لا . وضحكوا ، كانت المرة الوحيدة التى رأيت فيها أهل « لوبيينا » يضحكون ، شحذوا أسنانهم غير المتناسقة وقالوا لى : لا ، الحكومة لا أم لها .

وعندهم حق ، تعرف ؟ هذا الرجل لم يعلم عنهم شيئاً إلا عندما قام أحد أبنائه بارتكاب خطأ هناك تحت ، وساعتها قامت الحكومة بمطاردته حتى « لوبيينا » وقتلته . غير هذا لا يعرفون لها وجوداً . (.

يتضح من المثال السابق مدى قدرة « رولفو » على التهكم والسخرية اللاذعة ، وإذا كانت السخرية تمثل عنصراً من العناصر في قصة « لوبينا » فإنها تعتبر المحور الأساسي والعمود الفقري لعدد من القصص الأخرى ومن أهمها « يوم الزلزال » و « أنكليتو مورونيس » . في هاتين القصتين المتضمنتين أيضاً لصور من العنف والدمار يشهد « رولفو » قريحته ليوجه سهاماً نارية لبعض الأوضاع القائمة (السياسية والاجتماعية) من خلال السخرية المرّة ، ففي قصة « يوم الزلزال » ينتقد الكاتب الديماغوجية السائدة في فترة ما بعد الثورة . فعندما دمر الزلزال منطقة بأسرها وسوأها بالأرض وتسبب في موت الكثيرين تحت الأنقاض هرعت الحكومة ، ممثلة في الحاكم ومستشاريه وحاشيته ، بزيارتها . ولم يستفد المتضررون من الزيارة سوى بعض الوعود الجوفاء وسيلا من الخطب المنمقة العالية النبرات ، بل إن الزيارة كانت عبئاً لامعنى له ، لأن الأهالي جمّعوا ما تبقى لديهم من أموال لتغطية نفقاتها الباهظة ، وفي هذه القصة تمادى « رولفو » في إبراز التناقض الحاد بين الكلمات المعسولة الجوفاء وبين الواقع الأليم للنكبة لدرجة أن القارئ تنتابه موجة من الضحك لا يستطيع السيطرة بسهولة عليها .

وفي قصة « أنكليتو مورونيس » ينسج الكاتب صورة مضحكة مبكية لآثار الفقر والجهل والتخلف وسطحية التدين في المجتمع ، فقد سمحت هذه العوامل مجتمعة لداعر محتال بالتحول إلى قديس يفد إليه الناس طلباً للكرامات .

إنها إحدى القصص القليلة في المجموعة التي يظهر فيها الحوار جلياً ، وقد نسج الكاتب خيوطه بمهاره ودهاء واعتمد عليه في إبراز حدة التناقض بين وجهتين للنظر في غاية التباين .

إن الحديث عن هذه المجموعة التي تضم سبع عشرة قصة قد يطول إلى ما لانهاية ، لأنها نبع ثر لا يفيض ماؤه ويكتنفها الغموض والإبهام ، ومن ثم فإنها تحتمل العديد من التأويلات ، إن الكلام عنها مهما كثر لا يغنى عن الانفراد بها وقراءتها مرات ومرات لأنها كالماء الأجاج كلما عب منه الإنسان ازداد عطشه وأحس بالحاجة للرجوع إليه ، ولأن كل كلمة فيها وضعت بقدر ... إن الجمل فيها أشبه بدفقات سلاح نارى ، لكنه سلاح من أرض « رولفو » : تخرج طلقة من فوهته إلى الأمام وترتد الثانية من مؤخرته في الاتجاه المعاكس ؛ فهي تتقدم خطوة وتتقهقر أخرى ، وكأن كل جملة تعض ذيل سابقتها وتعوقها عن الحركة . وليس هذا وحسب ، بل إننا نجد أحياناً خالية من الروابط وأحياناً أخرى نجد بها كلمة محورية تدور حولها بقية الكلمات .

وبالطبع فإننا لم نطف بجميع سراديب هذه المجموعة لأن هذا العمل يتطلب المزيد من الوقت والجهد والصفحات ومقتضى الحال لايسمح بهم ، ومع ذلك مازالت تلح كلمات واجبة في حق هذا الكاتب المُقَلِّ الذي برهن على أن الإبداع لا يوزن بحجمه وكثرته ، بل بمقدار ما يحمل من إتقان وجودة .

إن « رولفو » يعتبر إحدى العلامات المضيئة في تاريخ القصة والرواية بأمريكا اللاتينية بالرغم من أعماله المحدودة . وهو وإن كان ليس مُجدِّداً ، إلا أنه الأكثر حنكة وبراعة بين الكتاب التقليديين ، إنه يتناول ما يعرفه ويحس به من خلال اتصاله المباشر والعميق بالأشياء الجوهرية : الحب ، الموت ، الأمل ، الفقر ، العنف ... الخ . وبه استطاع الأدب « الإقليمي » أن يتجاوز التصوير الفوتوغرافي والبعد الفولكلوري وأن يقتحم آفاقاً غير معهودة ، لأنه يعرض الحقائق عارية ، وأسلوبه مصفى خال من الشوائب ولغته موجزة وحادة مثل عالمه ، إنه ليس واعظاً ولا معلماً ولا فيلسوفاً ، بل مجرد إنسان مرهف الحس ، يبكي بحرقة أرضه التي كانت مروجاً في الماضي ، وحوكها الدمار إلى مقابر ينشق البوم فوقها ، إنه لا يقدح الخيانة والظلم بل يعانيتها في صمت حزين ، لأنهما جزء من وباء الحياة ذاتها .

على عبد الرؤوف البمبي

لقد أعطونا الأرض

بعد ساعات عديدة من السير دون العثور على ظلٍ لشجرة أو فسيلة أو أثر لنبات ، يُسمع نباح الكلاب .

وسط هذا الطريق بلا شطآن خَطَر للواحد مرات أنه لا يوجد شيء بعده ، وأن من المستحيل مقابلة شيء على الجانب الآخر ، فى نهاية هذا السهل المتصدع بالشقوق والأودية الجافة . لكن ، يوجد شيء ، هناك قرية ، يتناهى إلى الأذن نباح الكلاب ويُحس فى الهواء برائحة الدخان ، وتُستطعم رائحة الناس تلك كما لو كانت أملا .

لكن القرية مازالت بعيدة ، إنها الرياح التى تُقربها .

نسير من طلعة الفجر . الساعة الآن كالرابعة مساء . أحد يطلّ فى السماء ، يمد عينيه إلى حيث يتدلى قرص الشمس ويقول :
- إنها حوالى الرابعة مساء .

هذا الأحد هو « ميليتون » . معه يمضى « فاوستينو » ، « إستيبان » وأنا . نحن أربعة . بإمكانى عدّهم : اثنان فى الأمام ، ومثلهما فى المؤخرة . أنظر إلى الوراء ولا أجد غيرنا ، حيثُذ أحدثت نفسى : « نحن أربعة » . منذ فترة ، فى حوالى الحادية عشرة ، كنا بضعا وعشرين ؛ لكننا تبعثرنا حفنة بعد أخرى إلى أن بقيت هذه الأنشطة التى نمثلها .

يقول « فاستينو » :

- يحتمل أن تمطر .

رفعنا جميعاً وجوهنا ونظرنا إلى سحابة سوداء ثقيلة تمر فوق رؤوسنا . قلنا لأنفسنا : « يمكن » .

لانتفوه بما يعتمل في صدورنا . من فترة ورجبتنا في الكلام قد تبخرت ، قضت عليها الحرارة . بإمكان الواحد التحدث على راحتته في مكان آخر ، لكن الأمر هنا يتطلب جهداً ، إذا نطق الواحد تسخن الكلمات في فمه من شدة الحرارة وتجف على اللسان حتى تتلاشى مع الالتهات .

هكذا الأشياء هنا . ولذا ليس لأحد الرغبة في الكلام .

تسقط قطرة ماء ، كبيرة وثخينة ، محدثة ثقباً في الأرض لتترك حوله عجينة لزجة كما لو كانت بصقة ، تهاوت بمفردها . انتظرنا أن تتبعها أخريات ، لا أثر لمطر . لو توجهت العيون إلى السماء الآن ستري أن السحابة المترعة بالماء تركض بعيداً جداً ، بكل ما أوتيت من سرعة . الرياح القادمة من القرية تدفعها نحو الظلال الزرقاء للقمم العالية . والقطرة الساقطة ، سهواً ، تلتهمها الأرض وتواربها داخل عطشها .

ماذا يفعل - بحق الشياطين - هذا السهل المترامي الأطراف ؟ ما

فائدته ؟

عاودنا السير ، كنا قد توقفنا لرؤية المطر ، لكنه لم ينزل ، ومن ثم نستأنف السير مجدداً ، يخيل إلى أننا مشينا أكثر مما قطعناه

من طريق ، هذا ما أظنه ، لو كانت أمطرت فلربما خطرت بيالى أشياء
مغايرة . على كل ، أتذكر أنني لم أرها تمطر فوق السهل منذ أن كنت
فتى ، مطرا بمعنى الكلمة .

نعم ، السهل لانفع فيه . لاتوجد حتى الأرناب أو العصافير ،
لاشئ سوى أعداد قليلة من شجيرات الطلح الجافة الهزيلة وبقعة أو
أخرى لأعشاب مكورة الأوراق ؛ وفيما عدا هذا ، لاشئ .

فى هذا المكان نسير ، الأربعة على الأقدام . قبل ذلك كان كل فرد
منا يمتطى جواداً ويتنكب بندقية « عيار ٣٠ » .

الآن لا يوجد معنا ولاحتى البندقية .

مازلت مقتنعا بأنهم كانوا على صواب حينما أصرروا على تجريدنا من
بنادقنا ، فمن الخطر اجتياز السهل مسلحاً . يقتلون الواحد دون سؤاله إذا
رأوا « عيار ٣٠ » متدلّياً من منطقتيه ، أما الجياد فهى موضوع آخر . لو
قدمنا على متونها ، كنا تذوقنا الآن مياه النهر الخضراء ، وتجولنا بمعداتنا
الخاوية فى شوارع القرية وأفرغنا فيها الطعام . كنا فعلنا هذا لو كانت معنا
الجياد ، لكنهم جردونا منها مثلما صادروا البنادق .

أتوجه إلى جميع الاتجاهات ولا أرى غير السهل . أرض
شاسعة بلا فائدة ، تنزلق نظرات الواحد إذا لم تصادف فى طريقها شيئاً
يوقفها . تخرج فقط ، ومن حين لآخر ، بعض السلاحف لتطل بأعناقها
من فوق جحورها فتلسعها حرارة الشمس وتضطرها للعدو بحثاً عن ظل

حجر للاحتماء به . أما نحن ، فعندما يتعين علينا العمل هنا ، ماذا سنفعل لاتقاء الحرارة الملتهبة ؟ لقد أعطونا هذه القطعة المكفهرة الجرداء من الأرض كي نزرعها .

قالوا لنا :

- من القرية إلى هنا لكم .

سألنا :

- السهل ؟

- نعم ، السهل . السهل الكبير بأكمله .

زمنا شفاهنا لنقول لانريد السهل ، نريد الأرض المتاخمة للنهر ، من النهر إلى الغوطات حيث تكثر أشجار « الكسوارين » * والمراعى والأرض الخصبة ، وليس جلد البقرة المتغضن هذا والمسمى بالسهل .

لكنهم لم يتركونا نفصح عن رغباتنا ، فمستول الإصلاح الزراعى لم يأت لإضاعة الوقت فى الحديث معنا . سلمنا أوراق الملكية قائلا :

- لاتهابوا من تخصيص أراض شاسعة لكم وحدكم ، لاتستكثروها على أنفسكم .

- إن السهل ، ياسعادة المستول

- إنها آلاف مؤلفة من الأفدنة .

- لكنها تفتقر إلى الماء . لا يوجد منه مقدار مضمضة .

* كسوارين(Casuarinas) : أشجار ذات أوراق تشبه ريش طيور سريعة الطيران (الترجم)

- والمطر ؟ لم يصرح أحد بأنكم ستتملكون أراضٍ تعتمد على
الرى ، بمجرد أن تمطر هناك ، سترتفع أعواد الذرة وكأنها تُمد مدًا .

- لكن أراضى السهل ، ياسعادة المسئول ، صفيقة وصلبة ونجزم بأن
المحراث لا يستطيع النفاذ إلى أحشائها لأنها مثل المحاجر ، وسيكون من
الضرورى اللجوء إلى الفأس لإحداث فتحات بها وإلقاء الحبوب فيها ،
ومع هذا فلن ينبت بها شيء : لا ذرة ولا غيرها .

- اكتبوا ما تقولون فى شكوى ، والآن اغربوا عن وجهى . إنه
الإقطاع الذى يجب أن تصبوا عليه جام غضبكم وليست الحكومة التى
تمدكم بالأرض .

- مهلا ، سيادة المسئول . لم نقل شيئًا ضد الحكومة ، كل كلامنا
موجه إلى السهل . . . لانستطيع تحمل ما لا طاقة لنا به . هذا ما قلناه . .
انتظر وسنشرح لك . لنبدأ من حيث انتهينا . . .

لكنه لم يرد سماعنا .

وهكذا أصبحنا ملائكا للأرض ، وعلى هذا الفخار الساخن يريدون منّا
بذر الحب وانتظار إمكانيه نباته ونموه ، لكن لن يرتفع فيها شيء ، ولا حتى
تلك العقبان الكبيرة السوداء التى يراها الواحد هنا فى الأعلى وهى تتسابق
محاولة الخروج من هذا الفضاء المتوهج القاسى حيث لا يهتز شيء وحيث
يمشى الواحد وكأنه يرتد على عقبه .

يقول « ميليتون » :

- هذه هى الأرض التى أعطوها لنا .

يسأل « فاستينو » :

- ماذا ؟

أنا لا أنبس ببنت شفة . أحدث نفسي : « رأس ميليتون » ليست في مكانها . لا بد أن الحرارة هي التي جعلته يهدى هكذا ، الحرارة التي اخترقت قبعته وأسخت رأسه ، وإلا ، فما الداعي لكلامه ؟ أين الأرض التي أعطوها لنا ، يا « ميليتون » ؟ لا يوجد هنا ولا مشقال ذرة من تراب تلعب معها الرياح لعبة الدوامة » .

عاد « ميليتون » ليقول :

- ستكون لها فائدة ما . حتى ولو في عدو الأفراس .

- أية أفراس ؟ - سأله « إستيان » .

لم أدق النظر من قبل في « إستيان » كما ينبغي . الآن ، وهو يتحدث ، أهدق فيه . إنه يرتدى ستره تصل إلى سُرته ، ومن تحت السترة يطل برأسه شيء مثل دجاجة . نعم ، إنها دجاجة ملونة تلك التي يحملها « إستيان » تحت سترته ، تُرى عيناها الناعستان ومنقارها المفتوح وكأنه يتشاءب . سأله :

- من أين لك هذه ؟

- إنها دجاجتي - ردّ علىّ .

- لم تكن معك من قبل ، فمن أين سرقتها ؟

- لم أسرقها ، إنها من حظيرتى .
- أحضرتها ، إذن ، زاداً للطريق ، أليس كذلك ؟
- لا ، حملتها للعناية بها . بقيت دارى لوحدها ولا يوجد من يقدم لها الطعام ؛ لذلك أحضرتها . كلما أذهب بعيداً أحملها معى .
- ستموت مختنقة وهى مختبئة بهذا الشكل ، من الأفضل إخراجها لتشم الهواء . . .
- أراحها تحت ذراعه وراح ينفخ عليها هواء فمه الحار ، ثم قال :
- ها قد وصلنا إلى الهاوية .
- لا أسمع الآن بقية كلام « إستيبان » . وقفنا صفا لنهبط الوهدة وهو أمامى مباشرة وقد أمسك الدجاجة من رجليها ويجتهد فى تحريكها باستمرار حتى لاتصطدم رأسها بالأحجار .
- تطيب الأرض كلما نزلنا ، يتصاعد الغبار من جهتنا كما لو كانت كوكبة من البغال هى التى تهبط ؛ لكن التدرثر بالغبار يسعدنا . يعجبنا . بعد السير إحدى عشرة ساعة متواصلة على صلابة السهل ، نحس بالمتعة ونحن ملفوفون بتلك الذرات التى تتقاذف علينا وطعمها طعم التراب .
- فى أعالى النهر ، تطير أسراب الطيور على رءوس أشجار « الكسوارين » . هذا أيضا يعجبنا ، نباح الكلاب يُسمع حولنا الآن ، ذلك لأن الرياح القادمة من القرية تجعله يرتطم بالوهدة ويغمرها بضجيجه .

عاد « إستيبان » لاحتضان دجاجته عندما أصبحنا على مشارف القرية . أطلقها لتستفيق من خدرها ، وبعدها اختفى هو ودجاجته خلف حرج من نباتات اللوف .

- لن أبرح هذا المكان - قال لنا « إستيبان » .

تابعنا التقدم وتوغلنا فى القرية .

الأرض التى أعطوها لنا توجد هناك ، أعلى الوهدة .

مطلع العرّابات

(أو « لاكويستا دي لاس كومادرس » *)

كان فقيدا آل « تورريكوس » (Torricos) صديقين دائمين لى ، ربما كانا مكروهين فى « ثابوتلان » (Zupotlán) ، لكن صداقتهما الحميمة لى دامت إلى ما قبل موتها بقليل ، أما بالنسبة لكراهية أهل « ثابوتلان » لهما فلم تعد لها أهمية الآن ، لأنهم لم يكونوا يحبوننى أيضاً هناك ، وأعتقد أنهم لم ينظروا أبداً بعين الرضا لى فرد يتسمى لـ « مطلع العرّابات » . هذا معروف منذ أمد بعيد .

من جهة أخرى ، لم يكن آل « تورريكوس » على وئام مع ساكنى « مطلع العرّابات » ، لأن الخلافات بينهم كانت شبه مستمرة ، ولا أبالغ لو قلت إن عائلة « تورريكوس » كانت صاحبة الأرض وما عليها من بيوت ، علما بأن القسط الأعظم من « مطلع العرّابات » كان قد وزع علينا - نحن الستين مقيماً هناك - بالتساوى ، ولم تكن عائلة « تورريكوس » تزيد علينا إلا بقطعة من الجبل عليها نباتات اللّوف التى تتناثر بينها معظم البيوت ، بالرغم من هذا كانت « مطلع العرّابات » ملكا لعائلة « تورريكوس » . والأرض التى أفلحها يملكها أيضاً كل من « أوديلون » و « ريميخيو » تورريكو ، والرّبى الخضراء - الثمانية عشرة - التى تظهر هناك تحت كانت بالكامل تخصهما ، لم يكن هناك داعٍ للتحقق من شىء لاستسلام الجميع للوضع القائم منذ فترة طويلة .

* « لاكويستا دي لاس كومادرس » (La Cuesta de las Comadres) اسم مكان

(علم جغرافى) ، ومعناها : مطلع العرّابات ، فهى من الأسماء الأعلام التى لها معنى (المترجم)

ومن تلك الأيام حتى وقتنا هذا و « مطلع العرابات » يهجرها ساكنوها . من حين لآخر ، كان يرحل أحد السكان ، كان يجتاز مكان مظلة القطعان التي لم يبق منها سوى عمودها الطويل ، ويختفى بين أشجار البلوط ولا يعود للظهور ثانية .

كانوا يرحلون فقط ، وأنا أيضاً كان بإمكانى الرحيل عن طيب خاطر لإدراك السرّ الكامن وراء الجبل والذي لايسمح لأحد بالعودة ؛ لكن تعلقى بأرض « المطلع » وصداقتى الحميمة لعائلة « توريكوس » أقعدانى عن الرحيل .

تقع قطعة الأرض التي أزرع جزءاً منها كل عام بالذرة والجزء الآخر بالفاصوليا على الجانب العلوى ، هناك حيث يهبط السفح تجاه الوهدة المسماة « رأس الثور » .

لم يكن المكان قبيحاً ، غير أن الأرض كانت تتحول إلى مادة لزجة مع حلول موسم الأمطار وتتساقط بها حجارة صلبة حادة مثل جذوع تبدو وكأنها تنمو مع الزمن . ومع هذا ، فقد كانت أعواد الذرة تثبت بها جيداً والكيزان التي تغلّتها حلوة المذاق . كانت عائلة « توريكوس » لا تستغنى عن ملح كربونات الصودا فى كل ما تزدرده من طعام ، لكنها لم تحاول ولم تلمح لضرورة إضافة هذا الملح لكيزانى التي كانت ضمن منتجات « رأس الثور » * .

* يشير الكاتب هنا - عن طريق التورية - إلى ظلم عائلة « توريكوس » وتعداداتها على زراعات الآخرين فى المنطقة المسماة « رأس الثور » ، وعن استثنائها لأراضى راوى القصة المزروعة بالذرة من هذا التعدى ، وإذا يصف الراوى محصول ثرته (الكيزان) بأنها حلوة المذاق ، لأنها كانت بالتأكيد خالصة له . (المترجم) .

لهذا السبب ، ولأن الروابي الخضراء - الثمانية عشرة - الواقعة تحت ، كانت هي الأفضل ، هجر المنطقة سكانها . لم يكونوا يذهبون ناحية « ثابوتلان » بل يأخذون الوجهة الأخرى التى تهب علينا منها كل ساعة تلك الرياح المعبقة برائحة أشجار البلوط وحفيف الجبل . كانوا يمضون صامتين ، دون التفوه بكلمة أو الصدام بأحد ، بالتأكيد كانت رغبتهم عارمة فى الشجار مع عائلة « توريكوس » للثأر من الأضرار الجمة التى ألحقوها بهم ؛ لكنهم لم يجدوا الشجاعة الكافية .

الشيء العجيب أنه بعد موت آل « توريكوس » لم يفكر أحد فى العودة ، ظللت أنتظر ، لكن لم يرجع أحد ، وجهت عنايتى أولاً لدورهم ؛ أصلحت السقوف وسددت شقوق الحوائط بأفرع الشجر ؛ ولما رأيت تأخر عودتهم تركتها لحالها، الوحيدة التى لم تتأخر أبداً فى المجيء كانت أمطار نصف العام الغزيرة وتلك الرياح التى تهب فى فبراير وتقتلع سقف البيت الذى آوى إليه ، من حين لآخر كانت تأتى أيضاً أسراب الغربان طائرة بالقرب من الأرض وهى تنعق عالياً كما لو كانت متأكدة من تواجدها بمكان خال من السكان .

سارت الأمور حتى الآن على هذا المنوال بعد موت آل « توريكوس » .

من قبل ، ومن هنا ، حيث أجلس الآن ، كانت « ثابوتلان » ترى بوضوح ، فى أية ساعة من الليل أو النهار كان يمكن رؤية بقعة « ثابوتلان » البيضاء بعيداً هناك ، أما الآن فقد ارتفعت نباتات « الخارياس » * وتعاقت ، وإمالة الريح لها من جانب لآخر لم يعد كافياً لرؤية شيء من خلالها .

* « خارياس » (Jarillas) : نباتات من عائلة الفلقاسيات . (المترجم) .

عما مضى ما زلت أذكر كيف كان عميدا آل « توريكوس » يأتیان أيضا للجلوس هنا ويظلان قابعين ساعات وساعات إلى ما بعد الغروب وهما ينظران دون كلل إلى هناك وكأن المكان هذا يستولى على أفكارهما أو يُذكى فيهما التأمل في الضوضاء المنبعثة من « ثابوتلان » وتدعوهما للتجول فيها ، علمت وحدي بعد ذلك أن السبب لم يكن هذا ولاذاك ، كانا يرقبان الطريق فقط : ذلك الطريق الرملی الواسع الذى يمكن متابعته بالعين المجردة من بدايته حتى اختفائه بين أشجار صنوبر قمة « لاميديا لونا » .

لم أعرف مطلقًا أحد يضارع « ريميخيو توريكو » فى حدة البصر . كان أعور . لكن يبدو أن العين السوداء نصف المطبقة المتبقية له كانت تقرب الأشياء بدرجة كبيرة وتضعها تقريبًا فى متناول يده ، ومن هذه المسافة يرصد بدقة متناهية أى جرم يتحرك على الطريق . وهكذا ، فعندما تلمع عينه بالرضا بعد التدقيق فى شىء ما ينهض هو وأخوه من مرقبهما ويختفیان من « مطلع العرّابات » زما قد يطول أو يقصر .

فى أيام غيابهما كان يتغير كل شىء بيننا ، يذهب الناس لإحضار بهائمهم من الكهوف الجبلية ويربطونها فى حظائرهم ، وتظهر الخراف والديوك الرومى ، وفى تلك الأيام تسهل رؤية أكوام الذرة والقرع العسلى وهى مطروحة للشمس فى أفنية الدور ، وبالرغم من أن الرياح التى تجتاز القمم العالية تكون أشد برودة من مرات أخرى إلا أن الكل هناك (فى

مطلع العرّابات) كان لا يتورع - دون معرفة السبب - عن التأكيد على جودة المناخ واعتداله ، ومثل أى مكان هادئ مطمئن ، كان الواحد يسمع صياح الذبّكة ، وكأن السلام يرفرف دائماً بجناحيه فوق « مطلع العرّابات » .

وبعد ذلك يعود آل « توريكوس » كإنا يعلنان عن مقدمتهما قبل أن يصلا ، ذلك لأن كلابهم كانت تخرج مسرعة ولا تتوقف عن النباح حتى تستقبلهما .

وتقدير المسافة والاتجاه الذى سيصلان منه كان يتوقف فقط على النباح ، وعندئذ يسارع الناس مشوشين لإخفاء حاجياتهم ثانية . كان فقيدا « توريكوس » مصدراً للربح كل مرة يعودون فيها إلى « مطلع العرّابات » .

وبالرغم من هذا ، لم يحدث أن تملكنى الخوف بتاتاً منهما كنت صديقاً حميماً لهما ، بل وتمنيت أحياناً لو رجعت بى الأيام إلى الوراء قليلاً حتى أكون على شاكلتهما وانخرط فيما يصنعون . على أية حال ، فإن تقدم السن بى وقتها حال بينى وبين الانسلاخ من هويتى ، تذكرت فى تلك الأمسية أننى ساعدتهما مرة فى سرقة بغال ، ووقتها أيقنت أن شيئاً ما ينقضى ، وأن حياتى المنصرمة كانت شتاتاً ، ولم تكن تتسع لأعباء إضافية . نعم ، تيقنت من هذا .

دعانى عميدا عائلة « توريكوس » وسط موسم الأمطار لأساعدهما فى جلب أجولة من السكر ، مضيت خائفاً بعض الشيء . بداية ، لأن النوة كانت من ذلك النوع الذى يبدو فيه المطر وكأنه يكشط الواحد من تحت قدميه . ولأننى ، ثانياً ، لم أكن أعرف المكان الداهيين إليه ، على أية حال ، فقد تبين لى هناك أننى لم أخلق لمثل هذا النوع من المغامرات .

أخبراني أن المكان المقصود ليس بعيداً ، « خلال ربع ساعة سنكون هناك » ، قالوا لي . لكن عندما بلغنا طريق « لاميديا لونا » كان الليل قد أرخى سدوله ، وحينما وصلنا إلى حيث يوجد البغال كان قد انصرم معظمه .

لم يأت البغال لرؤية القادم ، بالتأكيد كان ينتظر آل « توريكوس » ، ولهذا السبب لم يلفت وصولنا انتباهه . ظننت هذا . لكن البغال ظل طوال الوقت الذي أمضيناه في نقل أجولة السكر من هنا إلى هناك ساكنا ، مستلقياً بين حشائش المراعى الكثيفة ، عندئذ أخبرت آل « توريكوس » بما يلي . قلت لهم :

- هذا المستلقى هناك ، يبدو وكأنه فارق الحياة أو شيئاً من هذا القبيل .

- لا ، لا بد أنه نائم - قالوا لي - . تركناه عند متاعنا هذا ، ولا بد أنه تعب من الانتظار فنام .

ذهبت إليه وركلته بقدمي في ضلوعه لكي يستيقظ ؛ لكن الرجل ظل ممدداً كما كان .

- إنه ميت بالتأكيد - أخبرتهما ثانية .

- لا توهم نفسك ، إنه مجرد فقدان للوعي من جراء ضربة النبوت التي سددها « أوديلون » إلى رأسه ، لكنه سينهض فيما بعد ، عندما تطلع الشمس وتلسهه حرارتها سينهض بسرعة ويذهب إلى داره في الحال . عليك بإحضار الجوال الذي هناك ! - هذا كل ما قالاه لي .

اتجهت ثانية نحو الميت وسددت إليه ركلة أخرى أحدثت رنيناً مثل الرنين الناجم عن ركل جذع شجرة جاف ، وبعد ذلك وضعت الحمولة على كتفي وسبقتهما ، كانا يتبعاني ، سمعتهما يغنيان خلال فترة طويلة إلى أن طلع الفجر ، لم أعد أسمعهما عندما لاحت تباشير الصباح .

حملت نسمة الهواء العليلة التي تسرى قبيل الشروق أصوات لحنهما ،
ولم أعد أعرف إذا كانا يتبعانى ، إلى أن سمعت نباح كلابهما المتسابقة
يسرى فى جميع الاتجاهات .

ومن تلك الواقعة عرفت كيف يتجسس آل « توريكوس » على الأشياء
التي تمر تحت من على الطريق وهما جالسان كل مساء إلى جوار دارى فى
« مطلع العرّابات » .



لقد قتلت « ريمخيو توريكو » .

لم يكن قد تبقى وقتذاك غير نفر قليل من مربى القطعان . غادر
الأولون المكان واحداً إثر آخر ، أما المتأخرون فقد ذهبوا تقريباً فى
جماعات ، متهزين فرصة قدوم موسم الصقيع والثلوج ، فى السنوات
السابقة كان الثلج يأتى ويقضى على المزرعات فى ليلة واحدة ، وهذا العام
أيضاً ، لذلك غادروا المكان . بالتأكيد اعتقدوا أن المشهد نفسه سيتكرر العام
التالى ويبدو أنهم فقدوا الرغبة فى مواصلة تحمل أرزاء المناخ كل عام وبلايا
آل « توريكوس » كل آن . وهكذا ، فعندما قتلت « ريمخيو توريكو »
كانت « مطلع العرّابات » والرّبى المجاورة خالية تقريباً من السكان .

حدث هذا فى شهر أكتوبر على ما أعتقد ، أذكر أن القمر كان فى
ليلة تمامه ساطعاً بالضوء ، لأننى كنت جالسا خارج دارى أرقع
- مستعيناً بضوء القمر المكتمل - جوالا داهمته الثقوب عندما
وصل « ريمخيو » .

لابد وأنه كان ثملاً . وقف قبالتى يتأرجح ، حاجباً بتمايله ضوء القمر الذى أهتدى به فى عملى وكاشفاً له تارة أخرى .

- المواربة من أقبح الخصال - قالى لى بعد صمت طويل - . تعجبى الصراحة ، وإذا كان يروك الانحراف فقد أتيت هنا لأقومه لك .

واصلت ترقيع جوالى ، كانت عيناي منهنمكتين فى حياكة ثقبه ، والمسلة الطويلة كانت تعمل بنشاط كلما غمرها ضوء القمر .

بالتأكيد تصور لهذا أنى لا أحفل بكلامه .

- أنا أوجه لك الكلام - صاح حانقاً - . تعرف جيداً ما أتيت لأجله .

انتابنى الفزع قليلاً عندما اقترب منى وألقى على وجهى هذه الكلمات ، وبالرغم من هذا ، حاوت التطلع إلى وجهه لمعرفة حجم حميته ، وبقيت محملاً فيه وكأننى أسأله عن سرّ قدومه .

أتى ما فعلت ثماره ، فقد أصبح أكثر هدوءاً ليواجهنى قائلاً إن مثلى من الناس يجب أن يؤخذ على غرة .

- يجف حلقى وأنا أحاطبك بعد الذى فعلته - قال لى - ؛ لكن أخى كان صديقاً حميماً لى مثلك تماماً ، ولهذا فقط أتيت لأستوضح منك ملابسات موته .

كنت أسمع به بجلاء . تركت الجوال فى جانب وبقيت متفرغاً لسماعه .

عرفت أنه يلقى علىّ تبعة قتل أخيه . لكنى لم أفعلها . كنت أعرف القتلة ، لكنه أوصد الباب فى وجهى ولم يعطنى الفرصة لأسميهم له .

كنا نصل ، أنا و « أوديلون » ، لحد التشاجر مرات عديدة - أستمر
موجهها الكلام لى - . كان صعب المراس نوعًا ما ويستهوويه التحرش بمن
أمامه ، لكنه لم يكن يتجاوز هذا الحد . بتسديد بعض الضربات أو
اللكمات كان يهدأ . وهذا ما أريد معرفته : إذا كان قد قال لك شيئًا ، أو
أراد أن يسلب منك شيئًا ما أو ماذا حدث . ربما كان يريد ضربك ويادرتة
أنت . شىء من هذا لابد وأن يكون قد جرى .

هزرت رأسى لأقول له لا ، ليست لى علاقة . . .

- اسمع - قاطعنى - ، « أوديلون » كان يحمل فى محفظته ذلك
اليوم أربعة عشر « بيزو » * . عندما رفعته وفتشت جيوبه لم أجد فيها تلك
النقود ، وبعدها علمت أنك اشتريت بطانية .

كان هذا صحيحًا . بالفعل اشتريت بطانية . وجدت أن البرد قادم
والمعطف الذى كان لدى تآكل بكامله ، ولذا ذهبت إلى « ثاپوتلان »
وابتعت بطانية ، لكننى بعت لهذا الغرض جديين كانا عندى ، كان بإمكانه
رؤية الجوال الذى ملأته الشقوب نتيجة لحملى الجدى الصغير فيه لأنه لم
يكن قد وصل إلى حد الاعتماد على أرجله كما كنت أبغى .

- كن متأكدًا من أننى سأنتقم ممن فعل هذا بأخى ، كائنا من كان ،
وأنا أعرف من هو - وصلنى ما يقوله من فوق رأسى تقريبًا .
- بمعنى أنه أنا ؟ - سألته .

* « بيزو » (Peso) : عملة مكسيكية . (المترجم) .

كان قمر أكتوبر يغمر بضياهه سقف الحظيرة ويرسل بظل « ريميخيو » الطويل إلى حائط دارى ، لمحته يتحرك نحو شجرة المشمش ويمسك بالسيف القصير الذى أحفظ به مُعدًا دائمًا هناك . رأيته يعود بعد ذلك والسيف القصير فى يده .

لكنه عندما مشى من أمامى ، وقعت عيني على المسلة التى كنت غرزتها فى الجوال تلمع فى ضوء القمر . لا أدرى لماذا ، لكنى بدأت أثق ثقة عمياء فى تلك المسلة . ومن ثمّ ، فعندما اقترب منى « ريميخيو » سحبتها بسرعة من الجوال وغرزتها بالقرب من سرته . غرزتها حتى آخرها ، وتركتها فى موضعها .

أخذته رعدة وانحنى شيئًا فشيئًا إلى أن سقط على الأرض متكورًا يغشاه العرق ونظرة الفرع تطل من عينه .

مرت لحظة بدا فيها وكأنه سينهض ليطعننى بالسيف ؛ لكن من المؤكد أنه ندم على محاولته أو ارتج عليه فلم يدر ماذا يصنع ، وعندئذ سقطت السنجة من يده وتلوى من جديد . لم يفعل أكثر من هذا .

غامت نظرتة وأصبحت تشع حزنًا وتقطر أسى وكأنه تحت وطأة الإحساس ببوادر مرض مؤلم ، منذ أمد طويل لم يُقدر لى رؤية نظرة حزينة كتلك وتملكتنى الشفقة ، لذلك انتهزت الفرصة لأسحب المسلة من السرة وأغرزها أعلى ، حيث ظننت أنه مكان القلب ، وبالفعل ، غرزتها فيه ، لأنه انتفض مرتين أو ثلاثة مثل دجاجة مقطوعة الرأس ثم لازم الهدوء . كان ميتًا بالتأكيد عندما توجهت إليه قائلاً :

- اسمعنى يا « ريميخيو » اغفر لى ، فأنا لم أقتل « أوديلون » .
عائلة « الكارائس » هى التى قتلتته ، كنت هناك عندما قُتل ، لكننى على
يقين بأننى لم أمسه . كانوا هم ، جميع أفراد عائلة « الكارائس » .
استدرجوه ، ولما انتبهت ، كان « أوديلون » يحتضر . وتعرف لماذا ؟ بداية
لأن « أوديلون » ما كان يناسبه الذهاب إلى « ثاپوتلان » . أنت تعرف
هذا ، طال الزمن أم قصر كان ولا بد أن يحدث له شىء يعكر الصفو فى
تلك القرية التى لا يحبه معظم سكانها ، وعائلة « الكارائس » هى الأخرى
لم تكن تطيقه ، لا أنا ولا أنت ندرى سبب استفزازه لهم هناك .

« لقد جرى ما جرى فجأة . كنت قد فرغت من شراء بطانيتى
وخارجاً عندما تفل أخوك ما فى فمه من عرقى على وجه واحد من عائلة
« الكارائس » . فعل هذا مازحاً ، بقصد أن يتسلى لأنه أضحك من كانوا
هناك - لكنهم كانوا جميعاً مخمورين . « أوديلون » وعائلة
« الكارائس » والجميع . وفجأة انقضوا عليه ، استلوا مديهم ومزقوه إرباً .
مات من هذا .

وكما ترى ، فلم أكن أنا القاتل ، وددت أن تعرف تمام المعرفة أنه لم
يكن لى فى الأمر لا ناقة ولا جمل .
هذا ما قلته للمرحوم « ريميخيو » .

كان القمر قد انتقل إلى الجانب الآخر لأشجار البلوط عندما رجعت
إلى « مطلع العرّابات » ومعى الصيّادة الماهرة . قبل أن أحفظها فى

مكانها غمستها عدة مرات فى مياه الغدير لأزبل آثار الدم العالقة بها .
كنت سأحتاجها بعد قليل ولا يروق لى رؤية دم « ريميخيو » ماثلا أمامى
على الدوام .

حدث هذا فى شهر أكتوبر على ما أظن ، أثناء احتفال « ثاپوتلان »
بأعيادها ، وأقول إن ما حدث جرى فى تلك الأيام لأنهم فى « ثاپوتلان »
كانوا يطلقون الصواريخ ، بينما كانت ترتفع من الجهة التى ألقىت فيها
بالجثة أسراب الطيور من جراء فرقة الصواريخ فى الفضاء .

مازلت أتذكر هذا .

فقراء لحد الضياع

تنحدر الأمور هنا من سيئ إلى أسوأ . الأسبوع الماضي ماتت عمتي « خائيتا » ويوم السبت ، بعد أن وارينها التراب وبدأت كواهلنا تتخفف مما عليها من أحزان ، أخذت تمطر مطراً لم يسبق له مثيل .

أطار هذا صواب أبي لأن محصول الشعير كان مكوماً للشمس في الفناء . هبط وابل الأمطار فجأة ، في موجات عظيمة متتالية ، ولم يدع لنا فرصة لنتقذ من بين برائنه ولو حفنة واحدة ؛ كل ما استطعنا عمله ، جميع أهل الدار ، هو الاحتماء تحت سقيفة والتطلع إلى المياه الباردة المتساقطة من السماء وهي تحرق وتبيد ذلك الشعير الأصفر الذي حصدناه مؤخراً .

وبالأمس فقط ، وهو اليوم الذي أكملت فيه أختي « تاتشا » الاثني عشر ربيعاً ، علمنا أن البقرة التي أهداها لها والدي بهذه المناسبة قد جرفها النهر .

بدأ فيضان النهر عند الفجر من ثلاث ليالٍ خلت . كنت مستغرقاً في النوم ، ومع ذلك فإن الصخب المصاحب للنهر عند زحفه أيقظني في الحال وجعلني أثب من الفراش والغطاء في يدي ، كما لو كنت قد أعتقدت أن سقف البيت يخرّ فوق رأسي ، لكنني عدت إلى الفراش بعد ذلك ، لأنني تعرفت على صوت النهر ، ولأن هذا الصوت ظل يهددني بإلحاحه حتى جلب لي النعاس ثانية .

عندما نهضت ، كان الضباب يلف الصباح ويبدو أنها استمرت تمطر دون انقطاع . اشتد صخب النهر وأصبح يُسمع على مقربة . كان الجو معبّقًا بالرائحة التتنة للمياه الهادرة وكأنها دخان حريق ضخم .

كان النهر قد فقد شاطئيه عند ما أطلت عليه . أخذ يرتفع رويدًا رويدًا في الشارع الرئيسي إلى أن اقتحم بسرعة فائقة بيت السيدة التي يطلقون عليها اسم « لاتبورا » . كانت تُسمع بربطة الماء عند دخوله الحظيرة وعند خروجه متدفقًا من الباب بينما تغدو « لاتبورا » وتروح منهمكة في إلقاء دجاجها بالشارع لكي يبحث لنفسه عن مأوى يعصمه من الماء .

وعلى الجانب الآخر ، عند المنعطف ، لا بد أن يكون النهر قد حمل - دون أن يدري أحد متى كان ذلك - شجرة التمر هندی التي كانت في فناء دار عمتي « خائيتا » لأنني لا أرى الآن أثرًا لها ، كانت الشجرة الوحيدة بالقرية من هذا النوع . ولهذا السبب وحده أدرك الناس أن الفيضان الذي نشاهده يفوق جميع الفيضانات التي داهمت القرية من سنوات عديدة .

في المساء عدنا ثانية ، أنا وأختي ، لرؤية طوفان المياه التي يزداد غمقانها وثخانتها تدريجيًا وتغطي حاليًا المكان الذي يجب أن تكون فيه القنطرة . ظللنا هناك ساعات وساعات نتطلع إلى ذلك المنظر دون أن ينال منا التعب .

صعدنا بعد ذلك إلى التلّ لنسمع بوضوح ما يقوله الناس ، لوجود جلبة شديدة هناك تحت ، إلى جوار النهر ، حيث تُرى أفواه كثيرة تُفتح ثم تُغلق كما لو كانت تريد التعبير عن نفسها ؛ لكن لا يُسمع شيء . لهذا السبب صعدنا إلى التلّ حيث يوجد أناس آخرون ينظرون إلى النهر

ويعددون الأضرار التي أحدثتها ، وهناك عرفنا أن النهر حمل « لاسيريتينا » ، تلك البقرة التي أهداها والدي لأختي « تاتشا » في عيد ميلادها وكانت لها عينان جميلتان وأذن بيضاء والأخرى ملونة .

لا أدري كيف سوكت لها نفسها عبور النهر هذا عندما وجدته مغايراً للنهر الذي تعهده كل يوم . « لاسيريتينا » لم تكن أبداً بليدة الحس أو عديمة الإدراك ، بالتأكد كانت نائمة عندما داهمتها مياه الفيضان . فى مرات كثيرة كنت أضطر لإيقاظها من سباتها بعد فتح باب الحظيرة ، لأننى لو تركتها على هواها ولم أفعل هذا لبقيت اليوم بطوله هناك بالداخل مغمضة العينين ، ساكنة بلا حراك وهى تنهد ، وكأنها تسمع تنهيدات الأبقار النائمة وتتجاوب معها .

لابد وأنها كانت نائمة أيضاً ساعة أن جرفها التيار ، ربما حاولت الاستيقاظ عندما أحست بالمياه الشخينة تدق ضلوعها ، ربما تملكها الفزع حينذاك وحاولت الرجوع ؛ لكنها وجدت نفسها محاطة بسياج تلك المياه السوداء القاسية التى تشبه الأرض المتحركة . ربما جارت طالبة النجدة .

الله وحده يعلم كيف جارت ا

سألت الرجل الذى شاهدها والنهر يجرفها إذا كان قد رأى أيضاً ابنها الرضيع الذى كان معها ، لكن الرجل أنكر رؤيته ، قال فقط إن البقرة المنقطة مرت على ظهرها بالقرب من المكان الذى كان فيه ، وهناك ابتلعها الدوامة فلم يعد يرى لها قرونًا ولا أرجلا ولا أية علامة تدل عليها ، فقد كانت تتدحرج على صفحة النهر جذوع أشجار وفروع وسيقان نباتات وكان هو مشغولاً باصطياد الخطب مما جعله لا يستطيع التحقق مما إذا كان التيار يجرف حيوانًا أو جذوع أشجار .

ولذا لانعرف إذا كان الرضيع حيًا أو سحبه التيار خلف أمه ، لو كان الأمر الأخير ، فليتغمد الله الاثنين برحمته .

الورطة التي تحمق بدارنا ، بسبب بقاء أختى « تاتشا » خاوية الوفاض ، ستكتشف أبعادها في القريب العاجل ، ذلك لأن والدى استطاع ، بعد صنوف من الأعمال المضنية ، أن يشتري « لاسيرينتين » وهى عجلة صغيرة ويتعهدا بالرعاية والتربية حتى كبرت ووضعت مولودها الأول ثم قدمها هدية لأختى لكي يكون لها رأس مال ولو صغير تتزوج به وتفتدى من الانحراف الذى انحدرت إليه أختاى الكبيرتان من قبل .

وطبقًا لما يرويه أبى ، فقد انحرفت أختاى بسبب فقرنا المدقع ولأنهما ، علاوة على هذا ، كانتا عنيدتين ومشاكستين منذ نعومة أظفارهما . ولما شبتا عن الطوق ساءت أحوالهما لمصداقتهما رجال علموهما أشياء معيبة . انغمست الاثنتان فى التيار بسرعة وتعلمتا الانصياع لنداءات الطالبين لهما فى الساعات المتأخرة من الليل .

وبعد ذلك لم تتورعا عن فعل هذا فى وضوح النهار ، فقد كثر خروجهما إلى النهر بحجة جلب الماء وأحيانًا ، على غير المتوقع ، كانتا تنتظران عشاقهما فى الحظيرة .

عندئذ طردهما أبى . احتملها فى البداية قدر ما استطاع ؛ ولما ناء به الحمل بعد ذلك ألقى بهما فى عرض الطريق . طاب لهما المقام فى « أيوتلا » أو لأدرى أين ، حيث احترقتا البغاء .

لهذا يعتصر الألم أبى من أجل « لاتاتشا » ، فهو لا يود أن تلقى مصير أختيها بعد أن أصبحت فقيرة دون بقرة تُسرى عنها أثناء ترعرعها وفورانها وتؤهلها للزواج من رجل مناسب يحافظ عليها ويبادلها الحب طيلة حياته .

وهكذا ازداد الأمر صعوبة الآن . فى وجود البقرة كان الوضع سيختلف ، لأنها لم تكن ستعدم من يتشجع للزواج بها حتى ولو من أجل امتلاك تلك البقرة الرائعة الجمال .

الأمل الوحيد الذى يداعبنا الآن يتمثل فى بقاء ابن البقرة الرضيع على قيد الحياة ، نتمنى ألا يكون قد فكر فى عبور النهر خلف أمه ، لو ثبت هذا لقدّر لأختى « تاتشا » تفادى المصير المظلم .

وأى ترتعد فرائصها فرقا من مجرد التفكير فيه .

لاتدرى أمى سبباً للعقاب الجحيم الذى أنزله الله بها عندما وهبها بنات على هذا النحو ، وفى عائلتها لاتوجد جدّة واحدة من هذا الصنف ، فقد تربين جميعهن على الخوف من الله ومراقبته وكن مؤدبات ولم يقترفن غلطة واحدة فى حق كائن من كان - ولهذا لاتدرى من أين وصل لبتيتها هذا النموذج السيئ . الأمر يحيرها ، تطوف بذاكرتها فى كل اتجاه ولاتتهدى لمكمن الخلل فى ولادة ابنة بعد أخرى بالمواصفات السيئة نفسها . لاتتذكر شيئاً ، وفى كل كرة ترد ابتساها على خاطرها ، تبكى وتقول : « ليهد الله الاثنتين ويتغمدهما برحمته » .

لكن أبى يعلل ذلك بحتمية القدر الذى لاتغنى منه حيلة . الخطر الداهم يكمن فىمن بقيت هنا ، فى « لاتاتشا » التى لا تتوقف عن النمو مثل عود صنوبر وتوحى مقدمات نمو نهديها بأنها ستكون على شاكلة أختيها : فهما مديبان وعاليان ورجرجتهما تثير الانتباه .

- نعم - يقول أبى - إن صدرها يحرض العيون على التملّى فيه ليفضى بها الحال إلى خاتمة مفاجئة ؛ إننى أتضوع ربح هذا المصير .

هذا ما يؤرق أبى ويزلزل كيانه .

تبكى « تاتشا » عندما علمت أن بقرتها لن تعود بعد أن أحمده النهر
أنفاسها . إنها هنا ، إلى جوارى ، بفستانها الوردى ، تطل على النهر من
فوق التلّ دون الكف عن البكاء . تتدفق على وجنتيها دموع عكرة وكأن
النهر قد حلّ واستقر بداخلها .

أعانقها محاولاً التسرية عنها ، دون جدوى . يزداد عويلها . يخرج
من فمها صخب مشابه لما تجرّره ضفتا النهر ، يجعلها ترتجف وتهتز ،
بينما يستمر علو الفيضان . يلمح طعام التتانة المتصاعد من هناك وجه
« لاتاتشا » المبتل ويتحرك نهذاها صعوداً وهبوطاً ، دون توقف ، وكأنهما
شرعا فى الانتفاخ فجأة وأخذاً يخططان لإضاعتها .

الرجل

غاصت قدما الرجل فى الرمال ، تاركة آثاراً غير مطبوعة مثل حافر حيوان . تسلّقت الأحجار ، متشبثة بمقدماتهما بها لانحدار المطلع ، ثم خطت نحو الأعلى باحثة عن الأفق .

« قدمان مفلطحان - قال الذى يقتفى أثره - . القدم اليسرى ينقصها الإصبع الغليظ - قليلون من بأقدامهم هذه العلامات . من السهل الاهتداء إلى صاحبهما » .

يتجه الطريق إلى أعلى ، تحيط به الحشائش التى تكثر بها الأشجار الشوكية ونباتات « لاس مالاس موخيرس » . يبدو من شدة ضيقه وكأنه صراط للنمل . يصعد دون تعرجات نحو السماء . يختفى هناك بعيداً ليعود للظهور ثانية تحت سماء أشد ارتفاعاً .

تبعث القدمان الطريق دون الانحراف عنه . مشى الرجل معتمداً على عقبه ، كاشطاً الحجارة بأظافر قدميه ، خددشا ذراعيه ، متوقفا عند كل أفق ليقبس نهايته : « ليست نهايتى بالطبع ، بل نهايته » ، قال . التفت ليرى صاحب الصوت .

لاتسرى نقطة هواء واحدة ، بل صدى صخبه فحسب بين الأفرع المقطوعة ، خائر القوى من السير متلمساً ، يعد خطواته ، حابساً أنفاسه : « ماضٍ إلى قدرى » ، عاد ليقول . وأدرك أنه هو الذى يتكلم .

« صعد من هنا ، ممسحاً الجبل - قال الذي يتبعه - . قطع الأغصان بسيف قصير . معلوم أن اللففة تجرجه ، واللففة تترك دائماً أثراً . هذا سيضيّعه » .

بدأ حماسه يفتر عندما طالت الساعات وخلف كل أفق يظهر آخر والتلّ لا ينتهى . أخرج السيف القصير وقطع الأفرع الصلبة وكأنها جذوع ثم اجتث الحشائش من جذورها ، مضغ بصقة قدره ثم تفلها على الأرض فى رباطة جأش ، لثم أصابعه وبصق من جديد . كانت السماء هادئة هناك فى الأعالي ، ساكنة ، تعكس صورة سحبتها بين ظلال أشجار الطلح غير المورقة . لم يكن الوقت وقت ترعرع الأوراق ، بل ذلك الزمن الجاف والصدئ للأشواك والسنابل البرية الجافة . كان يضرب بسيفه القصير الأعشاب والأشجار القصيرة : **« يمثل هذا العمل تخورقوى الواحد ، الأفضل لك ترك الأشياء قابعة فى سلام »** .

سمع صوته يتردد هناك خلفه .

« رباطة جأشه أفصحت عن هويته - قال مقتفى أثره - ، أعلن عن نفسه ولم يبق الآن سوى تحديد مكانه ، سأصعد حيث صعد ، وأهبط من حيث هبط ، ملاحقاً له حتى أتعبه . وعندما أتوقف سيكون هناك . سبجثو على ركبتيه طالباً منى العفو ، وسأدع رصاصة تستقر فى قفاه . . . هذا ما سيحدث عندما أجذك » .

وصل إلى النهاية . لاشئ سوى السماء الرمادية نصف المحترقة بغمامات المساء الكبيرة . كانت الأرض قد هوت إلى الجانب الآخر .

نظر إلى البيت الموجود قبالة ويتصاعد منه الرمق الأخير للدخان الجذوة .
شق لنفسه طريقًا في الأرض الطرية المحروثة حديثًا ، وبمقبض السيف
القصير طرق الباب دون رغبة . جاء كلب ولحق بركبته ، وجرى آخر
حواله محرّكًا ذيله ، عندئذ دفع الباب الذي يُغلق فقط في وجه الليل .

قال الذي يقتضى أثره : « أنجز عملا محكمًا ، لم يعطهم فرصة حتى
للاستيقاظ ، لا بد أنه وصل الساعة الواحدة تقريبًا ، عندما يكون النوم أشد
وطأة ؛ عندما يهجم النعاس ؛ بعد « تصبحون على خير » ، عندما تسرح
الحياة بين يدي الليل وعندما يחדش تعب الجسم أوتار الشكّ ويمزقها » .

**« ما كان ينبغي قتلهم جميعًا - قال الرجل - على الأقل ليس عن
بكرة أبيهم » .**

كان هذا ما قاله .

كان السحر رماديًا ، مترعًا بهواء بارد . هبط إلى الجانب الآخر ،
متزحلجا على المرج . ألقى بالسيف القصير الذي كان قابضًا عليه عندما
خدرّ البرد كفيه . تركه هناك . رآه يلمع بين السنابل الجافة مثل جزء من
أفعى بلا حياة .

هبط الرجل باحثًا عن النهر ، شاقًا لنفسه ثلثة جديدة بين أحراش

الجبل .

يجرى النهر هناك أسفل ، نائراً مياهه بين أشجار قصيرة فواحة مزدهرة ؛ محركاً في صمت تياره الثخين ، يمشى ويدور حول نفسه . يأتي ويروح مثل ثعبان متكور فوق الأرض الخضراء ، لا يحدث صوتاً . يمكن للواحد النوم هناك . إلى جواره ، ويستطيع سماع أنفاسه هو ، لا أنفاس النهر ، ينحدر العليق من الأشجار الفواحة العالية ويغطس في الماء ، تشابك أياديه لتشكل بيوت عنكبوت لا يستطيع النهر تفكيك خيوطها أبداً .

اهتدى الرجل إلى مجرى النهر بمساعدة اللون الأصفر للأشجار القصيرة الفواحة ، لا يسمعه ، يراه فقط متلوياً تحت الظلال . رأى طيور « تشاتشالاكس » قادمة . في المساء السابق كانت قد ذهبت باتجاه الشمس طائرة في زراقات خلف الضوء ، والشمس الآن على وشك الطلوع ولذا فهي تعود من جديد .

أشار على نفسه بعلامة الصليب ثلاث مرات . « معذرة » ، قال لهم ، وشرع في مهمته ، عندما وصل إلى الثالث كانت الدموع تتدفق من عينيه بغزارة ، أو ربما كان عرقاً . القتل مهمة عسيرة ، الجلد قابل للطي ، يستعصى على القطع ، يدرأ عن نفسه الخطر بالرغم من إيثاره الاستسلام . والسيف القصير كان مثلوماً : « معذرة » قال لهم ثانية .

« جلس على رمال الشاطئ - قال الذي يقتفى أثره - ، جلس هنا ولم يبرح مكانه لوقت طويل . أمل أن تنقشع السحب . لكن الشمس لم تطلع هذا اليوم ولا اليوم الذي يليه . مازلت أذكر ، كان يوم الأحد الذي فقدت فيه المولود حديثاً وذهبنا لدفنه . لم نكن حزاني ، أذكر فقط أن

السماء كانت رمادية والزهور التي كنا نحملها كانت حائلة اللون وذابلة
وكانها متأثرة بغياب الشمس .

الرجل هذا ظل هنا ، منتظراً . هاهى آثاره : العش الذى صنعه
بالقرب من الشجيرات ؛ حرارة جسمه التى تغوص مثل بثر فى الأرض
الرطبة .

**« ما كان ينبغي ترك الطريق - حدث الرجل نفسه - . لو لم أتركه
لكنت وصلت الآن ، لكن من الخطر السير حيث يسير الجميع ، خاصة
وأنتى تحت وطأة هذا الحمل الباهظ ، هذا الحمل الذى لا يمكن أن
تخطئه أى عين ترانى ؛ لا بد وأنه يرى مثل ورم غريب ، أحسه هكذا ،
عندما أحسست بإصبعى المقطوع ، كان الناس قد رأوه قبلى ولم أنتبه
إليه إلا فيما بعد . وهكذا لدى الآن ، رغماً عنى ، علامة توشى بى .
الحمل الذى أنوء به يجعلنى أحس به ، أوروبما نال منى التعب » . ثم
أضاف قائلاً : « ما كان ينبغي قتلهم جميعاً ؛ كان على الاكتفاء
بالمقصود ؛ لكن الظلام كان مطبقاً والأحجام متشابهة ... على أى
حال ، فالموت الجماعى يقلص تكاليف الدفن » .**

**« سينال منك التعب قبلى ، سأصل إلى حيث تريد الوصول قبل
وجودك هناك - قال الذى يتبعه - ، أحفظ عن ظهر قلب ما يدور
بخلدك ، من أنت ومن أين تكون وإلى أين أنت ذاهب ، سأصل قبل أن
تصل » .**

**« ليس هذا هو المكان - قال الرجل عند رؤية النهر ، - سأعبره من
هنا وربما أخرج على الشاطئ نفسه ، يجب تجاوزه إلى الجانب الآخر ،**

حيث لا يعرفنى أحد ولا يدري عنى شيئاً ، وبعد ذلك سأسير دون الانحراف يُمُنة أو يساراً حتى أصل ، لن ينتزعنى مخلوق من هناك » .

مرت جماعات أخرى من طيور « تشاتشا لاكس » وهى تنعق نعيقاً يصم الأذان .

« سأتقدم إلى الامام أكثر ، النهر هنا مشتجر ويمكن أن يعيدنى إلى حيث لا أربغ فى العودة » .

« لن يَمَسُّكَ ، يابنى ، أحد بسوء . أنا هنا لأحميك ، لهذا وُلدت قبلك واشتد ساعدى قبل ساعدك » .

كان يسمع صوته ، خارجاً من فمه على مهل . يحس به يرنّ مثل شىء زائف بلا معنى .

لماذا تفوه بهذا الكلام ؟ من المحتمل أن يكون ابنه يسخر منه الآن ، وربما لا .

« ربما يملكه الغضب منى لأننى تركته وحيداً فى ساعتنا الأخيرة . فقد كانت ساعتى أيضاً ؛ بل ساعتى فحسب ، قَدِم من أجلى ، لم يكن يبحث عنكم ، لأننى ببساطة كنت نهاية رحلته ، الوجه الذى حلم برؤيته ميتاً ، متمرغاً فى الطين ، مدعوساً بالقدم لحد التشوه ، مثلما فعلت بأخيه ؛ لكننى فعلته وجهاً لوجه ، أمام « خوسيه الكانثيا » وأمامك ولذت ساعتها بالبكاء والانتفاض رعباً ، ومن يومها عرفت من أنت وكيف ستأتى للثأر منى . انتظرتك شهوراً ، يقظاً بالليل والنهار ، متأكداً من مجيئك متخفياً مثل أفعى أثيمة ، وجئت متأخراً ، وأنا أيضاً وصلت

متأخرًا . أخرنى دفن المولود حديثًا . بدأت أدرك الآن . الآن أدرك سرّ ذبول الأزهار فى يدي « .

« ما كان ينبغى قتلهم جميعًا - يحدث الرجل نفسه - . لم يكن الأمر يستحق وضع هذا الحمل الباهظ على كاهلى . الأموات يفوقون الأحياء ثقلًا : يسحقون الواحد تحتهم . كان على أن أتحسسهم واحدًا بعد آخر حتى أعثر عليه ؛ كان بإمكانى التعرف عليه من الشارب ؛ وبالرغم من الظلام كان بإمكانى الاهتداء إلى الموضع الذى أضربه فيه قبل تمكنه من النهوض ... على أى حال ، ما حدث هو الأفضل - فلن يبكيهم أحد وسأعيش فى سلام ، المهم أن أجد مكانًا مناسبًا لعبور النهر قبل أن يدهمنى الليل « .

اتجه الرجل إلى مكان يضيق عنده النهر ، لم تظهر الشمس طيلة ما انصرم من نهار ، لكن الضوء كان قد انثنى وأمال الظلال ، ومنه أدرك الرجل أن الوقت يوافق ما بعد الظهر .

« لقد وقعت فى الفخ - قال الذى يقتفى أثره ويجلس الآن على ضفة النهر - . أوقعت نفسك فى ورطة ، فعلت أولاً فعلتك الشنيعة وتتجه الآن نحو التوابيت ، نحو تابوتك الخاص ، لا يهم أن أتبعك حتى هناك . يجب أن تعود عندما تتعثر فى القيود التى تلفلفها حولك ، سأنتظرك هنا .

سأستغل الوقت فى تقدير البعد المناسب للتصويب وتحديد المكان الذى سيتلقى الرصاصة ، لا ينقصنى الصبر وأنت تفتقده ، وهذه

ميزة لى . قلبى ينزلق ويتمرغ فى دمه ، وقلبك خرب وغاص بالعفن .
وهذه أيضا ميزة أخرى . ستموت غدًا أو ربما بعد غد أو فى غضون أيام
ثمانية ، لايهم الوقت ، لدى ذخيرة من الصبر لاتنفد » .
وجد الرجل النهر متصندقًا بين حوائط عالية فتوقف « يجب أن
أعود » ، قال .

النهر فى تلك الأماكن واسع وعميق ولايتعثر فى أى حجر ، ينزلق
فى مجراه مثل زيت ثخين ومتسخ ، ومن حين لآخر يبتلع فى دواماته
ضفدعة ، ويرتشفها رشفًا دون أن تصدر عنها شكوى واحدة .

« يابنى - قال الذى كان جالسًا منتظرًا - : آن الأوان لأخبرك أن من
قتلك فى عداد الأموات من هذه الساعة . أيعود علىّ من وراء هذا نفع ؟
القضية أننى لم أكن معك . فى ماذا يفيد الشرح ؟ لم أكن معك وكفى ،
ولامعها ، ولا معه . لم أكن مع أحد منكم ؛ لأن المولود حديثًا لم يترك
لى أى علامة للذكرى »

نكص الرجل على عقبه وقطع شوطًا طويلًا بحذاء النهر .

تثب على رأسه فقاعات من الدم . « ظننت أن الأول سيوقف الباقين
بحشرجه، ولهذا أسرعت » . « أستمحكم العذر فى العجلة » ، قال
لهم ، وأحس بعد ذلك بأن تلك الحشرة كانت مثل شخير النائم ؛ ولذا
تملكه الهدوء عندما خرج إلى الليل ، إلى برد تلك الليلة الملبدة بالغيوم .



كان يبدو أنه جاء هاربًا . كانت ساقاه ملطختين بالطين لدرجة لا يظهر معها لون بنطاله .

رأيته منذ أن غطس في النهر ، ترك نفسه للتيار دون أن يضرب يديه الماء كما لو كان يمشى على قاع النهر . اخترق الشاطئ بعد ذلك وترك أسماه لتجف . رأيته يرتعد من البرد . كان الهواء نشطًا والسماء ملبدة بالغيوم .

كنت أطلّ من فتحة الحظيرة التي عهد لي بها صاحب العمل لأرعى حملانه ، عدت ودققت النظر في ذلك الرجل دون أن أجعله يشعر أن أحداً يتجسس عليه حتى لا يرتبك .

اعتمد على ذراعيه وبقي ممدداً تاركًا جسده ليحجف ، أدخل نفسه بعد ذلك في القميص والبنطال المترعين بالثقوب . لاحظت أنه لم يكن يحمل شيئاً أو أى سلاح آخر ، لاشيء سوى غمد يقيم متدل من وسطه

نظر وعاود النظر في جميع الاتجاهات ثم ذهب . كنت على وشك النهوض لأحبس الحملان عندما رأيته يعود بهيئته المشوشة نفسها .

ألقي بنفسه مرة أخرى في النهر ، في فرعه الأوسط ، ميمماً طريق العودة .

« ما وراء هذا الرجل » سألت نفسي .

لاشياء . في طريقه للعودة سحبه التيار المندفح كالسهم وكان على وشك الغرق ، ضرب الماء بذراعيه دون هوادة لكنه لم يستطع العبور في النهاية وخرج هناك وهو يفرغ ما في أحشائه من ماء .

كرر عملية تجفيف نفسه وهو عارٍ تمامًا ثم سار بحذاء النهر في الاتجاه الذى قدم منه سلفًا .

من يُسلمه لى الآن ! لو كنت أعرف ما فعله لكنت أجهزت عليه رمياً بالحجارة دون أدنى تأنيب للضمير .

والآن أدرك أنه كان مجرمًا ، تكفى رؤية وجهة فقط للحكم عليه . لكنى لا أطلع على الغيب ، ياسيادة المحقق ، أنا مجرد راعى حملان ، وخوآف بعض الشىء عندما يجد الجد . صحيح ما تقوله حضرتك من أنه كان من السهولة بمكان إلقاء القبض عليه غيلة وأن حجرًا واحدًا موجهًا بعناية إلى الرأس كان كافيًا لتركه متيسبًا ، معك كل الحق ولا يمكن أن ينازعك فيه أحد .

وماتقصه علىّ بالنسبة لمن قتلهم مؤخرًا يجعلنى أؤنب نفسى . الفتك بالقتلة يسرّ الخاطر ، صدقنى ياسيادة المحقق ، ليست لى بعادة ؛ لكن لا بد -أن يحس الواحد باللذة وهو يعاون الرب فى القضاء على الضالين من عباده . لم ينته الأمر هنا ، رأيتهُ يعود اليوم التالى بحكاية مغايرة ، لكننى لم أكن أعرف شيئًا عن الحقيقة وقتها ، لو كنت أعرف !

رأيتهُ يعود ، بالقميص الممزق ، أشد نحافة من اليوم السابق ، وعظامه تطلّ من تحت جلده ، لم أصدق أنه هو ، وكأنى أراه للمرة الأولى .

عرفته من الهالة التى تحيط بعينه : عيان شبه جامدتين كأن بهما قذى ، رأيتهُ يعبّ الماء ثم يملاّ به فمه وكأنه يتمضمض ؛ لكن ما حدث أنه ابتلع حفنة كبيرة من اليرقات ، لأن النُقرة التى هبط إليها ليشرب كانت وطيئة وتعج باليرقات ، لا بد أنه كان جائعًا .

تأملت عينيه ، كانتا مثل ثقيين مظلّمين وكانهما عينا كهف ، اقترب
منى وسألنى :

« ألك هذه الحملان ؟ » . قلت لا . « إنها لمن ولدها » ، هذا ما
قلته له ، لم يعجبه قولى ، لم ينبس ببنت شفة ، اقترب من أسمن نعجة
ويديه قبض على إحدى أرجلها كالكماشة والتقم الضرع ، ارتفع ثغاء
الحيوان ، لكنه لم يفلته وظل يسحب ويسحب إلى أن سئم من الرضاعة
يكفى أن أقول لك إنه تعين على تطهير ضرع الشاة « بالكيرولين » لكى
يخف احتقانه ولا تحدث له التهابات من جرّاء عضات الرجل .

تقول إنه قتل جميع أفراد عائلة « أوركيدي » ؟ لو كنت أعرف لمزقته
إرباً ضرباً بالهراوة .

لكن الواحد جاهل ، يعيش الواحد فى التلّ منعزلاً ، لاصلة له بأحد
سوى الحملان ، والحملان لاتعرف القيل والقال .

عاود الظهور فى اليوم التالى ، عندما وصلت ، حضر . تولد بيننا
نوع من الألفة ، أخبرنى أنه ليس من هنا ، بل من مكان قصى ؛ لكنه لم
يعد يقوى على المشى لأن ساقيه لا تتحملانه : « أمشى وأمشى ولا أقطع
شيئاً ، ركبتيّ تشنّيان وهنّا وضعفًا ، والأرض التى أنتسب إليها بعيدة ،
بعد تلك الربى بكثير » . أخبرنى أنه أمضى يومين كاملين دون تذوق طعام
سوى بعض الأعشاب ، هذا ما قصّه علىّ .

تقول حضرتك إن الشفقة لم تأخذه بأفراد عائلة « أوركيدي » وقتلهم
عن بكرة أبيهم ؟ لو كنت أعرف لثُبت إلى رشدى وتملكنى العجب وأنا
أراه يرضع لبن نعاجى .

لكنه لم يكن يبدو سيئاً ، حكى لى عن زوجته وأولاده الصغار ،
وعن غربته عنهم . كان يرتشف المخاط عندما تلمّ به ذكراهم .

من دقة خاصرته يُستدل على شدة نحافته . بالأمس فقط أكل جزءاً
من خروف قتله البرق ، بالتأكيد كان النمل قد أتى من قبل على بعض
الخروف والبعض الباقي شواه على النار التى كنت قد أشعلتها لأسخن
عليها أقراص الذرة وأجهز عليه بالكامل . مصمص العظام وتركها
بلقعا . « الحيوان مات مريضاً » ، أخبرته .

لكنه ازدرده بالكامل ، وكأنه لم يسمعنى . كان جائعاً .

لكن حضرتك تقول إنه أودى بحياة هؤلاء الناس ، لو كنت أعرف !
وما السبيل إلى المعرفة فى ظل العزلة والثقة بالآخرين ، لست إلا راعى
غنم وخلاف هذا لا أعرف شيئاً ، وماذا يفيد لو أخبرتك أنه كان يأكل
خبزى نفسه ويغمسه فى قصعتى ذاتها !

ولأنى أتيت لأخبرك بما لدى من معلومات ، تعتبرنى مستتراً على
مجرم ؟ وتقول إنك ستودعنى السجن لإيوائى هذا الشخص ؟ وكأنى أنا
الذى أجهزت على تلك العائلة ، جئت فقط لأبلغ عن قتيل وجدته طريحاً
هناك فى نُقْرة بالنهر ، وتستجوبنى عن متى وكيف وأوصاف القتيل ،
وعندما أجيب على هذه الأسئلة أصبح مستتراً على مجرم .

صدقنى ، ياسيادة المحقق ، لو كنت أعرف هوية ذلك الرجل ما
عدمت وسيلة للفتك به ، لكن ما ذنبى فى الجهل به ؟ أنا لست علام
الغيوب .

ما قدمت له سوى الطعام وكان يحدثنى عن أولاده وعيناه تنهمران بالدموع .

وهو الآن ميت ، ظننت أنه نشر أسماله بين أحجار النهر لتجف ؛ لكنه كان هو ، بكامله ، منكفئاً هناك ، ووجهه فى الماء . اعتقدت فى البداية أنه انحنى ليشرب من النهر ولم يتمكن من رفع رأسه فاستنشق الماء بدلا من الهواء ، إلى أن رأيت الدم المتخثر يتدفق من فمه وعنقه مملوء بالثقوب .

لايخصنى استقصاء هذا الأمر ، أتيت فقط لأخبر سيادتكم بما جرى ، دون حذف أو إضافة . أنا راعى أغنام ولا أفهم فيما يتعدى حدود مهنتى .

عند السّحر

من وسط الضباب تطلع « سان جبريل » معروقة بقطرات الندى .
نامت غمامات الليل فوق القرية باحثة عن الدفء المنبعث من سكانها .
الشمس الآن على وشك الطلوع والضباب ينقشع ، ملفلاً ملاءته ، تاركاً
خيوطاً بيضاء على أسطح المنازل . من الأشجار والأرض المبتلّتين
يتصاعد ، مفتوناً بالسحب ، بخار رمادي لا يكاد يُرى ؛ لكنه سرعان ما
يتلاشى . وخلفة يظهر دخان المطابخ الأسود ، برائحة خشب البلوط
المحترق ، ليحجب السماء بذرات رماده .

التلال البعيدة هناك مازالت تلفها العتمة .

حلق طائر خطاف فوق الشوارع وبعده أعلنت الأجراس النّوبة الأولى
لقدوم الفجر .

أطقات الأنوار . حيثذ طوّقت بقعة ، كأنها من تراب ، القرية التي
استمرت لبعض الوقت تغط في سباتها ، متناومة في دفء بواكير
الصباح .



في طريق « خيكيلپان » ، المحفوف بالأشجار العالية ، يأتي العجوز
« إستيبان » على متن بقرة ، قائداً للقطيع الحلوب ، لقد صعد هنالك

ليتفادى مضايقة الجراد ووثوبه على وجهه ، يهش الذباب بقبعته العريضة
ومن حين لآخر يحاول ، بفمه الخالى من الأسنان ، الصّفير للأبقار حتى
لا تتخلف وتظل فى الورااء . كانت تسير وهى تجتر ، نائرة ندى الحشائش
على أجسادها .

يتكشف الصباح . يسمع دقات أجراس « سان جبريل » معلنة طلوع
الفجر فينزل من على ظهر البقرة ويجثو على الأرض ، وبذراعيه المبسوطين
يشير بعلامة الصليب .

تنعق بومة بين الأشجار وعندئذ يثب على ظهر البقرة من جديد ،
يخلع قميصه لكى يجعل الهواء البارد يذهب فزعه ، ويستمر فى طريقه .
« واحدة ، اثنتان ، عشرة » ، يعد الأبقار عند مروره بالحظيرة العمومية
الموجودة عند مدخل القرية . يستوقف إحدى البقرات من أذنيها ويقول لها
وهو يغط شفتيه : « سيفرقون اليوم بينك وبين ابنك ، يا حليقة الرأس ،
اذرفى الدمع مدراراً كما تشائين ؛ لكنه اليوم الأخير الذى سترين فيه ابنك
الصغير » . تنظر إليه البقرة بعينيها الوادعتين ، تضربه بذيلها وتمضى إلى
الأمام .

تدق الأجراس النّوبة الأخيرة للفجر .

لا يدري أحد ما إذا كانت طيور الخطاف تأتى من « خيكلبان »
أو تخرج من « سان جبريل » ؛ ما يعرف فقط هو أنها تأتى وتروح وهى
تزقزق ، ملوثة صدورها بطين المستنقعات دون أن تمسك عن الطيران ،
تحمل جماعات منها شيئاً ما فى مناقيرها ، تلمس الطين بدقاتها الريشية
وتبتعد ، تنسحب من فوق الطريق لتتوارى فى الأفق المعتم .

السحب الآن فوق الجبال ، بعيدة جداً ، تبدو مثل مظلات رمادية
مشدودة إلى سفوح القمم الزرقاء . ينظر العجوز « إستيان » إلى الشرائط

الورقية الملونة التي تطوف بالسماء : حمراء ، برتقالية ، صفراء ، تتحول
النجوم إلى اللون الأبيض . تنطفئ الومضات الأخيرة وتبرز الشمس ،
كاملة ، متوجة أطراف الحشائش بقطرات زجاجية .



« كانت سُرَّتِي باردة بسبب تعرضها للهواء ، لا أتذكر الآن لماذا .
وصلت إلى الدهليز المفضي إلى الحظيرة ولم يفتحوا لي . تهشم الحجر
الذي كنت أطرق به الباب ولم يخرج أحد . ظننت حينئذ أن صاحب
العمل ، سيدى « دون خوستو » ، لم يستيقظ بعد ، لم أخبر الأبقار
بشيء ولم أشرح لهن شيئاً ؛ انسحبت بخفية حتى لا تريننى وتتبعن
خطواتى . بحثت عن المكان المنخفض من السور وتسلقته ثم هبطت في
الناحية الأخرى بين العجول الصغيرة ، وبينما كنت أرفع مزلاج الدهليز
رأيت سيدى « دون خوستو » خارجاً من تحت مظلة الخيزران وهو يحمل
بين ذراعيه الصغيرة « مارجرىتا » التي كانت نائمة وعبر الحظيرة دون أن
يرانى ، التصقت بالحائط مخبئاً منه ، ومن المؤكد أنه لم يرني ، على
الأقل هذا ما ظننته . »

شرع العجوز في حلابة الأبقار ، بقرة بعد أخرى ، وكلما فرغ من واحدة أدخلها . ترك البقرة المحرومة من الاجتماع مع ابنها للنهاية ، لكن جوارها المستمر جعله يُشفق عليها ويدخلها . « هذه هي المرة الأخيرة - قال لها - . انظري إليه والعقيه بلسانك ؛ انظري إليه كما لو كنت تودعيه الوداع الأخير ، أنت على وشك الولادة ومازلت تدللين هذا المتصابي » . ثم التفت إليه قائلاً : « تذوق أثداءها فقط لأنها لم تعد لك ؛ ألا تدري أن هذا اللبن قد غدا رخواً ولا يناسب إلا حديث الولادة » . وعندما رآه يرضع من الأثداء الأربعة جنّ جنونه وانهاه عليه ركلا بالأقدام « سأحطم رأسك ، يا ابن الحيوان » .



« كنت سأمزق خيطمه بالتأكيد لو لم تنشق الأرض عن سيدي »
« دون خوستو » الذي سدد إلى عدة ركلات بقدمه لكي يهدىء من روعى . أخذ الهراوة بعد ذلك وأمطرني بوابل من الضربات جعلتني أسقط بين الأحجار وعظامي تسزق من شدة ما تلقت من هول . أتذكر أنني

ظللت طوال ذلك اليوم مخدراً وغير قادر على الحركة من الأورام الناجمة عن العلقة الساخنة ومن الألم الفظيع الذي مازلت أعانى منه حتى الآن .

ما الذى حدث بعد ذلك ؟ لا أدرى . كل ما أعرفه أننى لم أعد للعمل عنده ، لا أنا ولا غيرى ، لأنه مات فى ذلك اليوم نفسه . سيادتكم لا تعلم بهذا ؟ جاءوا ليخبرونى به فى البيت ، بينما كنت مستلقياً على سرير نقال وزوجتى إلى جوارى تضمد جراحى ، وتضع عليها الكمادات . جاءوا إلى ليخبرونى أننى قتلته . ربما يكون هذا ما حدث ؛ لكنى لا أتذكر شيئاً ، ألا تعتقد سيادتكم أن قتل آخر يترك آثاراً ؟ لا بد وأن يترك آثاراً ، خاصة إذا كان هذا الآخر يفوق القاتل قوة ومَنعة ، لكن لاشك فى أنهم لم يضعونى فى السجن عبثاً وإنما لشيء فعلته ، ألا تعتقد أننى على صواب فى هذا الاستنتاج ؟

خذ بالك معى : ما أتذكره بوضوح يمتد إلى اللحظة التى ضربت فيها العجل الصغير وما تبعه من هجوم سيدى على ، إلى هنا تعمل الذاكرة بوضوح ، أما ما حدث بعد ذلك فكله غامض المعالم ، أعتقد أننى غبت تماماً عن الوعى بعد تمددى على الأرض وعندما أفقت كنت فى سريرى وزوجتى هناك إلى جوارى تشجعنى على تحمل آلامى كما لو كنت صبياً صغيراً ولم أبلغ من الكبر عتياً ، لدرجة أننى صحت فيها : اصمتى ! أتذكر ما قلته لها ، كيف أنسى - يا امرأتى العجوز - أننى قتل رجلاً ! ومع هذا ، يصرّون على أننى الذى أردت « دون خوستو » قتيلاً . بماذا قتلته إذن ؟ يقولون بحجر ، أليس كذلك ؟ ربما

حالفهم الصواب في هذا لأنهم لو قالوا إنني قتلته بسكين لوصفتهم
بالعته لأنني لا أحمل سكينًا منذ أن كنت شابًا يافعًا ، ومن يومها حتى
وقتنا هذا مرت سنوات لا تحصى .



ترك « خوستو بارامبيلا » ابنة أخته « مارجريتا » على السرير ،
محاولاً عدم إحداث ضوضاء . في الغرفة المجاورة كانت تنام أخته التي
أقعدها الكساح منذ عامين وجعل جسدها مثل خرقة بالية ، وإن كان النوم
لا يزور عينيها إلا لمآماً ، لا يغشاها النعاس إلا فترة قصيرة عند السحر ،
تنام فيها وكأنها أسلمت الروح إلى بارئها .

استيقظت عند طلوع الشمس ، كانت قد بدأت تفتح عينيها عندما
وجدت « خوستو بارامبيلا » يضع جسد « مارجريتا » النائم على الفراش .
سمعت أنفاس ابنتها وسألت : « أين أمضيت الليل ، يا « مارجريتا » ؟
وقبل أن يبدأ فاصل الصراخ الذي سيؤدي في النهاية إلى إيقاظها ، غادر
« خوستو بارامبيلا » الحجرة في صمت .

كانت الساعة السادسة صباحًا .

اتجه إلى الحظيرة ليفتح الدهليز للعجوز « إستيبان » . جال بخاطره
التعريج على مظلة الخيزران ليحمل السرير الذي أمضى

الليل فوقه بصحبة « مارجرىتا » . « لو يصرح القسيس بهذا ، لتزوجتها في الحال ؛ لكننى على يقين بأنه سيعمل لى فضيحة عندما أطلب منه هذا ، سيقول زنا محارم وسيعلن بموجبه مروقنا عن الدين وارتدادنا عن المسيحية » . فى هذا كان يفكر عندما وجد العجوز « إستيبان » يمسك بيدين من حديد خِطْم العجل الصغير ويسدد الركلات إلى رأسه .

كان يبدو أن العجل على وشك أن يفتس ، لأنه كان ينبش الأرض بحوافره دون أن يقوى على النهوض .

جرى وقبض على رقبة العجوز ودفعه على الأحجار ، بينما كان يركله ويكيل له شتائم لم ترد على لسانه من قبل ، أحس بعد ذلك بسحابات تطفو داخل رأسه وسقط متدحرجاً على أرضية الحظيرة المرصوفة ، حجبت غمامة كبيرة سوداء نظرتة عندما أراد فتح عينيه . لم يكن يحس بألم ، بل بشيء أسود يُطبق على فكره ليحيله إلى ظلام دامس .



نهض العجوز « إستيبان » بعد أن ارتفعت الشمس قدر رمح . مضى متلمساً ما حوله ومتوجعاً ، لايدرى كيف فتح الباب وألقى بنفسه فى الشارع . . . لايدرى كيف وصل الى بيته ، مطبق العينين تاركاً خيطاً

من الدم على طول الطريق ، لكنه وصل وتكور على سريره النَّقَّال ونام من جديد .

كانت الساعة تشير تقريباً إلى الحادية عشرة صباحاً عندما دخلت « مارجريتا » الحظيرة لتبحث عن « خوستو بارامبيلا » وهي تبكى لأن والدتها نعتها بالبغاء بعد موشح طويل من العظات .



وجدت « خوستو بارامبيلا » ميتاً .

« يقولون إننى قتلته ، ربما ، لكن من الجائز أيضاً أن تكون حميته ذاتها هي التي فتكت به . كان طبعه حاداً وسيئاً للغاية ، لم يكن يعجبه شيء على الإطلاق : فالمداود يراها دائماً غير نظيفة ، والأحواض خالية من الماء والأبقار عجفاء .

لم يكن يعجبه شيء ؛ حتى نحافتي لم تكن تروقه . ومن أين لى بالسُّمنة وشمى لا يعرف الطعام إلا لماماً ! لقد كنت أمضى وقتى كله فى رحلات متواصلة مع الأبقار ؛ أقودها إلى حيث اشترى مرعى فى « خيكيلبان » ؛ وأنتظر هناك حتى تأكل ثم نأخذ طريق العودة لنصل وقت السُّحر . كان ذلك مثل ترحال دائم .

والآن ترانى حضرتك بين قضبان السجن منتظراً موعد محاكمتى
الاسبوع القادم بتهمة قتل « دون خوستو » . أنا لا أتذكر شيئاً ؛ لكننى لا
أستطيع نفيه ، ربما كانت على أعيننا غشاوة ولم نتبه إلى أن أحدنا يقتل
الآخر . يحتسمل أن يكون هذا ما حدث . ذاكرتى فى هذه السن
لاتسعننى ؛ ولذا أتوجه بالشكر للخالق لأنه لو طمس كل ملكاتى فلن
يضيرنى الآن كثيراً ، لأننى بالفعل لم تبق لى حالياً ملكة واحدة تقريباً ،
أما بالنسبة لروحى فأنا أعهد بها أيضاً لرب العزة » .

كان الضباب يهبط ثانية على « سان جبريل » . لاتزال الشمس تلمع
فوق الروابى العالية ، وبقعة من التراب تغطى القرية . جاءت الظلمة بعد
ذلك . فى تلك الليلة لم تسطع الأنوار ، حداذاً على « دون خوستو » ،
صاحب الكهرباء ومالك المصابيح . ظلت أنوار الشموع تضئ زجاج
الكنيسة الملون حتى مطلع الصباح ، بينما سهر المشيعون إلى جوار جسد
المرحوم . من بين يقظة الليل وغفوته تنبعث صلوات النساء اللاتى ترددن
بصوت مفتعل : « اخرجى ، اخرجى ، اخرجى أيتها الأرواح الشريرة
المذنبه » .

بقيت الأجراس تدق دقائقها الجنائزية طوال الليل ، حتى السحر ، إلى
أن قطعتها نوبة الإعلان عن الفجر .

« تالبا » (TALPA)

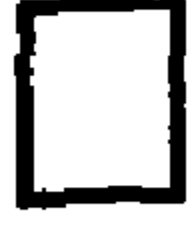
أقلت « ناتاليا » بنفسها بين ذراعى أمها وانخرطت فى بكاء مسترسل مكتوم ، كان بكاءً متراكماً من أيام عديدة ، مُدَّخراً للساعة التى نعود فيها إلى « زيتزونتلا » ، ورأت أمها وأحسَّت بالرغبة فى التفريج عن همَّها .

وعلى خلاف هذا ، لم تخامر الدموع عينيها أثناء المهام الجسام التى حفلت بها أيام عدَّة : عندما كان لزاماً علينا دفن « تانيلو » فى حفرة بأرض « تالبا » دون مساعدة مخلوق ، عندما أنا وهى ، وحدنا ، تكاتفنا وأخذنا ننبش بأظافرنا الأرض الصلبة لنحفر قبراً نوارى فيه « تانيلو » سريعاً حتى لا يستمر فى إثارة فزع الناس برائحة هوائه المشبع بالموت .

ولاحتى بعد ذلك ، فى طريق العودة ، عندما أتينا مواصلين الليل بالنهار دون راحة ، سائرين متلمسين كالمتمومين ندوس الأرض بخطوات تبدو مثل قرعات فوق جثوة « تانيلو » . فى تلك الأثناء بدت « ناتاليا » مثل حجر صلد تحمل قلباً مكبلاً حتى لا تحس به يتفرض داخل صدرها ، لكن عينيها لم تذرفا دمعة واحدة .

لم تبك إلا بعد أن وصلت إلى هنا ، فى حجر أمها ؛ لتغمها ولتحيطها علماً بمدى ما كابدهت من معاناة ، ولتغمنا - بالمره - كلنا ، لأننى أحسست أيضاً بهذا البكاء وكأنه يعتصر خرقة خطايانا .

المسألة أننا تسببنا ، أنا و « ناتاليا » ، في موت « تانيلو سانتوس » .
حملناه إلى « تاليا » ليموت ، ومات ، كنا نعرف أنه لن يتحمل طول
المسافة ، ومع هذا دفعناه دفعاً لتخلص منه الأبد . هذا باختصار ما فعلناه .



كان أخى « تانيلو » هو صاحب فكرة الذهاب إلى « تاليا » . راودته
الفكرة قبل غيره ، منذ سنوات ، منذ ذلك اليوم الذى أصبح فيه
والفقاعات الداكنة تغطى ذراعيه وساقيه . وعندما تحولت الفقاعات بعد
ذلك إلى قروح لا ينبثق منها الدم بل شئ أصفر مثل الرأتينج يقطر ماء
ثخيناً . أتذكر جيداً أنه أعرب لنا وقتها ، والخوف يملكه عن إحساسه
باستحالة الشفاء مما أصابه من ضرر .

لهذا كان يريد الحج إلى عذراء « تاليا » ، لكي تُشفى بنظرتها
قروحه . وبالرغم من أنه كان يدرك أن « تاليا » بعيدة والسفر إليها يتطلب
السير طويلاً تحت قرص الشمس نهاراً وتحت برد مارس ليلاً ، إلا أنه كان
مصمماً ، معتقداً أن العذراء ستجعله يبرأ من تلك الأشياء التى لا يجف
نبعها قط . لم يتطرق إليه الشك فى قدرة العذراء على غسل الأشياء وإزالة
ما بها من أدران مثل مرج خارج لتوه من المطر ، وأمامها هناك ، ستنهى
بلواه ؛ لن يؤلمه شئ ولن يعد لإيلامه . هذا ما كان يعتقد .

هذا ما جعلنا نصطحبه أنا و « ناتاليا » . كان لزاماً على مرافقة « تانيلو » لأنه أخي ، ومرافقة « ناتاليا » له شبه واجبة على أية حال لأنها كانت زوجته . كان يحتاجها في الذهاب ليتوكأ عليها وربما دعت الضرورة في العودة لحمله على الأعناق ، بينما يكتفى هو بجرجرة آماله .

كنت أعرف مسبقاً ما يدور بخلد « ناتاليا » ، فقد خبرتها بعض الشيء . كنت أعرف ، مثلاً ، أن ساقبيها الملفوفين ، المكتنزين والساخين مثل حجارة في أشعة شمس الظهيرة ، ظلاً وحيدين زمناً طويلاً . كنت أعرف هذا . اجتمعنا مرات عديدة ؛ لكن طيف « تانيلو » كان يفصل دائماً بيننا ؛ كنا نحس أن يديه المقرحتين تقفان حائلاً بيننا وتنتزعان « ناتاليا » للاستمرار في العناية به ، وسيبقى الوضع على ما هو عليه طالما ظل على قيد الحياة .

أعرف الآن أن « ناتاليا » نادمة على ما حدث . وأنا أيضاً ؛ لكن هذا لن ينقذنا من تأنيب الضمير ولن يُعد السلام لجوانحنا مطلقاً . لا يمكن أن يبعث في نفوسنا الطمأنينة العلم بأن « تانيلو » كان سيموت في جميع الأحوال ، لأن دوره كان قد حان ولم تعد تجدى الرحلة الطويلة إلى « تاليا » البعيدة ؛ فقد كان في حكم المؤكد أنه سيموت سواء هنا أو هناك ، أو ربما تأخر قليلاً موعد موته هنا عن هناك ، لأن المعاناة التي كابدها في الطريق والدم الزائد الذي فقده ، والحماسة وغيرها ، قد اجتمعت وعجلت بنهايته . ما يثير الأسى هو دفعنا له دفعاً إلى الأمام عندما فقد الرغبة في المواصلة وعندما أحس بعدم جدوى

الاستمرار وطلب منا إعادته . كنا نَشُدُّ شِدًّا من الأرض لكي يواصل السير قائلين له إنه لم يعد بالإمكان التفكير في التراجع .

« تالبا » الآن أقرب إلينا من « زيترونتلا » ، كنا نقول له . لكن « تاليا » كانت لاتزال بعيدة ؛ خلف أيام كثيرة من السير المتواصل .

كنا نريد أن يموت ، لاشيء غير هذا منذ مغادرة « زيترونتلا » وفي كل ليلة من الليالي التي أمضيناها في الطريق إلى « تالبا » . إنه أمر لانستطيع فهمه الآن ؛ لكنه كان هدفنا وقتها ، أتذكر هذا جيدا .

لاتفارق مخيلتي تلك الليالي ، كنا نشعل أولا أخشاب الصنوبر للاستضاءة ، ويعد أن تصفو الجذوة ويعلوها الرماد نبحت ، أنا و « ناتاليا » ، عن أى ظلٍّ للاحتماء به من ضوء السماء . وهكذا كنا نعتصم بعزلة الحقول حيث يلفنا الليل بجناحيه بعيدا عن عيني « تانيلو » . وتلك العزلة كانت تدفع الواحد منا نحو الآخر ، كنت أهتمصر جسد « ناتاليا » بذراعى فيغشاها نوع من العزاء ، كانت تحس بالراحة ؛ تناسى أشياء كثيرة ثم يعتربها الخدر ويتنفس جسدها الصعداء .

كانت الأرض التي نتوسدها دائما حارة ، ولحم « ناتاليا » ، زوجة أخى ، كان يسخن فى الحال بفعل حرارة الأرض . والحرارتان المجتمعتان كانتا تحرقان الواحد بعد ذلك وتجعله يفيق من حلمه ، عندئذ كانت يداى تلهثان خلفها ؛ تروحان وتجيئان فوق جسدها المشتعل كالجذوة ؛ يخفه فى البداية لتهتصرانها بعد ذلك كما لو كانتا تبغيان عصر دمها . وهكذا مرة بعد أخرى ، ليلة بعد ليلة ، إلى أن يأتى السحر وتطفئ الرياح الباردة لهيب جسدينا . هذا ما كنا نفعله أنا و « ناتاليا » على جانبي الطريق المؤدى إلى « تالبا » ، خلال مرافقتنا « تانيلو » فى رحلة

الاستشفاء إلى العذراء . فات كل هذا وانقضى ، وشفى « تانيلو » حتى من حياته . فى ماذا يفيد تقليب المواجه بذكر المعاناة التى كابدها « تانيلو » من أجل العيش ، بذلك الجسد المسمم التالف ، المترع بالماء الأسن الذى ينبثق عند حدوث أى قطع بالساقين أو الذراعين . قروح كبيرة ، تنفتح على مهل ، على أقل مهلها ، ليخرج منها هواء يثير فينا الذعر .

لكنه بعد أن مات أصبحت الأمور تُرى من منظور مختلف . الآن تبكى « ناتاليا » من أجله ، ربما ليرى ، من حيث ترقد عظامه ، تأنيب الضمير الذى يخالط روحها . تقول إن وجه « تانيلو » يطالعها فى الأيام الأخيرة . الشيء الوحيد فيه الذى كان ذا نفع لها ؛ وجه « تانيلو » المخضب دائماً بالعرق من وطأة المجهود الذى يبذله لتحمل آلامه . أحست به يقترب من فمها ثم يختفى بين خصلات شعرها ، طالباً منها . بصوت غير مسموع . مساعدته . تقول إنه إخبارها أنه شفى مؤخراً ، ولم يعد يضايقه أى ألم . « بإمكانى الآن ، يا « ناتاليا » ، البقاء إلى جوارك ، ساعدنى لكى أبقى معك » . تدعى أن هذا كلامه لها .

كنا قد فرغنا من مغادرة « تالبا » ، من تركه هناك مدفوناً فى أعماق تلك الحفرة السحيقة التى صنعناها بأيدينا .

ومن حينها نسيته « ناتاليا » ، أعرف كيف كانت عيناها تلمعان من قبل مثل بركتين ينعكس على صفحاتهما ضوء القمر ، لكن لونهما أصبح حائلا ، وغامت النظرة فيهما كما لو كانت تمرغت فى التراب ، وبدا أنها

لم تعد ترى شيئاً. كل ما حولها « تانيلو » الذى يخصها ؛ « تانيلو »
الذى تعهدته بالرعاية بينما كان حياً ودفتته عندما وجب عليه أن يموت .



خرجنا من قريتنا وأمضينا عشرين يوماً قبل الوصول إلى الطريق
الرئيسى المؤدى إلى « تالبا » . كنا نسير وحدنا ، نحن الثلاثة ، خلال
تلك الأيام . وبعدها بدأنا ننحشر فى جموع لا تحصى قادمة من جميع
الاتجاهات وأفضت بها طرقها ، مثلنا ، إلى ذلك الطريق الواسع الذى
يشبه مجرى النهر . كنا نمشى جرأ ، مدفوعين من كل جانب كما لو كانوا
يسوقوننا مقيدين بخيوط من الغبار ، هذا لأن الغبار كان يتحرك من جرأ
ديب الجموع السائرة ، غبار أبيض مثل نخالة الذرة يرتفع عاليًا ثم يعاود
الهبوط ، لكن الأقدام المتحركة كانت تردّه وترفعه من جديد ، وهكذا كان
الغبار من فوقنا ومن تحت أرجلنا طيلة الوقت . وفوق هذه الأرض كانت
تُحلّق سماء خاوية الوفاض ، بلا سحب ، فيما عدا الغبار ؛ والغبار لا ظلّ
له .

كنا ننتظر الليل بفارغ الصبر لنستريح من الشمس ومن ذلك الضوء
الأبيض للطريق ، استطال النهار بعد ذلك ، فقد غادرنا
« زينزونتلا » فى أواسط فبراير ، وبعد أن دخلنا الآن فى مارس أصبح
النهار يطلع متعجلاً . لانكاد نغلق أعيننا بالليل حتى توقظنا الشمس من
جديد ، الشمس نفسها التى تبدو وكأنها غربت منذ قليل .

لم أتصور مطلقاً أن ببطء الحياة وقسوتها ، مهما بلغا ، يمكن أن يعادلا السير بين كومات من البشر ؛ كنا مثل فوارة تعج بدود متراكب بعضه فوق بعض تحت لفتح الشمس ، ملفوفين بعتمة الغبار التي تحبسنا جميعاً في الطريق نقسها وتقتادنا كالمحاصرين بسياج . كانت العيون تتبع الطريق ؛ تصطدم بالغبار كما لو كانت تتعثر في شيء لا يمكن اختراقه . والسماء رمادية دائماً ، مثل بقعة رمادية غليظة وثقيلة تسحقنا جميعاً من عل . لم يكن الغبار يرتفع عنا وتخف عتمته إلا عندما نعبّر نهراً من حين لآخر . كنا نغمس رؤوسنا الساخنة المُغبرة في المياه الخضراء ، وعندها يتصاعد منّا للحظة بخار أزرق يشبه البخار الخارج من الفم في جو شديد البرودة ، لكننا كنا نعود ثانية للاختفاء بعدها بقليل في الغبار ، يحمى بعضنا البعض من الشمس ، من حرارتها المورعة علينا بالقسطاس .

ذات يوم سيأتى الليل . كنا معلقين بهذا الأمل . سيصل الليل ونخلد للراحة في كنفه . همنا الآن تجاوز النهار ، عبوره . على أى وضع للفرار من الحرارة ومن الشمس ، بعد ذلك سنمسك عن السير . بعد ذلك . ما علينا عمله حالياً هو عدم التواني في بذل الجهد بعد الجهد للسير في أعقاب الجموع التي تتقدمنا وأمام الكتل البشرية التي تتبعنا .

كان هذا هو شغلنا الشاغل أنا و « ناتاليا » وربما « تانيلو » أيضاً ، أثناء سيرنا بين أفواج الحجاج في الطريق الرئيسي المؤدى إلى « تالبا » ؛ كنا نريد أن نكون أول الواصلين إلى العذراء ، قبل أن ينفد منها رصيد المعجزات .

لكن « صحبة تانيلو » أخذت تتدهور أكثر ، جاءت لحظة لم يكن يريد فيها الاستمرار ، عندما انتفخ لحم قدميه وأدى الانتفاخ إلى انبثاق الدم منهما . أوليناها عنايتنا حتى تحسن ، ومع هذا لم يرد الاستمرار .
« سأبقى جالساً هنا يوماً أو اثنين ثم أعود بعدهما إلى « زينزونتلا » ، هذا ما قاله لنا .

لكننا أيينا . كان بداخلنا شيء منعنا من الإحساس بأي نوع من الشفقة تجاه أي « تانيلو » . كنا نريد الوصول به إلى « تالبا » لأن حالته وقتها لم تكن تَنَمُّ عن جفاف نبع الحياة به . لهذا كانت « ناتاليا » تستحبه أثناء شطفها لقدميه بمطهر لتخفيف الورم ، كانت تقول له إن شفاءه يتوقف على عذراء « تالبا » . فهي الوحيدة القادرة على إبرائه من آلامه إلى الأبد ، هي دون غيرها ، توجد عذارى أخريات ؛ لكن عذراء « تالبا » تفضلهن جميعاً . هذا ما كانت تقوله « ناتاليا » .

وعندئذ كان « تانيلو » ينخرط في البكاء بدموع تشق أخدوداً بين عرق وجهه وبعدها يلعن نفسه ويتحسر على حاله . كانت « ناتاليا » تجفف بخمارها دفتات دموعه ، ونهضه فيما بيننا من على الأرض لكي يسير .
وهكذا سجنناه سجيناً حتى وصلنا به إلى « تالبا » .

في الأيام الأخيرة نال التعب منا أيضاً ، كنا نحس أننا و« ناتاليا » أن أجسادنا قد انطوت تحت الأعباء الثقيلة ، كأن قوة خفية توقفتنا لتضع أحمالاً باهظة فوقنا . كان « تانيلو » دائم السقوط وكان علينا رفعه من الأرض وحمله أحياناً على الأكتاف . ربما تسبب هذا في الحالة التي وصلنا إليها : جسدان خائران ، وَهَنٌ يحصل بينهما وبين القدرة على المشي ، لكن الجموع التي كانت تمضي هناك إلى جوارنا كانت تعجل بسيرنا

فى الليل كانت تهدأ حركة هذا العالم المنذفع قدماً إلى الأمام . كانت الجذوات المشتعلة المتناثرة فى كل مكان تلمع فى الهواء الطلق ، وحول ألسنة اللهب تصلى جموع الحجاج وهى عاقفة أذرعها على شكل صلبان ونظراتها ميممة شطر سماء « تالبا » ، والرياح تأخذ ذلك الحفيف وترده ، مُقلّبة له ، حتى تجعل منه هديراً متوحداً ، بعد ذلك بقليل يبقى كل شىء هامداً ، ومع هذا فعند منتصف الليل تقريباً كان يتناهى إلى سمعنا صوت بعيد يصلّى ، بعد ذلك تُغلق العيون وتنتظر دون نوم هجوم صبح اليوم التالى .



دخلنا « تالبا » ونحن نردد صلاة التساييح .

خرجنا من قريتنا أواسط فبراير ووصلنا إلى « تالبا » فى نهاية مارس أثناء مغادرة أناس كثيرين لها وصلوا قبلنا . تسبب « تانيلو » فى هذا التأخير لإصراره على ممارسة بعض الطقوس المصاحبة لإعلان التوبة . عندما وجد نفسه محاطاً برجال يعلقون أوراق الصبار الشخينة فى شكل أحجبة ، قرر عمل شىء خاص به ، جالت بخاطره فكرة ربط إحدى قدميه بالأخرى بكم قميصه لإعاقة وتعجيز خطواته ، أراد بعد ذلك وضع إكليل من الشوك فوق رأسه . وبعدها مباشرة عصب عينيه ، وبعد ذلك ، فى الجزء الأخير من الطريق ، ارتكز على الأرض وراح يمشى على عظام ركبتيه ويداه معقوفتان خلف ظهره ، وبهذا الشكل وصل إلى « تالبا » ذلك الشىء الذى كان أخى ، « تانيلو سانتوس » ؛ ذلك الشىء المترع بالقروح وخيوط الدم الغامقة التى كانت تترك فى الهواء ، عند مروره ، رائحة

حامضة مثل حيوان ميت . وعلي خلاف ما نبغى رأيناه وقد ألقى بنفسه في خضم الرقصات . غفلنا عنه لنجده هناك ، والصنوج الطويلة في يده ، يدق الأرض بقدميه الزرقاوين الحافيتين دقات عنيفة . بدا هائجاً يكامله ، كما لو كان ينفض الحمية التي يدخرها بداخله منذ وقت طويل ؛ أو كما لو كان يُخرج ما تبقى فيه من جهد ليتمكن من الحياة مدة أطول قليلاً .

ربما تذكر ، عند رؤيته الرقصات ، الأيام الخوالي عندما كان يذهب كل عام إلى « توليمان » ، في ذكرى موت المسيح ، ويظل يرقص الليلة بكاملها حتى تتفكك أوصاله ، لكن دون أن يناله نصيب . ربما تذكر هذا وأراد أن يستعيد نشاطه القديم .

رأيناه أنا و « ناتاليا » مدة ليست بالقصيرة ، ثم شاهدناه بعد ذلك يرفع ذراعيه ويجلد جسده بالأرض ، والصنوج لاتزال بيديه وقد غمرها الدم . انتزعناه جراً من هناك ، محاولين حمايته من رفسات أقدام الراقصين ؛ من بين هياج تلك الأقدام التي تتدحرج على الصخور وتشب داعسة الأرض دون الانتباه إلى ما إذا كان هناك شيء قد سقط بينها .

دخلنا به الكنيسة وهو مطويّ الساقين كالكسيح . جثت « ناتاليا » معه أمام تمثال عذراء « تالبا » المذهب ، شرع « تانيلو » في الصلاة وسقطت منه دمعة كبيرة ، خارجة من الأعماق ، وأطفأت الشمعة التي وضعتها « ناتاليا » بين يديه . لم يتبته لهذا واستمر في صلاته ، كان يصلي بصوت كالصراخ ليتأكد من أنه يصلي .

لم يفده كل هذا بشيء . لقد مات على أي حال .

« ... نتضرع إليها أيضا من سويداء قلوبنا ضراعة يُغلفها الألم . استغاثنا بها مضمخة بالأمل . حنانها يترقرق أمام النحيب والدموع ، لأنها

تقاسى مثلنا . هى قادرة على إزالة هذه الغشاوة لتترك القلب لَدنا نقيًا مهياً لاستقبال رحمتها وعطفها . عذراؤنا ، أمنا ، التى لا يهملها معرفة شىء عن خطايانا ؛ التى تغفر لنا الذنوب ، التى تود لو حملتنا بين ذراعيها لكى تَسَلِّمَ حياتنا ، إنها هنا إلى جوارنا تخفف عنا وتشفينا من أمراض الروح وأوجاع الجسد المكلم المبتهل . إنها تعرف أن إيماننا يزداد صلابة مع الأيام لأنه يركز على التضحية وبذل النفس » .

هذا ما كان يقوله القسيس من على منبر الكنيسة ، وبعد فراغه من حديثه ، أخذ الناس يصلون فى آن واحد ، محدثين صخبًا يماثل صخب جيش من الزنابير أفرعه الدخان .

لكن « تانيلو » لم يسمع ما قاله القسيس . بقى هامدًا ، ورأسه جاثم على ركبتيه . كان ميتًا عندما حرَّكته « ناتاليا » لكى ينهض .

فى الخارج كانت تُسمع جلبة الرقصات ؛ الطبول والمزامير ؛ قرعات الأجراس وهاجمنى الحزن حيثُذ ، عندما أحسست فى تلك اللحظة نفسها بوجود أشياء كثيرة حولى تنبض بالحياة : ها هى العذراء ، أمامنا مباشرة ، توزع علينا ابتسامتها ، وهنا إلى جوارى « تانيلو » ، مجرد عائق . أصابنى هذا بالغم . لكننا نحن الذين حملناه ليموت هناك . لن أنسى هذا ما حيت .



نحن الآن فى « زينزونتلا » . عدنا بدونه . ولم تسألنى أم « ناتاليا » عن شىء ؛ ولا عما صنعت به بأخى ، أخذت « ناتاليا » تبكى على صدرها وقصت عليها ما حدث .

بدأت أشعر وكأننا لم نصل لأى مكان ، أننا هنا مؤقتًا ، لكى نستريح ثم نواصل السير بعد ذلك . لا أدرى إلى أين ؛ لكن علينا أن نواصل ، لأننا هنا على مقربة من الندم وتأنيب الضمير ومن ذكرى « تانيلو » .

ربما إلى أن يأتى الوقت الذى يبدأ فيه كل واحد منا الخوف من الآخر . ربما أود أن أقول إننا لم نتبادل كلمة واحدة منذ مغادرة « تاليا » . ربما يكون جسد « تانيلو » شديد القرب منا نحن الاثنين ، ممدداً على حصيرة القش ؛ مغطى من الداخل والخارج بغليان ذباب أزرق يئز كما لو كان شخيراً عظيماً يتسلل من فمه ؛ من ذلك الفم الذى لم يستطع غلقه بالرغم من محاولات « ناتاليا » ومحاولاتى ، وكأنه كان يرغب فى التنفس بدون صوت مسموع . « تانيلو » الذى لم يعد شىء يؤلمه ، وكان موجوعاً ويدها ورجلاه متقرحتان وعيناه مفتوحتان وكأنهما يطالعان موته . وهنا وهناك تقطر كل قروحه ماءً أصفر ، مُعَبِّقًا بتلك الرائحة التى تنسكب فى كل اتجاه ويحس بها الفم ، وكأنه يستطعم عسلاً ثخيناً ومرّاً يذوب فى دم الواحد مع كل زفرة هواء .

ربما هذا هو الذى تتذكره كثيراً هنا عن ذلك « التانيلو » الذى دفناه بأرض « تاليا » المقدسة ؛ الذى أهَّلنا عليه التراب والحجارة حتى لا تنبش مثواه الأخير وحوش الجبل .

« ماکاریو » (MACARIO)

أجلس بجانب القنطرة فى انتظار ظهور الضفادع ، أثناء تناولنا العشاء ، ليلة أمس ، أخذت تصدر صخبًا شديدًا ولم تتوقف عن النقيق إلا بعد طلوع النهار . تُوَمَّن حاضتى على هذا أيضًا قائلة إن نقيق الضفادع أطار النوم من عينيها ، وهى تريد الآن الاستغراق فى النوم دون إزعاج ، ومن ثم فقد طلبت منى الجلوس هنا ، إلى جوار القنطرة ، ويبدى لوح من الخشب لكى أضرب به الضفدعة التى تظهر على صفحة الماء وأمزقها شر تمزيق . . . الضفادع نوعان : نوع لونه أخضر بالكامل فيما عدا البطن ، ونوع جبلى أسود . عينا حاضتى سوداوان أيضًا . الضفادع الخضراء تُؤكل لأن لحمها طيب ؛ أما السوداء فلحمها خبيث ، ومع هذا فقد أكلت الأخيرة أيضًا ، بالرغم من أنها لا تُؤكل ، ووجدت طعمها لا يختلف فى شىء عن سابقتها . « فيليبا » هى التى تدعى بأن لحم الضفادع السوداء سيئ وخبيث ، لـ « فيليبا » عينان خضراوان مثل عيون القطط . هى التى تقدم لى الطعام فى المطبخ عندما يحلّ مواعده ، وتريد منى ألا أصيب الضفادع بأذى ، لكن حاضتى هى التى تأمرنى بفعل هذا وترك ذلك . . . أنا أحب « فيليبا » أكثر من الحاضنة ، لكن الأخيرة هى التى تملك حافظة النقود وتعطى منها « فيليبا » لكى تشتري ما نأكله . يقتصر عمل « فيليبا » على إعداد الطعام

بالمطبخ لثلاثتنا . لا تفعل أكثر من هذا منذ أن عرفتھا . أما غسيل الأواني فيقع على عاتقي ، كما تقع على عاتقي أيضاً مهمة جمع وإحضار الحطب اللازم لإيقاد الفرن . وحاضنتي هي التي تقوم بعد ذلك بتوزيع حصص الطعام علينا . بعد أن تفرغ هي أولاً ، تعمل كومتين بيديها : كومة لـ « فيليبا » والأخرى لي . لكن « فيليبا » كثيراً ما تزهد في الأكل ، وعندها أنفرد بالكومتين وحدي . لهذا أحب « فيليبا » ، لأنني أشعر دائماً بالجوع ولا أشبع قط ، حتى مع أكلني نصيبها . بالرغم من أنهم يرددون أن جوف الواحد يمتلئ عندما يأكل إلا إنني لا أحس بالامتلاء مهما قدموا لي من طعام . و« فيليبا » تعرف هذا أيضاً . في الشارع يصفونني بالجنون لأنني لا أشبع أبداً . سمعت حاضنتي هذا منهم ، أما أنا فلم أسمع شيئاً . لا تركني حاضنتي أخرج وحدي إلى الشارع . لا تُخرجني إلا للذهاب إلى الكنيسة لسماع القداس ؛ وهناك تجلسني إلى جوارها وتربط يدي بطرف خمارها . لا أدري سبباً لربطها يدي ، لكنها تقسول حتى لا أتشيطان وأتى بأفعال مرعجة ، أدعوا ذات يوم أنني حاولت خنق شخص ما ؛ أنني طوّقت يديّ عنق سيدة وحاولت خنقها دون سبب . لا أتذكر هذا ، لكن حاضنتي هي التي تقول إنني أفعل كل هذا ، وهي لا تكذب . عندما تنادي عليّ لأأكل ، تصدق وتعطيني نصيبي من الطعام ، على خلاف أناس آخرين يدعونني للأكل معهم ولما أقرب يمطرونني بوابل من الحجارة فأطلق ساقى للريح دون أن أتبلغ لا بطعام ولا بغيره ، لكن حاضنتي تعاملني معاملة حسنة . لهذا أنا مسرور في دارها . هذا بالإضافة لإقامة « فيليبا » معنا ، وأنا أحبها

لأنها صديقة ودودة لبن « فيليبا » حلو المذاق مثل زهور « الأوبيليسك » . شربت لبن الماعز ولبن الخنزيرات حديثة العهد بالولادة ، لكنهما لا يضارعان لبن « فيليبا » حلاوة . . . منذ أمد بعيد وهى تسمح لى بامتصاص ثدييها اللذين يخرجان لبنًا أشهى من اللبن الذى تقدمه حاضتى فى غذاء أيام الأحاد . . . من قبل كانت تأتى كل ليلة إلى غرفة نومى وتستلقى علىّ أو إلى جوارى ثم تبحث عن الوضع الأمثل لكى أستطيع تلقى ذلك اللبن الدافئ الحلو الذى يتدفق من الحلمتين . . . أكلت أزهار « الأوبيليسك » مرات كثيرة لأشغل الجوع عنى . كان اللبن « فيليبا » الطعم نفسه ، لكنى كنت أحبه أكثر لأنها كانت تدغدغ كل جزء من جسدى أثناء استقبالى له من ثدييها . كانت تخلد بعد ذلك إلى النوم بجوارى حتى انبلاج الصباح . كان هذا ذا نفع كبير لى : فهو - من جهة - يطرده البرد عنى ويجعلنى أنعم بالدفء ؛ ومن جهة أخرى ، يحول بينى وبين الفكرة المسيطرة على ذهنى ومفادها أننى سأدخل النار لامحالة إذا مت وحيداً فى غرفتى . . . فى بعض الأحيان لا يعترينى خوف من الجحيم ، وأحياناً أخرى أرتعد فرقاً منه . بعد ذلك أشعر بلذة فى تخويف نفسى بفكرة ذهابى المؤكد إلى الجحيم يوماً ما ، لأن رأسى فى غاية الصلابة ، لولهى ، بنطح أول شىء أجده أمامى ، لكن « فيليبا » كانت تأتى وتطرد مخاوفى . تدغدغنى يديها الخبيرتين وتفصل بينى وبين فكرة الموت الملحة إلى أن أنساها تماماً بعد مضى وقت قصير . . . تقول « فيليبا » لى ، عندما تكون لديها الرغبة فى البقاء معى ، إنها ستعترف للرب بكل ذنوبى ، وأنها سترتقى فى التو إلى السماء وتتوسل إلى الرب لكى يطهرنى من الخبث

الجسم الذي يطوق جسدي من أعلاه إلى أسفله . ستطلب منه المغفرة حتى أنام قرير العين ، لهذا فهي تعترف كل يوم ، لا لأنها سيئة بل لأن جوانحي تعج بالشياطين ومن الضروري إخراج هذه الأرواح الشريرة من جسدي باعترافها نيابة عني . كل يوم ، مساء كل يوم ، وستظل تسدي إليّ هذا المعروف طيلة حياتها ، هذا ما تقوله « فيليبا » . لهذا أحبها كثيراً وبالرغم من هذا ، فكل ما تقدم يهون بالمقارنة بحكاية شدة صلابة الرأس وتحجرها ، يظل الواحد ساعات وساعات ينطح عواميد الممر بمقدمة رأسه ولأتصاب الرأس بأذى ، تتحمل ولا تهشم ، ويسدد النطحات إلى الأرض ، بخفة في البداية وبقوة بعد ذلك ، حتى يجعلها ترن كالطبله . مثل الطبله المصاحبة للناي ، عندما يأتي الناي للاحتفال بالرّب ، وعندئذ يسمع الواحد ، في الكنيسة وهو مشدود إلى حاضته ، قرعات الطبله وهي ترن في الخارج « توم » « توم » . . . تقول حاضتي إنسى سأتلظى بتار جهنم إذا استمر هوسى بنطح الأرض ، وتواجه البق والصراصير والعقارب في حجرتي خير شاهد على هذا المصير المحتوم ، لكن ما أريده هو سماع صوت الطبله ، عليها أن تدرك هذا ، سماعها ، مثلما يكون الواحد في الكنيسة ، منتظراً خروجه الوشيك إلى الشارع ليبري كيف يُسمع صوت تلك الطبله من مسافة بعيدة وكيف يملا في الوقت نفسه الكنيسة من الداخل ويغطي على إدانات القسيس . . . « طريق الأعمال الصالحة يشع بالضياء ، وطريق الأعمال الطالحة تسوده الظلمة » . هذا ما يقوله القس . . . أنا أنهض وأخرج من غرفتي والظلام لا يزال مُطبّقاً ، أكنس الشارع وأعود ثانية إلى غرفتي

قبل أن يمسك ضوء النهار بتلابيبى . فى الشارع تحدث أشياء كثيرة . لا
يعدم الواحد من يتطوعون بشجّ رأسه بمجرد أن يروه ، تنهمر حجارة كبيرة
ومدبية من كل اتجاه وبعدها يلزم رتق القميص والانتظار لأيام طويلة حتى
تلتئم السجحات بالوجه أو الركبتين . ويتحمل الواحد ثانية تقييد يديه حتى
لا تنتزع الضمادات ويعود الدم للانبثاق من جديد . الدم أيضا مزاقه حلو
برغم اختلافه عن طعم لبن « فيليبيا » . . . لأجل هذا (تفادى الرمي
بالحجارة) لا أبرح الدار بتاتا ، وبمجرد أن يقدموا لى الطعام وألثمه أدخل
غرفتى وأغلق بابها جيدا بالمزلاج حتى لا تفترسنى الآثام منتهزة فرصة
حلول الظلام . ومع هذا لا أوقد المصباح لأرى المكان الذى تتسلقنى منه
الصراصير وتتبختر فوقى .

أنام على جانبى ، وعندما أحس بالأرجل الخادشة لأى صرصار فوق
عنقى أفحصه بصفسة واحدة من يدي ، لكننى لا أضيء المصباح لكى
لا تهتدى إلى الآثام وأنا أفتش به عن الصراصير المختبئة تحت غطائى . . .
ترعد الصراصير كالعبوة الناسفة عندما يمزق الواحد أحشاءها .
لا أدرى ما إذا كانت الجداجد الليلية تُصدر الصوت نفسه أيضا . لم أجرب
قتل الجداجد من قبل . تقول « فيليبيا » إن الجداجد تصدر صخبا
مستمرا ، دون أن تتوقف أو تعطى لنفسها فرصة للتنفس ، لتغطى
على الصرخات العالية للأرواح التى تتطهر فى السماء من آثامها
الدينوية . وعندما يأتى اليوم الذى تتلاشى فيه الجداجد سيمتلىء العالم
بصرخات وتوجعات الأرواح العلوية وسيطلق الجميع ، عندئذ ، ساقبه
للريح من شدة الهلع . وعلاوة على ما تقدم ، يروقنى

كثيراً إصاخة السمع لهدير الجداجد التي تغصّ بها حجرتى . من المحتمل إن عدد الجداجد الموجودة هنا ، بين ثنايا الدعائم الخشبية التي أرقد فوقها ، يفوق بكثير عدد الصراصير . توجد أيضاً عقارب ، تتساقط في كل آن من السقف وعلى الواحد أن يكتم أنفاسه حتى تستكمل مشوارها فوقه وتصل إلى الأرض ، فلو حرك الواحد ذراعه أو بدأت ضلوعه ترتجف سيشعر في الحال بحرقان اللدغة ، وهذا يؤلم . ذات مرة ، لدغت عقربة « فيليبا » في مؤخرتها . أخذت تبكى وتوجهت بصراخ مسترسل مكتوم إلى العذراء البتول متوسلة الإبقاء على مؤخرتها . دَهَنْتُ لها مكان اللدغة بلعابى ، أمضيت الليلة بطولها أدهن لها برضايبى وأصلّى من أجلها ، إلى أن جاء وقت تأكدت فيه أنني لم أخفف عنها شيئاً بعلاجى ، وعندئذ أخذت أساعدها بدموع عينيّ قدر ما استطعت . . . على أية حال ، أنا أجد راحتي أكثر في غرفتي عن الظهور في الشارع لافتنا انتباه محبى ضرب خلق الله . أنا هنا بمنأى عن الأذى . فحاضيتى لاتعنفنى لأكلى زهور « الأوبيليسك » أو الرياحين أو أشجار الرمان الموجودة في بيتها ، لأنها تعرف شهيتى المفتوحة دائماً للطعام ، وتعرف ملازمة الجوع لى ، وعدم كفاية أية كمية من الطعام لسد رمقى بالرغم من ازدرادى كل لحظة أشياء من هنا ومن هناك . وهى تعرف أيضاً أنني ألتهم الحمص المنسقوع بدلاً من تقديمه للخنازير السمينة والذرة الجافة التي يجب علىّ تقديمها للخنازير العجفاء . وهكذا فهى تدرك جيداً فسادحة الجوع الذى يصاحبنى منذ أن أصبح إلى أن أمسى ، ولذا لن أبرح مكانى طالما وجدت فى البيت الذى يأوينى طعاماً أطعمه ، ذلك لأننى أعتقد أن اليوم الذى ينأى فيه الطعام عنى سيشهد خاتمتى ، وساعتها سأذهب إلى الجحيم بكل تأكيد . ومن هناك لن يستطيع

أحد إنقاذى من أتونه ، ولاحتى « فيلييا » بالرغم من حذبها وعطفها علىّ ، ولا الحجاب الذى أهده لى حاضتى وأحملة متدلّياً من عنقى . . . أنا الآن بجانب القنطرة أنتظر خروج الضفادع على صفحة الماء ، ولم تظهر ضفدعة واحدة طيلة هذا الوقت الذى أتكلّم فيه وأتحدّث عن نفسى .

لو تأخرت عن هذا فى الظهور ربما أروح فى إغفاءة ، وعندها لن تجد من يقتلها وسيخاصم النوم عينى حاضتى لسماعها صخبهم ، وسيملكها الغضب . ستطلب عندئذ من طابور القديسين الموجود بحجرتها إطلاق الشياطين من عقالها وإرسالهم إلى ليقتادونى جرّاً إلى الجحيم السرمدى ، مباشرة ، دون التعرّيج على المكان المخصص للتطهر من الذنوب قبل حساب يوم القيامة ، وعندها لن أتمكن من رؤية أبى ولا أمى الموجودين دون شك فى ذلك المكان . . . من الأفضل إذن الاستمرار فى الحديث . . . تملكنى رغبة عارمة فى العودة للتذود ببعض جرعات من لبن « فيلييا » ، من ذلك اللبن اللذيذ والحلو مثل العسل الذى يخرج من تحت زهور « الأوبيليسك » .

السهل يحترق

« قتلوا الكلبة ،

لكن مازال صغارها أحياء . . . » .

(مقطع من أغنية شعبية)

« يعيش » بيترونييلو فلورس " ! » .

ارتطمت الصبحة بالحوائط الضخمة للوهدة وصعدت قفزاً إلى حيث
نوجد . تلاشت بعد ذلك .

لبرهة ، حملت إلينا الرياح التي تهب من تحت جلبية أصوات
متكؤمة ، محدثة صخباً يماثل ما تحدثه مياه الفيضان عند جريانها على
أرض مليئة بالحصى .

تبعثها صبحة أخرى ، خارجة من المكان نفسه هناك ، تلوت على
منعطف الوهدة ثم تسلقت الحوائط الضخمة ووصلت إلى جوارنا بكامل
قوتها :

« يعيش الجنرال » بيترونييلو فلورس " ! » .

نظرنا إلى بعضنا .

نهض " لاپيراً " متثاقلاً ، سحب الخرطوش من خزانة بندقيته وحفظه فى جيب سترته ، دنا بعد ذلك من مكان « الأربعة » وقال لهم : « أتبعونى ، أيها الفتيان ، لنبحث عما نصارعه من ثيران ! » . تبعه الإخوة " بينابيدس " الأربعة ، منحنى الرءوس ؛ " لاپيراً " وحده كان يمضى منتصب القامة ونصف جسده النحيل يظهر من فوق السور الحجري .

ظللنا ، نحن ، فى موضعنا هناك ، بلا حراك . كنا مرصوصين على حافة البساط العشبي الأخضر مستلقين على ظهورنا وبطوننا نحو السماء مثل سلاحف تستدفئ بحرارة الشمس .

كان السور الحجري يشتد تعرجه عند صعوده الأكمات وهبوطه منها ، ومعه كان يتلوى أيضاً " لاپيراً " بصحبة الأربعة وكأن أقدامهم مطوقة بسلاسل .

هكذا رأيناهم وهم يختفون عن أعيننا . أعدنا وجوهنا لتطلع ثانية إلى أعلى ، إلى شجيرات " الأمولس " * التى تنعم علينا بظلها المتهرئ المتواضع . كان الجو مُعَبِّقاً بمزيج من رائحة الظل الساخن بفعل حرارة الشمس ورائحة شجيرات " الأمولس " المتعفنة ؛ وفى الهواء يتناثر الإحساس بنعاس القيلولة .

كانت الجلبة القادمة من هناك ، تحت ، تتصاعد طوال الوقت من الوهدة وتهز أجسادنا بعنف لتطير منها النوم .

* " الأمولس " (Amoles) : أشجار مختلفة الأنواع تستخدم بصيالاتها كصابون للفسيل ، (المترجم)

وبالرغم من أننا كنا متحرقين شوقاً لتمييز الأصوات ، مرهفين السمع ، فلم يكن يصل إلينا سوى الصَّخَب : دوامة من الهمهمات مثلما يُسمع من بعيد الحفيف الذي تحدثه عربات الكارو عند مرورها بعطنة مسدودة مليئة بالحجارة . دوى ، فجأة ، صوت عيار نارى . رجعت الوهدة صدها كما لو كانت تتساقط .

أيقظ هذا ما حولنا : طارت عصافير " توتوشيلوس " ، تلك العصافير الملونة التى كنا نشاهدها تمرح بين أشجار " الأمولس " . وفى الحال استيقظت أيضاً الباغات من سبات القيلولة وملأت الأرض بصريرها .

- ما هذا ؟ - سأل " پدرو ثامورا " ، ووَسَن القيلولة مازال يثقل جفنيه . عندئذ نهض " تشيويلا " ، مجرراً بندقيته كما لو كانت غصن شجرة ، وترجّل فى إثر من ذهبوا .

- سأذهب لأستكشف ما حدث - قال وهو يختفى مثل الذين سبقوه .

تعالى صرير الباغات حتى أصابنا بالصمم ولم نتسبه للساعة التى ظهروا فيها هناك ، وعلى خلاف ما نشتهى وجدناهم أمامنا مباشرة وقد جُرّدوا بما كانوا يحملون ، بدوا وكأنهم على سفر ، فى أبهى الحلل ، كما لو كانوا متهيئين لنوازل أخريات غير هذه النازلة التى أطبقت عليهم الآن .

عدنا أدراجنا وأخذنا نرقبهم من فتحات المزاغل .

مرّ المتقدمون وتبعهم آخرون ثم آخرون غيرهم ، بأجساد منحنية إلى الأمام ، مُتعبين من النعاس ، كانت وجوههم تلمع بالعرق كما لو كانوا قد غمسوها فى الماء أثناء اجتيازهم النهر .

تابعوا المرور .

جاءت الإشارة . سُمع صفيح مسترسل وبدأ تبادل إطلاق النار بعيداً هناك ، حيث ذهب " لاپيرآ " .

استمر إطلاق النار بعد ذلك هنا .

كانت المهمة فى غاية السهولة . فقد كانوا يسدون بأجسادهم فتحات المزاغل ، تقريباً ، وكان هذا مثل التصويب عن كثب وجعلهم يغادرون الحياة إلى الموت فجأة دون أن يشعروا تقريبا بذلك .

استمر هذا وقتاً قصيراً . كالوقت المنصرم بين طلقة وأخرى . وسرعان ما خلت فتحات المزاغل التى تكفى إطلالة واحدة منها لرؤية من كانوا منحنيين وقد تكوّروا على الأرض وكان أحدا مازال يطلق الرصاص عليهم هناك ، اختفى من كتبت له النجاة . ظهروا ثانية ، لكن فى مكان آخر .

أمسكنا عن إطلاق الدفعة الثانية من الرصاص .

صاح أحدنا : « يعيش " يدروثامورا " ! »

جاءت الإجابة من الجانب الآخر ، بصوت كالهمس : الغوث يا إلهى ! الغوث ! النجدة ياقديس " أتوتشا ! " .

مرّت الطيور . عبرت الأفق فوقنا ، متجهة نحو الرّيبى ، أفواج السّمآن .

جاءنا الإطلاق الثالث للنار من الخلف . صدر منهم ، وجعلنا نثب إلى الجهة المقابلة من السور متخطين القتلى الذين قتلناهم .

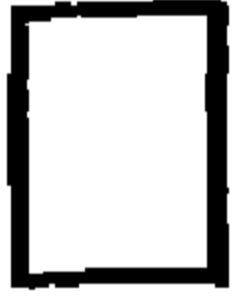
بدأ بعد ذلك مشوار الفرار بين الأحرار .

كنا نحس بالرصاص يزمجر في أعقابنا ، كما لو أننا سقطنا فوق أعشاش اليعاسيب ، ومن حين لآخر ، وكل مرة أكثر تواملا من سابقتها ، يستقر الرصاص في منتصف واحد منا فيهوى على الأرض وعظامه تطقطق .

عدونا ، وصلنا إلى حافة الوهدة وتدلينا من هناك وكأننا نتساقط .

واصلوا إطلاق الرصاص . استمروا في الضرب حتى بعد أن صعدنا - على أيدينا وأرجلنا - إلى الجانب الآخر ، مثل زبازب أفزعها اللهب .

« عاش الجنرال " بيترونيلا فلورس " ، يا أولاد ... ! » ، وصلتنا صيحاتهم مرة أخرى ، صيحات كالرعود تقافزت نحو قاع الوهدة .



انحنينا خلف الحجارة الضخمة المستديرة التي وصلنا إليها وأنفاسنا متقطعة من شدة الركض ، كنا ننظر وحسب إلى " پدرو تامورا " مستفسرين بعيوننا عما جرى .

لكنه كان ينظر إلينا أيضاً دون أن يفتح فمه ، كأن الكلام قد نفذ من الجميع ، أو كأن ألسنتنا قد انعقدت مثل الببغاوات " البيروكس " ويشق علينا فك عقدها لتنفوه بكلمة .

ظل " يدرو ثامورا " ينظر إلينا . كان يعدنا بعينيه ؛ بهاتين العينين المحمرتين بكاملهما وكأنهما لا تنطبقان أبداً ، كان يعدنا واحداً واحداً . كان يعرف عدد من كانوا هناك ، لكن بدا وكأنه ليس متأكداً ؛ لذلك كان يكرر العدّ مرات ومرات .

ينقص البعض : أحد عشر أو اثنا عشر رجلاً ، دون عدّ " لايراً " و " تشيويلا " ومن رافقوهما ، يحتمل أن يكون " تشيويلا " قد ارتقى غصن شجرة وتمدد فوق بندقيته منتظراً انسحاب القوات الحكومية .

كان " لوس خوسيسوس " ، ولداً " لايراً " ، هما أول من رفعاً رأسيهما ثم جسديهما بعد ذلك . راحا ينتقلان من موضع إلى آخر منتظرين سماع شيء من " يدرو ثامورا " . قال :

- هجوم آخر مثل هذا وسيفنوننا عن بكرة أبينا .

تحرك بلعومه ، فى التوّ ، وكأنه يبتلع ملء الفم شجاعة ليصبح فيهما : « أعرف أن أباكما لم يعد ، لكن اصبراً ، تحملاً قليلاً ، وسنبحث عنه » .

دوّت طلقة صادرة من هناك ، طار على إثرها سرب من العصافير على السفح المواجه لنا ، اتجهت العصافير نحو الوهدة وظلت تخفق بأجنحتها إلى أن اقتربت منا ؛ وعندما رأنا أصابها الهلع فاستدرت متألقة بأشعة الشمس وعادت لتملأ بالصياح أشجار السفح قبالتنا .

رجع " لوس خوسيسوس " إلى مكانهما السابق وأقيا في صمت .

ظللنا هكذا طيلة ما تبقى من النهار . عندما جنّ الليل وصل " تشويلا " وبرفته واحد من « الأربعة » . أخبرانا أنهما قادمان من هناك تحت ، من عند " لايدرا ليا " ، لكنهما لم يستطيعا إفادتنا بشيء عن القوات الحكومية : هل انسحبت أم بقيت متربصة هناك ؟ مما لاشك فيه أن الهدوء يُطبق على المكان ، ومن حين لآخر ، كان يُسمع عواء الذئاب .

- أنت يا " بيتشون " ! - نادى على " پدرو تامورا " - . أوكل إليك ، أنت و " لوس خوسيسوس " ، مهمة الذهاب إلى " لايدرا ليا " للبحث . عن " لايرا " . لو عثرتم عليه مقتولاً ، ادفنوه . عليكم بفعل الشيء نفسه مع الآخرين . أما الجرحى فاتركوهم فوق شيء مرتفع حتى يراهم الهنود (الحمر) ؛ لكن لاتحضروا أحداً منهم .

- هذا ما سنفعله .

وذهبنا .

كانت الذئاب تعوى على مقربة منا عندما وصلنا إلى الاضطبل الذي

تركنا فيه خيولنا .

الآن لاتوجد خيول ، بل حمار ضامر فحسب كان يعيش بالمكان قبل

مجيئنا ، لابد وأن القوات الحكومية قد استولت على ما خلفناه وراء

ظهورنا من خيول . عثرنا على بقية « الأربعة » خلف بعض الشجيرات ،

الثلاثة معا ، الواحد منهم فوق الآخر وكأنهم كسوموهم هناك ، رفعنا رءوسهم وهزرتناها قليلا لنرى ما إذا كانت بأحدهم حياة ؛ لكنهم كانوا ميتين موتاً لا مرأى فيه . وعلى حافة النهر وجدنا آخر وأضلاعه تطل من جلده وكانهم أجهزوا عليه بالسيوف . مسحنا البقعة الغاصة بالأعشاب من أعلاها إلى أدناها وعثرنا على آخرين ، واحد هنا وآخر هناك ، أغلبهم داكن الوجه .

- لقد قتلوا هؤلاء غيلة - قال واحد من " لوس خوسسيوس " .

تفرغنا بعد ذلك للبحث عن " لايبرا " ولم نحفل بغيره .

لا أثر له .

« لا بد وأنهم حملوه - قلنا لأنفسنا - . أخذوه معهم ليعرضوه على الحكومة » ؛ ومع هذا ظللنا نفتش عنه فى كل مكان ، بين القش . لم تكف الذئاب عن العواء ، ظلت تعوى طيلة الليل .

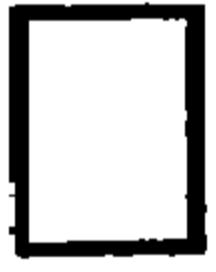


بعد أيام قليلة ، فى " أرميريا " ، عند عبورنا النهر ، التقينا من جديد بقوات " بيترونيو فلورس " . حاولنا التقهقر ، لكن بعد فوات الأوان ، كان مثل الإعدام رمياً بالرصاص ، أنطلق " پدرو تامورا " أمامنا هامزاً ذلك الجواد المبرقش الربعة الذى لم أر مثيلاً له طيلة

حياتي . تبعناه ، زرافات ، منحنيين على رقاب الخيول . كانت مذبحة عظيمة ، بكل المقاييس ، لا أعى تفاصيل ما حدث لأننى غصت فى قاع النهر وفوقى حصانى المقتول ، وجرفنا التيار بعيداً ، نحن الاثنين ، حتى أوصلنا إلى مكان ضحل غاصّ بالرمال .

كانت تلك هى المواجهة الأخيرة لنا مع قوات " بيترونيو فلورس " . لم نقاتل بعد ذلك . ولتحرى الدقة أقول إننا لا نقاتل منذ زمن طويل ، بل نحاول الخلاص بأجسادنا ، ولذلك قررنا العودة بما تبقى من رجال إلى التلّ للاحتماء به والفرار من المطاردة . أصبحنا فى نهاية المطاف شرازم قليلة لإيهابها أحد ، لم يعد الآن لمثل هذا المشهد وجود : واحد يجرى مذعوراً وهو يصبح « احترسوا ، رجال " ثامورا قادمون " .

لقد عاد السلام ليرفرف بجناحيه على السهل الكبير .



لكن لن يستمر هذا لوقت طويل .

مضى ما يقرب من الثمانية أشهر ونحن محتشمون بمخبأ وادى « توثين » الضيق العميق ، حيث يتعثر نهر " أرميريا " لساعات عديدة قبل أن يهوى مرتطمًا بشطآنه . ظللنا ننتظر مرور الأعوام لنعود إلى العالم بعد ذلك ، عندما ينسانا الناس . أخذنا نربى الدواجن

ونصعد الجبل من حين لآخر بحثًا عن الوعول . كنا خمسة ، تقريباً أربعة ، لأن واحداً من " لوس نخوسوس " أمسكت بساقه غرغرينة من جراء الطلقة التي أصابوه بها أسفل مؤخرته ، عندما هاجمونا من الخلف .

كنا هناك ، حيث بدأ الإحساس بعدم الفائدة يتسلل إلى قلوبنا ، ولو لم نكن متأكدين من تعليقهم لنا على أعواد المشانق لسلمنا أنفسنا واسترحنا ، وبينما نحن على هذه الحال ، ظهر المدعو " أرمانثيو الكالا " ، ساعى بريد " پدرو تامورا " .

عند انبلاج الصباح ، ونحن نتهياً لتقطيع أوصال إحدى البقرات ، سمعنا صغير القرن ، كان قادماً من مسافة بعيدة للغاية ، باتجاه السهل . سمعناه ثانية بعد مرور وقت قصير ، كان مثل حوار الثور : حاد في البداية ، أجش بعد ذلك ، ثم حاداً مرة أخرى ، كان الصدى يُرَجِّعُه ويطيله أكثر وأكثر ويقذف به إلى جوارنا هنا ، إلى أن يخمد في النهاية خريبر النهر .

كانت الشمس على وشك البروغ عندما استبان " الكالا " هذا وظهر من بين نباتات العرعر .

كان يضع على محفة ذات عجلتين خراطيش عيار « ٤٤ » وعلى متن جواده يحمل بالعرض حقيبة محشوة بالبنادق .

ترجل من على فرسه ، وزع علينا البنادق ثم أغلق الحقيبة على الباقي منها .

· إذا لم يكن لديكم ما تفعلونه من اليوم إلى الغد ، فعليكم بالتهيؤ للرحيل إلى « سان بوينا بيتورا » . « پدرو ثامورا » ينتظركم هناك . وحتى تكملوا استعداداتكم سأترككم لبحث قريباً من هنا عن عائلة « زاناتس » . سأعود بعد ذلك .

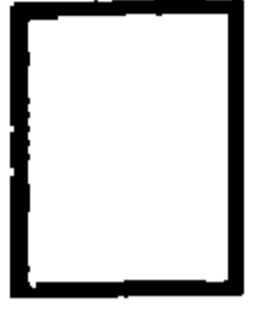
عاد في اليوم التالي قبيل الغروب . بالفعل ، كانت عائلة « زاناتس » معه ، كانت وجوههم تلمع بالدكنة بين ألوان الغروب الرمادية . كان يرافقهم ثلاثة لا نعرفهم .
- سنحصل على جياذ في الطريق - قال لنا .
وتبعناه .

قبل الوصول إلى « سان بوينا بيتورا » بكثير شاهدنا أكواخ مربى الماشية وهي تحترق ، كانت ألسنة اللهب تتصاعد عالياً من عنابر الغلال كما لو كانت النار قد أضرمت في مستنقعات زيت سريع الاشتعال ، كانت الشرارات تتطاير وتنعقد في ظلمة السماء مشكلة سحباً كبيرة مضيئة .

واصلنا تقدمنا ، مهتدين بأضواء « سان بوينا بيتورا » ، كما لو أن يداً خفية تدفعنا إلى هناك لتقضى على من بقى منا .

قابلنا على مشارف المدينة فرساناً يأتون خيلاً على صهوات خيول شُدَّت إلى مقدمة سروجها حبال ؛ بعضها يجرجر رجالاً مقيدين يحاولون متابعة الخيول على أيديهم ، والبعض الآخر يجرجر رجالاً سقطت أيديهم إلى جوارهم وروءوسهم متدلّية . شاهدناهم يمرون . تبعهم بعد ذلك « پدرو ثامورا » وخلق كثير على ظهور الجياذ ، أناس كثيرون لم نعهد لكثرتهم مثيلاً من قبل . تملكنا الحبور .

من لا يملكه السرور وهو يتخيل اجتياز تلك الصفوف للسهل الكبير
مرة أخرى ، كما كان يحدث في الأزمان الهائلة الغابرة ! ومن ينسى
البداية ! عندما انشقت الأرض عنا مثل زهور المناطق الحارة الناضجة وقد
أذرتها الرياح لتشيع الرعب في كل الأرجاء المحيطة بالسهل . مضى زمن
كنا فيه هكذا ويبدو أنه يعود من جديد .



نزلنا كالصاعقة على « سان پدرو » . أضرمنا فيها النيران وولينا
وجوهنا شطر « بيتكال » .

جرى هذا ومحصول الذرة على وشك الحصاد وأعواده تشتت بفعل
الرياح التي تهب على السهل في ذلك الوقت من العام . وهكذا كان من
دواعي السرور رؤية النيران وهي تمرح بين مراعى الخيول ؛ رؤية السهل وقد
تحول معظمه إلى جذوة خالصة والدخان يتلوى فوقها ؛ ذلك الدخان الذي
يتضوع برائحة العسل والقصب ، ذلك لأن اللهب كان قد امتد أيضاً إلى
مزارع القصب .

ومن بين الدخان كنا نخرج ، كالأشباح ، والوجوه يعلوها الهباب ، نسوق أمامنا قطعان الماشية من هنا وهناك ونجمعها فى مكان ما ونسلخ جلودها بعد ذبحها ، تلك كانت تجارتنا : جلود الماشية .

هذا لأن « يذرو ثامورا » قال لنا : « سنمول هذه الثورة بأموال الأغنياء ، سيغطون بأموالهم ثمن السلاح ونفقات هذه الثورة ، وبالرغم من أننا نفتقر حتى الآن لراية وشعار نحارب من أجلهما ، إلا أنه يجب علينا الإسراع فى جمع ما تصل إليه أيدينا من أموال ، لكى نكون على أتم الاستعداد عندما تأتى قوات الحكومة » . هذا ما قاله لنا .

وعندما عادت قوات الحكومة أخيراً أخذت تنزل بنا الإصابات كسابق عهدها ، وإن لم يكن بالسهولة نفسها . يُرى الآن من عدة فراسخ أنهم يهابوننا .

لكن الخوف منهم كان يملكنا أيضا . كان من السهل ملاحظة كيف كانت حلوقنا تغص بأرواحنا بمجرد سماع الجلبة التى تحدثها تشكيلاتهم أو سماع حوافر جيادهم وهى تركض فوق حجارة أى طريق حيث نكمن للإيقاع بهم . عند رؤيتهم وهم يمشون أمامنا ، كان يتابنا إحساس بأنهم ينظرون بطرف خفى إلينا وكأنهم يقولون لنا : « راثحتكم تزكم أنوفنا ، وما نفعله ليس إلا مناورة ومداراة » .

وكثيراً ما كان يصدق هذا الإحساس ، فبمجرد أن نبدأ فى إطلاق النار عليهم نجدهم استلقوا على الأرض ، مترسين بخيولهم ويقاوموننا من موضعهم ، إلى أن يضرب آخرون حولنا الحصار دون أن نشعر

بهم ، ويتلقفوننا مثل دجاج محبوس بالحظائر . أدركنا من وقتها أننا لن نستمر طويلاً على هذا المنوال مهما كانت كثرتنا .

هذا لأن من نواجههم الآن من رجال ليسوا كرجال الجنرال « أوربانو » الذين أرسلوهم إلينا في البداية وكانوا يفرعون من مجرد الصباح والتلويح بالقبعات ؛ أولئك الرجال الذين أُخرجوا من ديارهم قسراً ليحاربونا وكانوا لا يجرءون علي مهاجمتنا إلا إذا تأكدوا من قلة عددنا . لقد فنى هؤلاء ولم يعد لهم أثر ، جاء بعدهم آخرون فى منتهى السوء . الآن يقودهم « أولاتشيا » ومعه أناس متمرسون يمتازون بالصبر والتحمل ؛ علاوة على رجال ذوى بأس جاءوا من « تيوكاليتشى » مُطعمين بهنود « تيهوانس » : هنود شعث الرءوس ، معتادين على الصيام لعدة أيام وبإمكانهم فتح عيونهم ساعات كاملة دون أن تطرف للتجسس على الواحد ، منتظرين ظهور رأسه ليسكنوا فيها إحدى رصاصات عيار « ٣٠ x ٣٠ » الطويلة التى تهشم المخ وكأنها تحطم غصناً متعفنًا .

ودون الحاجة إلى تعليل يمكن القول إن الانقضاض على أكواخ مربي القطعان كان أسهل بكثير من عمل الكمائن للقوات الحكومية . لهذا السبب تفرقنا ، وبزمرة من الأفراد هنا وأخرى هناك أنزلنا بهم أضراراً لم يسبق لها مثيل . لم نكن نستقر أبداً فى مكان بل نهول من موضع لآخر مسلمين أقدامنا للريح مثل بغال سريعة العدو .

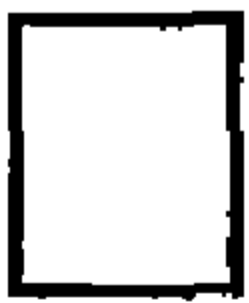
وهكذا ، فبينما كان بعضنا يشعل الحرائق فى بيوت وأكواخ مربي القطعان فى « خاثمين » ، كنا نسقط كالدواهى على ثكنات الجند

ونحن نجر جر أفرع الشجر لإيهام الناس بكثرتنا ، ومتخفين بين مانشيره من غبار وصياح .

كانت المباغته من نصيينا ، ولجنودهم الترقب والانتظار .

قضينا زمناً ونحن نتقل من مكان لآخر ، إما إلى الأمام أو إلى الخلف ، كالتأرجحين . من هنا كانت تُرى النيران المضرمة بالجليل ، حرائق ضخمة كما لو كانت النيران قد أمسكت بالأرض الفضاء . من هنا كنا نشاهد ألسنة اللهب وهي تتصاعد طوال الوقت من الحظائر والأكواخ وأحيانا من القرى الكبيرة مثل « توثاميليا » و « ثاپوتيتلان » وتحيل الليل إلى نهار ساطع ، كان رجال « أولاتشيا » يغادرون ثكناتهم ويغزون السير في اتجاه تلك الحرائق ، وعندما يصلون إليها ، يشاهدون « تولوليمسيا » وهي تحترق خلفهم .

كان مشهداً يبعث على السرور : مغادرة الأوكار فجأة بعد انطلاق الجنود المتحمسين للقتال ، ورؤيتهم وهم يجتازون السهل الخاوي ، دون عدو يواجهونه ، وكأن البحر السحيق بلا قرار ، ذلك السهل المحفوف بالجلال كالحدوة الكبيرة ، قد انشق وابتلعه .



حرقنا « كواستيكوماتى » واستمتعنا هناك بمشاهدة ما تبقى فيها من رجال وهم يُقتلون على شاكلة الثيران فى حلبات المصارعة . كان « يدرو نامورا » شديد الولع بلعبة الثور هذه .

كانت القوات الحكومية قد غادرت « كواستيكوماتى » فى طريقها إلى « أوتلان » لتعقب العصابات التى تعشش ، طبقاً لاعتقادهم ، فى مكان يقال له « لاپوريفيكاثيون » . كنا قد تركنا هذا المكان عندما اتجهوا إليه ، ومن ثم فقد كانت « كواستيكوماتى » متهية لاستقبالنا .

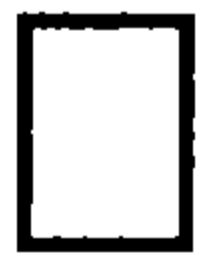
سمحت لنا الظروف هناك بتقليد مصارعة الثيران . الثمانية جنود الذين تركتهم القوات الحكومية ، علاوة على الصّراف والقائم بالأعمال الإدارية (الإدارى) ، كفوا ليومين مصارعة .

أقمنا سوراً خشبياً مستديراً مثل الذى يُعد لحبس العنزات ، لاستخدامه كحلبة ، جلسنا على السور لنمنع خروج المصارعين الذين كانوا يجرون بسرعة فائقة عندما يرون الموسيقى الذى يجرى وراءهم به « يدرو نامورا » ويريد نطحهم به .

صرع الجنود الثمانية فى أمسية ، والاثنان الآخران فى الأمسية التالية ، الوحيد الذى احتاج صرعه لجهد كبير هو الصّراف الطويل والنحيف مثل الرمح السمهرى ، ذلك لأن مجرد ميله إلى جانب كان كفيلاً بتفادى النطحة ، أما الإدارى فلم يصمد لأكثر من جولة ، كان ربع القامة أحرقاً ولم يلجأ لأية حيلة كى يتفادى الموسيقى ، مات صامتاً صمتاً مطبقاً ، دون أن تصدر عنه حركة وكأنه كان يتمنى هذه الميتة ، لكن الصراف تطلب جهداً .

كان « پدرو تامورا » قد أعار كل واحد من المصارعين مدرعة سميكة وثقيلة ، ولهذا السبب استطاع الصراف أن يناور بمهارة نطحات الموسيقى ، فقد استفاد جيداً من المدرعة إذ كان يحركها برشاقة أمام النطحات المسددة إليه مباشرة ، وبهذا الشكل راوغ « پدرو تامورا » حتى أتعبه ، كان يُلاحظ بوضوح مدى التعب الذى ألمَّ به من ركضه العشوائى نحو الصراف ومن عدم إصابته إلا ببعض الخدوش ، عندئذ نفذ صبره ، ترك الأمور تسير على ما هى عليه ، وفجأة ، وبدلاً من النطح المواجه كما يفعل الثيران ، أبعد المدرعة بيد وبالأخرى التى تمسك الموسيقى طعنه طعنة قاتلة . بدا وكأن الصراف لم يتنبه لما حدث لأنه ظل يجرى بعدها لفترة وهو يهز المدرعة إلى أعلى وإلى أسفل وكأنه يهش مجموعة من الزنابير ، لم يمك عن الجرى إلا بعد أن شاهد الدم وهو ينبثق من وسطه ، انتابه الهلع وحاول بأصابعه سد الفتحة التى يخرج منها فى فوارة ذلك الشيء الملون ليتركه صاحب اللون ، بقى بعد ذلك ممدداً وسط الحلبة وهو ينظر إلى الجميع ، وظل هكذا إلى أن قمنا بشنقه ، لأننا لو لم نفعل لتأخر موته كثيراً .

ومن بعدها ، لم يتسخل « پدرو تامورا » عن ممارسة لعبة الثوره هذه كلما سنحت له الفرصة .



فى ذلك الوقت ، كان معظمنا من المناطق المتاخمة ل « خاليسكو » ، من بداية موطن « پدرو تامورا » إلى مايليه ؛ انضم إلينا بعد ذلك أناس من مناطق مختلفة :

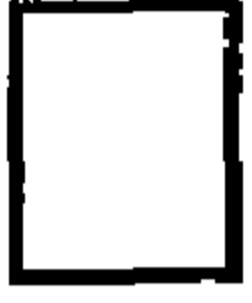
الهنود « الجويروس » من « تاكو ألكو » و « ثانكو نثوتس » أصحاب الوجوه المماثلة للبن العاقد ، كما انضم إلينا آخرون من المناطق الباردة التي تسمى « ماثاميلتا » وعباءاتهم الطويلة لا تفارق أجسادهم طوال الوقت وكأن الثلوج أتت وراءهم ولا تكف عن التساقط فوقهم . كان هؤلاء لا يحسون بالجوع في الأجواء الدافئة ، ولذا كلفهم « پدرو ثامورا » بالتمركز في منطقة البراكين حيث لا توجد سوى الرمال الخالصة والحجارة الملساء .

لكن الهنود « الجويروس » سرعان ما أحبوا « پدرو ثامورا » ولم يرضوا بديلاً لصحبته ، كانوا ملازمين له ، مثل ظله ، ويلبون جميع أوامره ؛ لدرجة أنهم كانوا أحياناً يقومون بخطف أجمل ما في القرى من فتيات ويقدمونهن لـ « پدرو ثامورا » .

مازلت أتذكر بوضوح كل شيء ، تلك الليالي التي كنا نمضيها بالجبل ، نغز السير دون إحداث ضجيج والنعاس ملء جفوننا ، فارين من ملاحقة القوات الحكومية التي تقتفى آثارنا . ما زلت أتخيل « پدرو ثامورا » متلفعاً بعباءته ولا يكف عن إصدار التعليمات لنا حتى لا يتأخر أحد عن الركب :

- أنت ، يا " ييتاسيو " ، أهمز هذا الجواد وأنت ،
يا " ريسنيدس " ، لا تتم ، أنا بحاجة للتحدث معك !

نعم ، كان يعتنى بنا جميعاً . كنا نسير فى جوف الليل والنعاس
يداعب جفوننا وراءوسنا فارغة من الأفكار ؛ لكنه كان مشغولاً بنا ، يحدثنا
كى نستيقظ ونرفع هاماتنا . كنا نحس بعينيه المفتوحتين اليقظتين ، اللتين
لا يخامرهما النعاس ، المعتادتين على الرؤية فى جوف الليل وعلى التعرف
علينا فى الظلام الخالك . كان يعدنا جميعاً ، واحداً واحداً ، كمن يعد ما
بكيسه من نقود ، ثم يسير إلى جوارنا . كنا نسمع وقع حوافر جواده
ونعرف أن عينيه على حذر دائم ؛ لهذا كنا نتبعه كالعميان ، صامتين ،
دون أن تصدر عن فرد منا شكوى ، لا من البرد ولا من النعاس .



لكن الأمور ساءت وأخذت فى التدهور السريع منذ حادثة قطع سكة
القطار عند المطلاع المؤدى إلى " سايويلا " وإخراجه عن القضبان .
لو لم يحدث هذا ، ربما ظل باقياً على قيد الحياة كل من " پدرو
ثامورا " و " تشيويلا " و " التشينو أرياس " وكثيرين غيرهم ، ولربما
استمرت الثورة فى طريقها الصحيح ، لكن " پدرو ثامورا " أهان الحكومة
وأثار حفيظتها بمهاجمة قطار " سايويلا " .

لا يفارق مخيلتى إلى الآن منظر ألسنة اللهب وهى تتصاعد من الحفرة
المكدسة بالموتى ، كانوا يكومونهم بمجارف ويدحرجونهم كجذوع الأشجار
إلى أسفل المطلع وعندما تعلق الكومة يصبون عليها البترول ويضرمون فيها
النيران . كانت أجنحة الرياح تحمل النتن إلى مسافات بعيدة ، وظل الجو
لأيام طويلة معبقاً برائحة اللحوم الأدمية المشوية .

لم نكن نعى تماماً أبعاد ما نحن مقبلون عليه حتى قبل وقوع الواقعة
بقليل ، كنا قد رشقنا مسافة كبيرة من السكة الحديد بقرون وعظام
الأبقار ، وللزيادة فى الحيلة فتحنا القضبان فى النقطة التى سينعطف
عندها القطار ، فعلنا هذا وانتظرنا .

كان السحر قد بدأ يثر ضيائه على الأشياء ؛ وعلى أسطح عربات
القطار ترى بوضوح تجمعات من البشر . كان يُسمع غناء بعضهم ،
أصوات لرجال ونساء ، مرّوا أمامنا ولا تزال تلفهم غلالة من سواد
الليل ، لكننا استطعنا تمييزهم : جنود بكامل استعداداتهم . انتظرنا . لم
يتوقف القطار .

كان بمقدورنا إصابتهم برصاصنا إصابات مباشرة ، لأن القطار كان
يسير متمهلاً ويلهث وكأنه يريد صعود المطلع معتمداً فقط على مجهوده
الذاتى ، بل كان بإمكاننا تجاذب أطراف الحديث معهم حيناً من الوقت .
لكن الأمور لم تكن تمضى فى هذا الاتجاه .

بدءوا يتبهبهون لما يحدث عندما أحسوا بأرجحة العربات وبرجرجة
القطار وكان أحداً يهزه بعنف . بعد ذلك نكصت القاطرة على عقبها ،

مسحوبة وهي خارج القضبان بثقل العربات الغاصة بالبشر . كانت القاطرة تطلق صفيرا أجش ، طويلا وحزينا ، لكن لم يمد لها أحد يد العون . استمرت فى التراجع ، مجرورة بذلك القطار الذى لا يرى له آخر ، إلى أن خانتها الأرض تحتها فمالت على جنبها وهوت فى قاع الوهدة . وفى لمح البصر تبعها العربات ، واحدة واحدة ، وانكفأت كل منها فى مكانها هناك . أطبق الصمت بعد ذلك وكأن الجميع ، بما فيهم نحن ، قد أخرسه الموت .

هذا ما حدث .

عندما بدأ يخرج من بقى منهم حيا من بين ركاب العربات ، انسحبنا والرعب يعصف بنا .

اختباننا بضعة أيام ؛ لكن قوات الحكومة أتت لتقتلنا من مخابئنا . لم يتركونا ننعيم بالهدوء لحظة ؛ حتى ولو من أجل مضغ قطعة من قديد . جعلوا ليلنا ونهارنا سواء ، وصادروا ساعات نومنا وطعامنا . أردنا الاحتماء بوادى « توثين » الضيق العميق ؛ لكن الحكومة وصلت إليه قبلنا . سرنا بمحاذاة البركان ، وتسلقنا الجبال الشاهقة الارتفاع وهناك ، فى ذلك المكان المسمى « طريق الرب » ، وجدنا رصاصاتهم بانتظارنا . كنا نحس بسخونة الهواء المحيط بنا من جراء الرصاص المتساقط علينا فى دفقات مضغوطة ، لدرجة أن الحجارة التى كنا نحتمى بها تبعثت أشلاء كما لو كانت من حلوى . عرفنا بعدها أن بنادقهم التى كانت تطلق الرصاص لم تكن بنادق بل مدافع رشاشة إذا أصابت دفقة منها جسد إنسان

جعلته كالمصفاة . وقَر فيأذهاننا حينذاك أن أعدادهم لا تحصى ، بالآلاف ،
وأن ليس أمامنا من سبيل سوى العدو أمامهم .

جرينا قدر استطاعتنا . فى « طريق الرب » تخلف " تشيويلا "
خلف شجرة قطلب والعباءة ملفوفة حول عنقه وكأنه يحتوى من البرد .
ظل يحدق فينا ، واحداً واحداً ، أثناء مرورنا عليه ليوزع على كل واحد
منا نصيبه من الموت ، بدا وكأنه يضحك علينا ، بأسنانه المتفرقة الملطخة
بالدم .

تفرقنا فى مجموعات صغيرة : جنى ثمار التبعر كثيرون ، وأضير به
آخرون غيرهم ، كان من النادر ألا نرى واحداً منا على قارعة إحدى الطرق
معلقاً من قدميه فى عمود طويل ، ويستمر هكذا ردحاً من الزمن ،
متدلياً مثل جلد غير مدبوغ . كانت العقبان تأكل لحومهم وأحشاءهم من
الداخل ولاتركها إلا وهى هياكل عظيمة ، وبما أنهم كانوا يعلقونهم على
ارتفاع كبير فقد كانوا عُرضة لأرجحة الرياح أياماً طويلة ، وربما شهوراً ،
وأحيانا حتى لايتبقى من المُعلق سوى بنطاله وكأنهم علقوه ليجف هناك .
حينما كانت عين الواحد تقع على هذه المشاهد يحس بجدية الأمر ودنو
الأجل .

استطاع البعض الفرار بجلودهم إلى التلّ الكبير حيث كنا نرحف
كالأفاعى لنقضى الوقت فى التطلع إلى السهل ، إلى تلك الأرض الجائمة
هناك حيث وُلدنا وعشنا ، وحيث ينتظروننا الآن ليجهزوا علينا . أحياناً
كان الرعب يملكنا من ظلال الغمام .

لو أتيتحت لنا الفرصة لذهبنا لمن بيدهم الأمر عن طيب خاطر لإعلان التوبة وطلب العفو حتى يتركونا فى سلام ؛ لكن الجرائم الكثيرة التى اقترفناها من جهة ، وخبث الناس وسوء طويتهم من جهة أخرى ، لم يتركنا لنا صديقاً واحداً نلجأ إليه ، حتى الأموال المعلقة على حلفائنا السابقين ، الهنود الموجودين على مقربة ، هنا فى الأعلى ، قد تبخرت هى الأخرى بعد أن قلبوا لنا ظهر المجن . ينسبون إلينا الفتك بحيواناتهم . زودتهم الحكومة بأسلحة كثيرة وأرسلوا إلينا من يحذرنا من الاقتراب منهم لأنهم لن يترددوا فى قتل من يلمحونه .

« لانريد رؤيتكم ؛ لكن لو رأيناكم لن يعصمكم منا عاصم » ،
أوصلوا لنا هذه الرسالة .

وبهذا الشكل ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، لم يبقَ لنا ولاحتى بضعة الأمتار التى نحتاجها لنرقد فيها أمواتاً .

لهذا قررنا ، نحن المتبقين ، التفرق ، وعلى كل واحد أن يكترى (بحياته) اتجاهه الخاص .



أمضيت مع " پدرو تامورا " خمس سنوات . بأيام هنيئة ؛ وأخرى مريرة ، اكتملت السنوات الخمس ، لم أره بعدها ، يقولون إنه ذهب إلى « مكسيكو » (العاصمة) وراء امرأة وهناك قتلوه . انتظرنا عودته ، ظهوره أحد الأيام لنخوض معه غمار الثورة من جديد ؛ لكننا تعبنا من طول الانتظار . قتلوه هناك . أخبرني رفيق بالسجن بتمكنهم منه .

غادرت السجن من ثلاث سنوات مضت . عاقبوني بتهم كثيرة ؛ ليس من بينها مؤازرة " پدرو تامورا " في ثورته ، لم يعرفوا هذا . قبضوا على لجرائم أخرى ، من بينها عاداتي السيئة في اختطاف الفتيات . تعيش معي الآن إحداهن ، ربما أفضل امرأة بين نساء العالم ، الموجودة هناك ، خارج قضبان السجن ، منتظرة ، لا أحد يعلم منذ متى . إطلاقهم سراحي .

- " بيتشون " ، أنا في انتظارك - قالت لي - . انتظرتك لسنوات

طويلة !

تخيلت حينئذ أنها تنتظرني للانتقام مني ، طفت صورتها على مخيلتي ، وفيما يشبه أحلام اليقظة تذكرت من تكون ، عاودني الإحساس بالماء البارد المتساقط من العاصفة على « تلكمپانا » ، تلك الليلة التي داهمنا فيها القرية وسوينها بالأرض ، كنت شبه متيقن من أن أيها هو ذلك الشيخ القانى الذى قتلناه ونحن فى طريقنا إلى الخروج ؛ ذلك الذى أطلق أحدنا على رأسه رصاصة بينما كنت أضع ابنته عنوة على سرج حصانى وأضربها ضربات غير مدمية على رأسها

لكى تهدأ وتكف عن عضى . كانت صبىة فى الرابعة عشرة من عمرها ،
ذات عىنن جمىلتىن ، وكلفنى تروىضها عناء وجهداً كبرىن .

- معى ابن لك - قالت لى بعد ذلك - . إنه هنا .

وأشارت بإصبعا إلى صبى فارع الطول قلق العىنن .

- انخلع القبعة لكى ىراك والدك .

ونخلع الصبى القبعة ، كان مثلى تماماً وبنظرته شىء من الشر ، ورثه
بالتأكد عن أبىه .

- ىسمونه أيضاً " ىتشنون " - عادت المرأة لتقول لى ، تلك التى هى

زوجتى الآن - . لكنه لىس قاطع طرىق ولا قائل ، إنه طىب المنبت .
طاطأت رأسى .

قل لهم يتركوني أعيش

- "خوستينو" ، قل لهم يتركوني أعيش . هيا ، قل لهم هذا ، رحمة بي ، قل لهم يحسنوا إلى ويتركوني .
- لا أستطيع . هناك جاويز لا يريد سماع شيء عنك .
- اجعله يسمعك ، استخدم شطارتك معه وأخبره أنه إذا كان المقصود تخويفه فقد تعذب بما فيه الكفاية ، قل له يفعل هذا ابتغاء الأجر من الله .
- الأمر لا يتعلق بإثارة الفزع ، يبدو أنهم مصممون على قتلك ، ولا أريد العودة إليهم ثانية .
- جرب مرة أخرى . مرة أخرى فقط . ولنتظر ما ستسفر عنه محاولتك .
- لا ، لا أرغب في الذهاب . أنا ابنك ، وإذا ترددت عليهم كثيراً قد يعرفون من أنا ويقررون ساعتها إيرادى المورد نفسه . الأفضل ترك الأمور تمضي على ما هي عليه .
- هيا ، يا "خوستينو" . توسل إليهم أن تأخذهم بعض الشفقة بي . قل لهم هذا لا أكثر .
- جزء "خوستينو" على أسنانه وهز رأسه قائلاً :
- لا .

وظل يهز رأسه شوطًا طويلًا .

- اطلب من الجاويش مقابلة « الكولونيل » . وأخبره بمدى ضعفى وكبر سننى ، وأنى لم أعد أصلح لشيء . ماذا سيجنى من وراء قتلى ؟ لاشيء البتة ، لابد وأن له قلبًا ، توسل إليه أن يعفو عنى ابتغاء المثوبة من الله .

نهض "خوستينو" من على حافة الخوض الحجري الذى كان جالسًا فوقه واتجه نحو باب الحظيرة . عاد أدراجه بعد ذلك ليقول :

- أنا ذاهب ، لكنهم لو أعدمونى أنا الآخر ، من سيتكفل عندئذ برعاية زوجتى وأولادى ؟

- العناية الإلهية ، يا "خوستينو" . ستتكفل بهم . لاتشغل بالك بشيء سوى الذهاب إلى هناك ولاتفكر فى غير ما يمكن أن تصنعه من أجلى . هذا هو الأمر العاجل .



أحضره وقت طلوع الفجر . والآن تكشف النهار ومازال هناك ينتظر ، مربوطًا فى آلة خشبية . كان مضطربًا . حاول أن يغفو قليلا لينعم بالهدوء ، لكن النوم كان قد طار من عينيه ، كما تلاشت رغبته فى الطعام . لم تكن له رغبة فى شيء ، فيما عدا البقاء على قيد الحياة . بعد أن تيقن من دنو أجله ، تملكته رغبة عارمة فى الحياة لايحس بمثلها إلا من بُعث من الأجدات حديثًا .

من كان يظن أن ذلك الحادث الكريه الذى عفى عليه الزمن وابتلعه النسيان ، حسب اعتقاده ، سيعود ليطل برأسه من جديد ، عندما دفعته الظروف ليقتل "دون لوبى" . لم يقتله شططا كما يدعى أهل « أليما » ، بل كانت لديه الدوافع والأسباب . مازال يذكر ما حدث .

كان « دون لوبى تيريروس » صاحب إقطاعية « لا پويرتا دى بيدرا » وفوق هذا أباه من العماد . ولهذا السبب اضطر « خوبشيو نابا » لقتله ؛ لكونه صاحب « لا پويرتا دى بيدرا » ولأنه أيضاً أبوه من العماد ، ومع هذا منع ماشيته من المرعى .

تحمّل فى البداية ، مراعاة لما بينهما من أواصر الصلة ، لكنه بعد أن حلّ الجفاف ورأى ماشيته تتساقط واحدة بعد أخرى من فرط الجوع الذى ألهبها بسياطه ، وأبوه من العماد مازال يركب رأسه ويضنّ عليها بعشب خيوله ، قرر وقتها إزالة سياج المرعى أمام كبة حيواناته الشديدة الهزال لكى تأكل حتى التخمة . لم يعجب هذا « دون لوبى » وأمر بإعادة السياج إلى ما كان عليه ليعود « خوبشيو نابا » ليفتح فيه من جديد إحدى الثغرات . وهكذا ، ظلت الثغرة تُغلق بالنهار لتفتح بالليل بينما ينتظر القطيع هناك متربصاً بجانب السور ؛ ذلك القطيع الذى كان يستمد من قبل مقومات وجوده معتمداً فقط على شمّ رائحة العشب دون التمكن من الوصول إليه

احتدم النزاع بينهما ولم يصلا لاتفاق .

إلى أن حذره « دون لوبى » ذات مرة :

- اسمع يا "خوبنثيو" ، لو اقتحمت إحدى مواشيك المرعى سأقتلها

أجابه :

- ليس ذنبي أن تبحث الحيوانات عن الجانب الذي يريحها . إنها لاتفقه شيئاً ؛ ولذا أحذرك من التعرض لها .



« وقتل لى عجلا من العجول .

فى شهر مارس يكون قد انقضى على هذا خمس وثلاثون سنة ، لأننى أمضيت الشهر التالى له (أبريل) هائماً على وجهى فى الجبل فراراً من العدالة . ولم تكف البقرات العشر التى أعطيتها للقاضى ، ولاقيمة رهن دارى التى أخذها مقابل مغادرتى السجن . وكل ما تبقى لى بعد ذلك دُفع رشوة للكف عن مطاردتى ، وبرغم هذا لم يكفوا عن ملاحقتى ، وأتيت مع ابنى للعيش فى قطعة الأرض الصغيرة التى كنت أملكها فى " يالودى بينادو " . وكبر ابنى وتزوج من " إجنائيا " وأنجب ثمانية أولاد . وبما أن الشيخوخة قد أدركتنى فلا بد وأن تكون الحادثة قد طواها النسيان ، لكن ما يحدث معى الآن يؤكد أنها لم تُنسَ .

وحسبت حيثئذ أن المائة "بيزو" المتبقية كفيلة بتسوية المسألة . المرحوم « دون لوبي » كان وحيداً ، ولم تكن معه سوى زوجته وطفلين يحبوان ، الأرملة ماتت هي الأخرى حسرة على زوجها ، واحتضن الطفلين أقارب لهما يعيشون بعيداً ، ولذلك فإن الشعور بالخوف منهما لم يكن له مبرر على الإطلاق .

لكن الآخرين لم ينسوا أنني مطلوب من العدالة واستغلوا ذلك في إرهابي ومواصلة ابتزازي .

إذا حلّ غريب بالقرية يسارعون بإنذارى :

- نخذ حذرك ، يا "خوبثيو" ، بالقرية غرباء .

وعندئذ أخفّ بالخروج إلى الجبل ، وأتوارى بين أشجار القطلب وأظل أياماً أتغذى على الأعشاب والنباتات البرية . كنت أهرب أحياناً في منتصف الليل كمن تلاحقه الكلاب . استمر هذا حياة بطولها ، لم يكن لعام أو اثنين ، بل لحياة بكاملها .

والآن جاءوا للبحث عنه ، بعد أن تلاشى الأمل في ظهور أحد وتملكه اليقين في نسيان الناس للحادث ، وأعتقد أنه سيقضى أيامه الأخيرة في طمأنينة وراحة بال . « ستكون شيخوختي جواز مروري إلى الطمأنينة ، بسببها ستركوننى وشأني » ، ظن هذا .

داعبه هذا الأمل حتى ملك عليه نفسه ، ولهذا شقَّ عليه استيعاب فكرة موته هكذا ، فجأة ، في هذه المرحلة من العمر ، بعد أن جاهد كثيراً من أجل الفكاك من ريقة الموت ؛ بعد أن أمضى ربيع عمره

هائماً على وجهه من جهه لأخرى يجرجره الفزع ، وعندما ذبل جسده وتحول إلى جلد متغضن مدبوغاً بالأيام المريرة التي حكم عليه فيها بالهرولة للتخفى عن أعين الجميع .

وعلى سبيل الاحتياط ، ألم يصل به الأمر لحد ترك امرأته تهرب ؟ عندما أشرق عليه صباح ذلك اليوم بخبر فرار زوجته ، لم تدر حتى بخلده فكرة الخروج للبحث عنها ، تركها تهرب دون أن يتقصى مع من أو إلى أين حتى لا يضطر إلى الذهاب إلى القرية ، تركها تضيع مثلما ضاع قبلها كل ما عنده دون أن يحرك ساكناً . لم يبقَ له شيء يهتم به سوى حياته ، ولن يدخر وسعاً فى سبيل الحفاظ عليها ، لم يعد بإمكانه السماح لهم بقتله . ليس بإمكانه ؛ وخصوصاً الآن .

لكنهم أحضروه من هناك ، من " بالودى بينادو " ، لهذا الغرض بالذات . لم يكونوا بحاجة لشد وثاقه حتى يتبعهم . مشى باختياره مطوقاً بغلّ الخوف ليس إلا ، أدركوا أنه لا يستطيع الفرار منهم بذلك الجسد الفاتى ، وبهاتين الساقين النحيلتين مثل عصيتين جافتين ، والمكبلتين بالخوف من الموت . لقد كان ذاهباً لذلك المصير . ليموت . أخبروه بهذا .

من ساعتها عرف ما هو ماضٍ إليه ، وبدأ يحس بذلك الغثيان الذى كان يعتريه دائماً بمجرد رؤيته لشبح الموت يحوم حوله ، ويجعل الجذع يطلّ من عينيه ، ويورم فمه بالفصص المريرة التى كان عليه أن يتجرعها رغماً عنه ، بذلك الشيء الذى يُثقل قدميه بينما تتأرجح رأسه فوق عنقه ويدق قلبه بعنف بين ضلوعه . لا ، لا يمكن أن يستوعب فكرة قتلهم له .

لابد وأن يكون هناك بصيص من الأمل ، لم تُصادر بعد إمكانية وجود أمل ما . ربما يكونون قد أخطأوا ، ربما كانوا يبحثون عن "خوبثيو نابا" آخر وليس عن شخصه هو .

مشى صامتًا بين هؤلاء الرجال ، وذراعاه متهدلان إلى جواره . كان السَّحر معتمًا ، بلا نجوم ؛ والرياح تهب على مهل ، محملة بموجات من التراب ، معبقة بتلك الرائحة التي تشبه البول المغلف بغبار الطرق . كانت عيناه ، اللتان لملتھما السنين ، تريان الأرض تحت قدميه بالرغم من الظلمة وهناك ، على الأرض ، كانت توجد كل حياته ، سبعون سنة من العيش فوقها ، من صرَّها بكفيه ، من تذوقها مثلما يتذوق طعم اللحم ، ظل لفترة طويلة يحملق فيها ، مستطعمًا كل حفنة منها كما لو كانت المرة الأخيرة ؛ وقد كان شبه متيقن بأنها فعلا الأخيرة .

نظر بعد ذلك إلى الرجال الذين يسرون إلى جواره وكأنه يريد أن يتفوه بشيء . كان سيطلب منهم إطلاق سراحه ، تركه لحال سبيله :

« لم أصنع سوءاً بأحد ، أيها الفتيان » ، كان سيقول لهم ، لكنه ظل صامتًا . « سأطلب منهم هذا بعد قليل » ، قال لنفسه . كان يتطلع إليهم وحسب . كان بإمكانه تخيلهم كأصدقاء ؛ لكنه أحجم ، لم يكونوا كذلك ، لم يكن يعرف أحداً منهم ، كان يراهم إلى جواره ينحنون من وقت لآخر للاستدلال على الطريق وللتأكد من استمرارهم عليه .

كان قد رآهم لأول مرة عندما تلون المساء باللون الرمادي ، في تلك الساعة الحائلة اللون التي يبدو فيها كل شيء وكأنه يشيط .

كانوا يعبرون الأرض المزروعة داعسين بأقدامهم نباتات الذرة الطرية . اتجه نحوهم لأجل هذا : ليقول لهم إن نباتات الذرة فى طور النمو مازالت ضعيفة لاتتحمل السير فوقها ، لكنهم لم يتوقفوا .

رأهم قبل أن يصلوا إليه بوقت كاف . دائماً حالفه الحظ فى رؤية الأشياء فى الوقت المناسب . كان بوسعه الاختفاء ، السير لعدة ساعات بالتلّ حين ذهابهم ثم يعود إلى مقره . لقد كان الأمل فى نباتات الذرة معدوماً فى جميع الأحوال .

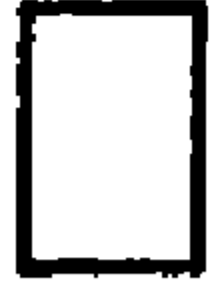
كانت تنتظر سقوط المطر ولما تأخر أخذت نباتات الذرة فى الذبول . ولن يطول بها العهد حتى تجف بالكامل .

وهكذا لم يكن الأمر يستحق لكى يتوجه إليهم ؛ لكى يضع نفسه بين هؤلاء الرجال وكأنه يدخل فى شقّ يتعذر عليه الخروج ثانية منه .

والآن يواصل إلى جوارهم ، كاتباً رغبته فى التوجه إليهم بطلب إطلاق سراحه ، لم يكن يرى وجوههم ؛ بل أجراماً تلتصق وتنفك عنه . وبهذا الشكل فعندما شرع فى الكلام لم يكن يدرى إذا كانوا يسمعونه . قال :

- لم ألق الأذى بأحد من قبل - قال هذا . لكن لم يتغير شىء .
كان لم يسمعه أى جرم من الأجرام ، لم تستدر الوجوه للنظر إليه .
استمروا على حالتهم السابقة كما لو كانوا منومين .

فهم حينئذ أنه لاداعى للاستطراد ، وعليه إرجاء الأمل إلى فرصة لاحقة ، ترك ذراعيه يتهدلان إلى جواره مرة أخرى واخترق البيوت الموجودة على مشارف القرية بين هؤلاء الرجال الأربعة المتشحين بسواد الليل .



- سيدى الكولونيل ، ها هو الرجل .

كانوا قد توقفوا أمام ثلثة الباب ، خلع قبعته ، احتراماً ، في انتظار خروج أحد ، لكن لم يخرج سوى الصوت :

- أى رجل ؟ - سألوا .

- رجل "بالودى بينادو" ، سيدى الكولونيل . الذى أرسلتنا لإحضاره .

- اسأله إذا كان قد قضى شطراً من حياته فى « أليما » - عاد الصوت ليقول من الداخل .

- أنت ، هل عشت فى أليما ؟ - كرر الجاويش ، الواقف قبالته ، السؤال .

- نعم . قل للكولونيل إننى من هناك ، وإننى عشت فيها حتى وقت قريب .

- اسأله إذا كان يعرف "جوادا لوبى تيريروس" .
- يسألك إذا كنت تعرف " جوادا لوبى تيريروس" . .
- "دون لوبى" ؟ نعم . أخبره أننى أعرفه . لقد مات .
- أعرف أنه مات - قال .

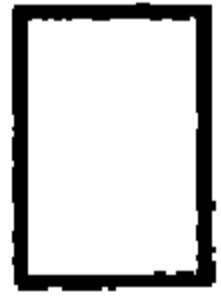
واصل الكلام وكأنه يتحدث مع آخر بالداخل ، على الجانب الآخر من حائط البوص :

« جواد لوبى تيريروس » كان أبى ، عندما كبرت وبحثت عنه أخبرونى أنه مات ، من الصعب أن تنمو وأنت تدرك أن الشيء الذى يمكن أن تشبت به جذورك قد مات . هذا ما حدث معنا .

علمت بعد ذلك أنهم قتلوه طعنًا بمنجل ، وغرزوا منخس الثور فى معدته . أخبرونى أنه ظل مفقودًا ما يزيد على اليومين ، وأنهم عندما عثروا عليه ملقى فى النهر كان مازال يحتضر ويوصى برعاية أسرته من بعده .

يبدو أن هذا بالإمكان نسيانه بمرور الزمن . حاول الواحد نسيانه . ما لا يمكن نسيانه هو معرفة أن الذى فعل هذا مازال ينعم بالحياة ، ويمنى روحه الفاسدة بوهم الحياة الأبدية . لا يمكن العفو عنه ، حتى ولو لم أكن أعرفه ، ومجرد علمى بمكانه يدفعنى للانتقام منه . ليس بمقدورى غض الطرف عن استمراره على قيد الحياة . إنه ما كان يستحق الولادة أصلاً .

- فى الخارج هنا ، سُمع بوضوح جميع ما قاله . أمر بعد ذلك :
- خذوه ، اربطوه لبعض الوقت حتى يتعذب ، ثم اعدموه .
 - انظر إلى ، أيها الكولونيل - طلب الرجل - . لم أعد أساوى شيئاً . سأموت عما قريب وحدى ، بداء الشيخوخة . لا تقتلنى . . .
 - أحملوه ! - عاد ليقول الصوت القادم من الداخل .
 - . . . لقد دفعت الثمن ، أيها الكولونيل . دفعته مرات عديدة . سلبونى كل شىء ، وعاقبونى بشتى الطرق . أمضيت أربعين عاماً مختبئاً كالمبوء ، وكل دقة من قلبى تصرخ فى على الدوام أننى هالك لامحالة . لا أستحق الموت هكذا ، دعنى على الأقل لعذاب الضمير وسخط الرب ، لا تقتلنى ، قل لهم يتركونى أعيش .
 - كان هناك ، وكأنهم أوسعوه ضرباً ، يخبط الأرض بقبعته ، صائحاً . وفى التو أمر الصوت القادم من الداخل :
 - اربطوه وأسكروه بشراب حتى لا يشعر بالم الرصاص .



والآن ، فى نهاية المطاف ، سكنت جوانحه ، كان هناك متزويماً أسفل الآلة الخشبية التى ربطوه فيها .

من قبل كان قد أتى ابنه " خوستينو " ، ذهب ثم عاد ، وها هو الآن قادم مرة أخرى .

حملة فوق الحمار . شد وثاقه وأحكم ربطه بالحبال حتى لا يسقط في الطريق ، وضع رأسه في كيس حتى لا يثير فزع من يراه ، وبعد أن اصطبر الحمار لحين فراغه من عمله ، انطلقوا بسرعة حتى يصلوا إلى « پالودى بينادو » فى وقت يسمح لهم بتجهيز مراسم الدفن .

- لن تتعرف عليك زوجة ابنك ولا أحفادك - كان يقول له . سينظرون إلى وجهك وينكرونك ، سيخيل إليهم أن ابن آوى قد افترسك ، عندما يطلعون على هذا الوجه الملىء بالثقوب من كثرة الأعباء التى أطلقوها عليك .

« لوبينا »

من بين تلال الجنوب العالية ، فإن أكمة « لوبينا » هي الأشد ارتفاعاً والأكثر تحجراً ، إنها موبوءة بتلك الحجارة التي يصنع منها الكلس وإن كان في « لوبينا » لا يصنع منها كلس ولا يُستفاد منها بشيء . إنهم يسمونها هناك « الحجارة الشرسة » ، كما يطلقون على التل الصاعد نحو « لوبينا » « الصخرة الصماء » . لقد تكفلت الرياح والشمس بتفتيتها بطريقة جعلت التربة هناك بيضاء لامعة كما لو كانت مخضلة بندى الصباح الباكر ؛ وهذا لمجرد القول لأن الليل - مثل النهار - في « لوبينا » شديد البرودة وقطرات الندى تتخثر في السماء قبل أن تفكر في السقوط على الأرض .

... والأرض شديد الارتفاع ، تتفصد من كل الجوانب في وهاد سحيقة ذات أعماق تتوارى بعيد ، يقول أهالي « لوبينا » إن النعاس يتصاعد من تلك الأغوار ؛ لكنني لم أشاهد سوى الريح ترتفع منها ، في حفيف وجلبة ، كما لو كانوا قد حشوها - هناك تحت - في أنابيب من الغاب .

ريح لاترك حتى للنمو عنب الذئب : تلك النباتات الضئيلة الحزينة التي يمكنها الحياة فقط لفترة قصيرة متمسحة بالأرض ومتشبثة بجرف الجبل . أحيانا يزدهر فقط نبات « الشيكالوته » * بشقائقه البيضاء ،

* « الشيكالوته » : نبات نرساق شوكية تستخدم عصارتها في التداوى من سم الأفاعى (المترجم)

مختبئًا بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظل . لكن « الشيكالوته »
سرعان ما تدبل ، وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية
محدثة حفيقا يماثل صوت السكين على حجر المسن .

- سترى عما قريب هذه الريح التي تهب على "لويينا" . إنها قائمة ،
يقولون لأنها تجر جر رماذا من البركان ؛ لكن الشيء المؤكد أنه هواء
أسود . عما قريب سترى ، إنه يمك بتلابيب الأشياء فى "لويينا"
كما لو كان بعضها ، وفى أيام كثيرة يحمل أسقف المنازل كما لو كان
يحمل قبعة من سعف ، تاركًا الحوائط جرداء بلا ساتر . وبعد ذلك
يخدش كما لو كانت له أظافر :

يسمعه الواحد - صباح مساء ، ساعة بعد أخرى ، دون هوادة -
وهو يخدش الحوائط ، ينتزع نتفا من التراب ، يحفر بمجرفته المدبية تحت
الأبواب حتى يحس به الواحد يزمر بداخله كما لو كان يحرك مفاصل
عظامنا ذاتها ، عما قريب سترى .

بقى ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتًا برهة ، محملاً فى
الفضاء .

كان يصل إليهما صوت احتكاك مياه النهر الغزيرة بأفرع النباتات
المتسلقة ؛ حفيف الهواء وهو يحرك بوداعة أوراق شجر اللوز ، وصياح
الأطفال وهم يلعبون فى رقعة الضوء الصغيرة المتسللة من الحانة .

كانت الأرضات * تطير وتصطدم بالمصباح البترولى ثم تسقط على
الأرض محترقة الأجنحة .

* الأرضات : نوع من الذباب يظهر بالليل ويستهو به الضوء . (المترجم) .

وفى الخارج كان الليل يواصل تقدمه .

- اسمع ، يا " كاميلو " ، أرسل إلينا بزجاجتين أخريين من الجعة !
- قال الرجل ، ثم أردف :

- شيء آخر ، ياسيدى ، لن تشاهد سماءً زرقاء فى "لوبينا" .
الأفق هناك حائل اللون ؛ مغطى دائماً ببقعة داكنة لاتنمحي ، الأكمة كلها
جرداء ، بلا شجرة ولانبتة خضراء تستريح عليها العين ؛ كل شيء
ملفوف بهواء داكن مشئوم . سترى هذا : تلك الهضاب المنظفة كما لو
كانت ميتة و "لوبينا" فى أعلاها تتوجهها بيوتها البيضاء مثل إكليل
ميت ..

اقتربت صيحات الأطفال حتى دلفت داخل الحانة . وهذا جعل
الرجل ينهض ويتجه نحو الباب ليقول لهم : « ابتعدوا ، لاتفسدوا علينا
الحديث ، استمروا فى اللعب ، لكن دون إحداث جلبة » .
بعد ذلك ، اتجه ثانية إلى المائدة ثم جلس وأضاف :

- نعم ، كما كنت أقول لك ، تمطر قليلاً هناك . فى منتصف العام
تصل بعض العواصف التى تمزق الأرض وتلهبها بسياطها وتجعل حجارتها
الكثيرة طافية فوق التراب . حيثُ ترى كيف تجرجر السحب بعضها
بعضاً ، كيف تتقل من أكمة إلى أخرى وهى تتأرجح مثل مثنات منتفخة
وتنطلق منها الرعود لتتهشم على أسنة الروابى ، لكنها بعد عشرة أيام أو
اثنى عشر يوماً تذهب ولاتعود إلا فى العام التالى ، وأحياناً لاتعود إلا بعد
بضعة أعوام .

« ... نعم ، تمطر قليلا - قليلا جداً أو لا شيء تقريباً ؛ ولذا فإن الأرض الجافة المتفضنة مثل جلد قديم عندما ينزل عليها المطر تمتلئ بالصدوع الحادة المدببة التي تنغرس في قدم من يسير عليها ، وهكذا حتى الأرض هناك تُنبِت الأشواك » .

أفرغ محتوى الزجاجاة فى جوفه ولم يترك غير فقاعات الزبد فى قاعها ثم أستأنف حديثه :

- مهما تباينت وجهات النظر فإنها تُجمع فى النهاية على أن « لوبينا » مكان يثير الأسى . أنت ذاهب إلى هناك وستدرك هذا . وأنا أقول إنه مكان يعيش فيه الحزن . لا تُعرف فيه الابتسامة ، وكأن وجوه سكانه جميعاً قد استُبدلت بألواح خشبية . وإذا أردت يمكنك رؤية هذا الحزن فى أى ساعة تريدها . الهواء الذى يهب هناك يحرك الحزن ويُقلِّبه لكنه لا يحمله أبداً . إنه قابع وكأنه مولود هناك . بإمكانك حتى لمسه والإحساس به ، لأنه دائماً فوق الواحد وحواليه ، ولأنه ضاغط مثل لزقة كبيرة على لُحمة القلب .

« ... يقول من يعيشون هناك إن البدر عندما يكتمل ترى الريح متجسدة تطوف بشوارع « لوبينا » وهى تجر جر وراءها عباءة سوداء ؛ لكن ما توصلت أنا لرؤيته دائماً ، عند ظهور القمر فى سماء « لوبينا » ، كان صورة للكآبة ... دائماً .

لكن ، تناول مشروبك ، أرى أنك لم تتذوق رشفة منه . تناوله . أو ربما لاتعجبك الجمعة فاترة ، لا يوجد غيرها هنا ، أعرف أنها هكذا

غير مستساغة الطعم مثل بول حمار . الواحد يعتاد هنا ، أما هناك
فأنا على يقين بأنك لاتستطيع الحصول على مثلها . عندما تذهب إلى
« لوبينا » ستستبد بك الغرابة . هناك ليس أمامك إلا شُرب
« العرقى » الذى يصنعه الأهالى من عشب يسمونه « أوخاس » وستُفرغ ما
فى جوفك بمجرد تناولك جرعات منه . من الأفضل أن تتناول مشروبك .
أنا أدرك ما أقوله لك » .

مازال يُسمع فى الخارج صوت النهر . حفيف الهواء . لعب
الأطفال . كان يبدو أن الليل لم يتقدم كثيراً .
أطلّ الرجل مرة أخرى من الباب ثم عاد .
الآن يقول :

- من الصعب الحكم على الأشياء من هنا ، من خلال استحضارها
فى الذاكرة التى لاتماثل الواقع بأى حال . يمكننى مواصلة الحديث
معك دون عناء ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بـ « لوبينا » .
هناك تركت الحياة . . . ذهبت إلى ذلك المكان مفعماً بالآمال وعدت
عجوزاً ومستهياً . والآن ، ذاهب أنت إلى هناك . . . حسناً . يبدو أننى
أتذكر البداية ، أضع نفسى مكانك وأفكر . . . انظر ، ياسيدى ،
عندما وصلت أول مرة إلى « لوبينا » . . . لكن أتسمح لى قبل مواصلة
الحديث بتناول مشروبك ؟ أرى أنك لاتلقى له بالاً ، وهو لى ذو نفع
كبير ، يخفف عنى . أحس معه وكأننى أغسل رأسى من الداخل بزيت
مخلوط بالكافور . . . حسناً ، أكمل لك : عندما وصلت أول مرة إلى «
لوبينا » فإن الحوذى الذى حملنا لم يتوقف هناك ولم يترك جياده لتستريح
بمجرد أن هبطنا ، استدار :

« - أنا عائد - قال لنا .

- انتظر ، ألن تترك جياذك تنعم ببعض الراحة ؟ إنهم فى غاية التعب

- سيزداد تعبهم هنا - رد علينا - . الأفضل أن أعود .

وذهب ، متدحرجاً بعربته من على منحدر « الصخرة الصماء » ،
هامزاً جياده وكأنه يبتعد عن مكان يعج بالشياطين .

ويقينا هناك ، أنا وامراتى وأولادى الثلاثة ، واقفين وسط الميدان
وجميع حاجياتنا بأيدينا . وسط ذلك المكان حيث لا يُسمع سوى صوت
الريح ... ميدان قفر ، دون نبتة واحدة تصدّ الهواء . ظللنا هناك وحيثذ
سألت زوجتى :

- « أجريينا » ، فى أى بلد نحن ؟

هزت كتفيها .

- حسناً ، اذهبى للبحث عن مكان نأكل فيه وننام الليلة . سنتظرك
هنا - قلت لها .

أمسكت بأصغر أولادها وذهبت .

لكنها لم تعد .

ومع الغروب ، عندما كانت أشعة الشمس تنسحب من فوق قمم
الروابى ، ذهبنا للبحث عنها ، مشينا فى حوارى « لوبينا » إلى أن
وجدناها فى الكنيسة : جالسة وحسب وسط تلك الكنيسة المقفرة ،
والطفل نائم فى حجرها .

- « أجريبينيا » ، ماذا تفعلين هنا ؟

- دخلت للصلاة - ردت علينا .

- لماذا ؟ - سألتها .

هزت كتفيها .

لم يكن هناك من يُصَلِّي له ، إنه عنبر خاو بلا أبواب ، ليس به سوى بعض المزاغل المفتوحة وسقف ملىء بالثقوب مثل غربال يتسلل منه الهواء .

- والمطعم ؟

- لا يوجد مطعم .

- والخان ؟

- لا يوجد خان .

- رأيت أحداً ؟ هل يعيش أحد هنا ؟ - سألتها .

- نعم ، أمامك هناك . . . انظر إليهن . أرى الكرات اللامعة لعيونهن . . . لكنهن لا يملكن طعاماً كي يقدمنه لنا . قلن لى دون أن يُخرجن رءوسهن أنه لا يوجد فى هذه القرية ما يؤكل . . . عندئذ دخلت هنا لأصلى وأنشد العون من الله .

- لماذا لم تعودى إلينا ؟ كنا نتظرك .

- دخلت هنا كي أصلى . ولم أنته من صلاتى إلى الآن .

- أى بلدة هذه ، يا « أجريينا » ؟

عاودت هز كتفيها .

فى تلك الليلة تهيأنا للنوم فى ركن من الكنيسة ، خلف المذبح المفكك . كانت الريح تصل إلينا ، بالرغم من أنها كانت أقل حدة ، كنا نسمعها وهى تدخل وتخرج من ثقب الأبواب ، ضاربة بأيديها الهوائية الصليبان المعلقة : صلبانا كبيرة مصنوعة من عصي صلبة معلقة على الحوائط بطول الكنيسة ومثبتة بأسلاك كانت تتر مع كل صفة ربح مثل اصطكاك الأسنان .

كان الأطفال يكون لأن الخوف كان يحول بينهم وبين النوم . وزوجتى كانت تحاول ضمهم بين ذراعيها ، معانقة حزمتهما من الأولاد . وأنا هناك ، لا أدري ماذا أفعل .

قبيل الفجر بقليل هدأت الريح . عادت بعد ذلك . مضت لحظة فى هذا البكور بقى فيها كل شىء ساكنا ، كما لو كانت السماء قد انطبقت على الأرض ، داعسة الجلبة بثقلها . . . كان يُسمع تنفس الأطفال وهم خالدون للراحة . كنت أسمع لهاث امرأتى إلى جوارى .

- ماذا يكون ؟ - سألتنى .

- ماذا يكون ماذا ؟ - رددت عليها .

- هذا ، الدوى هذا .

- إنه الصمت . نامى . استريحى ولو قليلا ، قريباً ستشرق

الشمس .

لكننى على التو سمعت أنا أيضاً . كان مثل خفقان أجنحة الخفافيش
فى الظلام ، قريباً منّا . لخفافيش ذات أجنحة كبيرة تلامس الأرض .
نهضت وسمع الخفقان أشد حدة ، كأن كومة الخفافيش قد فُزعت وطار
نحو ثقب الأبواب . مشيت عندئذ على أطراف أصابعى حتى هناك ،
أحسست أمامى تلك الهمهمة الخرساء .

توقفت لدى الباب ورأيتهن . رأيت نسوة « لوبينا » جميعهن
وجرارهن على أكتافهن ، بطرحاتهن المتدلّية من على رؤوسهن وصورهن
السوداء على خلفية الليل القاتمة .

- ماذا تردن ؟ - سألتهن . عن ماذا تبحثن فى هذه الساعة ؟

أجابت إحداهن :

- ذاهبات لإحضار الماء .

رأيتهن واقفات قبالتى ، ينظرن إلىّ . بعد ذلك ، وكأنهن أشباح ،
واصلن السير بجرارهن السوداء .

لا ، لن أنسى ما حييت أول ليلة أمضيتها فى « لوبينا » .

... ألا تعتقد أن هذا يستحق كأساً أخرى ؟ حتى ولو لم تكن لها

فائدة سوى إزالة الطعم الكريه للذكرى .



- يبدو أنك سألتنى عن عدد السنوات التى قضيتها فى « لوبينا » ،
حقا . . . ؟

بالفعل لا أدرى ، لقد فقدت الإحساس بالزمن منذ أن داهمتنى
الحمى ؛ لكن لا بد وأن يكون سرمدياً . . . فالوقت هناك طويل جداً . لا
أحد يحصى الساعات ولا أحد يهتم بتراكم السنين . النهار يبدأ وينتهى .
وبعده يجنّ الليل . النهار ثم الليل فقط إلى أن يأتى الموت ، أملهم
جميعاً .

« لا بد وأنك تعتقد أننى أعيد على مسامعك الكلام نفسه . بالفعل ،
ياسيدى . . . يبقى الواحد جالساً على عتبة الدار ، معلقاً بصره بشروق
الشمس وغروبها ، رافع الرأس ومطأطئها حتى تجف روافده وعندئذ يهدأ
كل شيء ، دون زمن ، كما لو كان يعيش فى الخلود دائماً . هذا ما يفعله
العجائز هناك .

لأنه فى « لوبينا » يعيش فقط - كما يُقال . . . - العجائز الخُلص ،
والذين لم يولدوا بعد . ونساء منهكات ، مرهونات بالضعف والنحافة .
الأطفال الذين وُلدوا هناك رحلوا . . . فور أن يُبصروا الفجر يغدون رجالاً
و كما يُقال : يرفسون على صوت المعاول الكبيرة حَلَمات صدور أمهاتهم
ويختفون من « لوبينا » . هذا هو الحال هناك .

فقط يبقى العجائز والنساء وحيدات ، أو مرتبطات بأزواج ، الله
وحده يعلم أين ذهبوا . . . يأتون أحياناً مثل العواصف التى حدثت عنها ،
تُسمع همهمة فى جميع أرجاء القرية حين يرجعون ومثل زمجرة عندما
يرحلون يتركون أجولة المؤن للعجائز ويغرسون أطفالاً آخرين

فى بطون زوجاتهم ، ولا أحد بعد ذلك يدرى عنهم شيئاً إلا العام
التالى ، وربما إلى الأبد . . . إنها العادة . يطلقون عليها هناك «القانون»
لكن هذا لا يغير من الأمر شيئاً . يمضى الأبناء حياتهم فى كد من أجل
الآباء مثلما عمل هؤلاء من أجل أسلافهم ولا أحد يدرى كم من الأجيال
أوفت بهذه السُّنة . . .

وفى هذه الأثناء ينتظر العجائز من أجلهم ومن أجل الموت ، جالسين
على عتبات دورهم وأذرعهم مَهْدَلَةٌ ، تحركهم فقط عودة الابن الغائب
. . . وحيدين ، فى تلك الوحدة فى «لوبينا» .

حاولت ذات يوم إقناعهم بالذهاب إلى مكان آخر ، أرضه جيدة .
« هيا من هنا ! - قلت لهم - . لن نعدم وسيلة للإقامة فى بقعة أخرى .
ستساعدنا الحكومة » .

سمعونى ، دون أن تطرف لهم عين . نظروا إلى من قيمان عيونهم
بنقطة الضوء التى تطل منها بعيداً .

- تقول إن الحكومة ستساعدنا ، يا حضرة المدرس ؟ أتعرف
الحكومة ؟

قلت لهم نعم .

- نحن أيضاً نعرفها . يالها من مصادفة ! ما لا نعرف عنه شيئاً هو أم
الحكومة . قلت لهم إنها الوطن . هزوا رؤوسهم قائلين لا . وضحكوا ،
كانت المرة الوحيدة التى رأيت فيها أهل «لوبينا» يضحكون . شحذوا
أسنانهم غير المتناسقة وقالى لى لا ، الحكومة ليس لها أم .

وعندهم حق ، تعرف ؟ هذا الرجل لا يعلم عنهم شيئاً إلا عندما قام أحد أبنائه بارتكاب أحد الأخطاء هناك تحت ، وساعتها قامت الحكومة بمطاردته حتى « لوبينا » وقتلته . غير هذا لا يحسون لها بوجود .

- تريد منا ترك « لوبينا » لأنه - حسب زعمك - يكفي ما تحملناه من جوع دون ذنب أو جريرة - قالوا لى - . لكن إذا نحن ذهبنا ، من سيحمل أمواتنا ؟ هم يعيشون هنا ولا يمكننا تركهم وحدهم .

وهم يواصلون هناك ، ستراهم عندما تذهب ، يمشفون ورق شجر الطلح الجاف ويستلعون لعابهم لخداع الجوع ، ستراهم يمشفون كالأشباح ، ملزوقين فى حوائط البيوت ، تجرحهم الريح تقريباً .

- ألا تسمعون هذه الريح ؟ - سألتهم - . ستقضى عليكم .

- لتستمر ما عليها أن تستمره . إنها إرادة الله - أجابونى - . اختفاء الهواء أسوأ وأفضل ، لو حدث هذا لاقتربت الشمس من « لوبينا » أكثر ومصت دماءنا والمياه القليلة التى تختزنها جلودنا . الريح تبعتها ، وهذا أفضل .

لم أقل لهم شيئاً بعدها ، خرجت من « لوبينا » ولم أعد ، ولا أفكر فى الرجوع .

.... لكن تأمل دوران عجلة الزمن . الآن ، أنت ذاهب إلى هناك خلال ساعات معدودة . لقد مضت خمسة عشر عاماً تقريباً على نفس ما قالوه لى :

« أنت ذاهب إلى « سان خوان لوبينا » . فى ذلك الحين كنت محتفظًا بقواى ، كنت محملاً بالأفكار . . . تعرف أنهم يلقنونا أفكارًا . والواحد منا يمضى بهذا الصلصال على رأسه ليصوغه ويشكله فى كل مكان . لكنه لم يفلح فى « لوبينا » - جربت وفشلت

« سان خوان لوبينا » . یرنّ فى الأذن كاسم عذب من الجنة ، لكنه هناك عذاب الجحيم . مكان محتضر ، ماتت فيه حتى الكلاب ، ولا يوجد من ينبج على الصمت ؛ لأنه بمجرد التعود على الريح العاصف التى تهب هناك ، لا يُسمع حيثئذ سوى الصمت القابع فى جميع الأرجاء الخاوية . وهذا يقضى على الواحد . انظر إلىّ . لقد تمكن منى . أنت ذاهب إلى هناك وستدرك سريعًا معنى ما أقول

ما رأيك لو طلبنا من السّاقى أن يعدّ لنا كمية من العرقى ؟ شرب الجعة يتطلب النهوض كثيرًا وهذا يقطع الحديث . « كاميلو » ، أحضر لنا بعض العرقى ! نعم ، كنت أقول لك



لكنه لم يقل شيئًا . ظل محملاً فى سطح المائدة حيث تتقلب الأرضات المحترقة الأجنحة مثل دود عار .

فى الخارج مازال يُسمع تقدم الليل ، برَبطة النهر فى سيقان النباتات
المتسلقة ، صياح الأطفال الذى ابتعد الآن . ومن سماء الباب الصغير
كانت تطلّ النجوم . الرجل الذى كان ينظر إلى الأرضيات مال على المائدة
واستغرق فى النوم .

الليلة التي تركوه فيها وحيداً

- لمَ كل هذا البطء ؟ - سأل « فيليثيانو رويلاس » من يسيران في المقدمة - . سننام على هذا الإيقاع . ألا يهكما الوصول بسرعة ؟
- سنصل فجر الغد - أجابه .

كان هذا آخر ماسمعه منهما . كلمتهما الأخيرة . لكن وقت تذكره لهذا لم يحن بعد ، مواعده اليوم التالي .

كان يمضى ثلاثتهم هناك ، ونظراتهم صوب الأرض ، محاولين الاستفادة مما يشي به ظلام الليل من وضوح .

« الظلمة هكذا أفضل ، حتى لا يرونا » . قالا هذا أيضاً ، قبل كلمتهما الأخيرة بقليل ، أو ربما الليلة السابقة . لم يعد يتذكر ، لأن النعاس كان قد طمس تفكيره .

الآن ، عند صعود الجبل ، شاهده قادماً من جديد ، أحس به عندما اقترب منه ، وطوقه وكأنه يبحث عن العضو الأشد تعباً إلى أن اعتلاه ، وجثم فوق ظهره المحمّل بالبنادق .

كان يمشى بسرعة ، بينما كانت الأرض منبسطة ، ولما أخذت في الارتفاع ، تأخر ، بدأت رأسه تتحرك ببطء ، أكثر بطئاً من مُعدّل تحوّل خطواته إلى القصر . تجاوزه الأخران ، هما الآن يسبقانه بينما يواصل مؤرجحاً رأسه النائم .

أخذ يتأخر . كان الطريق أمامه ، فى مستوى عينيه تقريباً ، وثقل
البنادق ، والنعاس المتسلق هناك فوق ظهره المنحنى .

سمع تلاشى خطواتهما : هذا الوقع الأجوف للأقدام الذى
ظل يسمعه لا أحد يدرى منذ متى ولا خلال كم من الليالى :
« من « لامجدلينا » إلى هناك ، الليلة الأولى ؛ بعد ذلك من هناك إلى
هنالك ، الليلة الثانية ؛ وهذه هى الثالثة . قد لاتكون كثيرة - قال
لنفسه - لو أننا نمنا أثناء النهار .

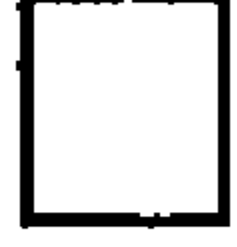
لكنهما رفضا : « يمكنهم إلقاء القبض علينا ونحن نائمون - قالوا -
هذا أسوأ » .

- الأسوأ لمن ؟

الآن ، يفك النوم وثاق لسانه ، يجعله يتكلم : « قلت لهما لاداعى
لمواصلة السير : نرتاح اليوم . وفى الغد سنسير بهمة ونشاط ، وسنجرى
إذا لزم الأمر » .

توقف وعيناه مطبقتان . قال : « ما الذى سنجنيه من وراء
الاستعجال ؟ يوم ؟ لا يستحق العناء ، بعد الأيام العديدة التى
أضعناها » . صاح على الفور : « أين أنتما ؟ » . وفيما يشبه الهمس :
« اذهب ، إذن ، اذهب » . تكور إلى جوار جذع شجرة . كانت الأرض
رطبة هناك وتحول العرق إلى ماء بارد ، لا بد أن هذا هو الجبل الذى حدثاه
عنه ، الجوفاتر هناك تحت ، وفى الأعلى هنا يتسلل البرد إلى ما تحت
عباءته : « كأنهم يخلعون قميصى ويدلكون جلدى بأكفهم المتجمدة » .

جلس فوق الطحالب ، فتح ذراعيه ، وكأنه يريد قياس حجم الليل ، لكن سياج الأشجار احتجزهما . استنشق هواءً معبقاً برائحة زيت التريتينا . دلف بنعومة في النوم ، وأحس بالخدر يستولى على جسده .



أيقظه برد السحر . رطوبة الندى .

فتح عينيه . شاهد ، فوق الأغصان المعتمة ، نجومًا تتألق في سماء وضّاحة « الليل في بدايته وستغرق الدنيا عما قريب في الظلام » ظن هذا ، ونام من جديد .

نهض عند سماعه صيحات ووقع مضغوط لحوافر على البحر الجاف للطريق . ضوء أصفر يمسك بتلابيب الأفق .

مرّ الحمّارون ، وهم ينظرون إليه . ألقوا عليه بالتحية : « صباح الخير » ؛ لكنه لم يرد .

تذكر ما كان عليه أن يفعله . لقد بزغ النهار ، وكان عليه أن يعبر الجبل أثناء الليل لتفادي البصّاصين . كانا قد أخبراه أن هذه المسافة من الطريق تتطلب حيلة أكثر وهي الأولى من غيرها بالتستّر .

أمسك بحزمة البنادق ورفعها فوق ظهره . ابتعد عن الطريق وتوغّل في الجبل ، باتجاه شروق الشمس . صعد وهبط ، متجاوزاً روابي وعرة .

بدا له وكأنه يسمع الحمّارين يُذنون بأوصافه : « رأينا هنا في
الأعلى ، أوصافه كذا وكذا ، ويحمل أسلحة كثيرة » .

ألقى بالبنادق على الأرض ، لينفك من قيوده ، أحس بالخفة حيث
وأطلق ساقيه للريح وكأنه يسابق الحمّارين في الهبوط .

كان عليه أن « يصعد نحو القمة ، يدور حول الهضبة ثم يهبط » .
هذا ما كان يفعله ، كان ينفذ تعليماتهما بالحرف الواحد ، بالرغم من
تأخرها عن الوقت المحدد .

وصل إلى حافة الوهاد ، شاهد السهل الرمادي الكبير هناك بعيداً .
« لا بد أنهما هناك ، يستريحان تحت أشعة الشمس ،
نخاليا البال » ، حسب هذا .

ألقى بنفسه ليهبط الوهدة ، يتدحرج ويجرى ليعود للتدحرج من
جديد .

« العون يا إلهي » ، كان يقول ، ومرات تدحرجه كانت تزيد على
مرات جريه كلما هبط .

بدا له وكأنه مازال يسمع الحمّارين عندما ألقوا عليه
بالتحية : « صباح الخير » ، وأحس بما كانت تنطوي عليه أعينهم من
خداع . سيبلغون أول بصّاص يقابلهم في الطريق : « رأينا في المكان
القلاني . ولن يتأخر في الوصول إليه » .

بقي ، فجأة ، بلا حراك .

« يا للمسيح ! » قال . كان على وشك الصياح : « يعيش المسيح رب الأرباب ! » ، لكنه كبح جماح نفسه ، سحب المسدس من الجراب ووضعه جاهزاً تحت قميصه ، وأحس به يداعب لحم جسده . أعطاه هذا شجاعة . اقترب من مخيمات « أجوا زركا » على أطراف أصابعه لي شاهد جلبة الجنود المتحلقين حول شعلات عظيمة من النيران .

وصل إلى سور الحظيرة واستطاع رؤيتهما بوضوح ؛ التعرف على وجهيهما : كانا هما ، عمه « تانيس » وعمه « ليرادو » . كان عماء معلقين من رقبتيهما في شجرة وسط الحظيرة ويتأرجحان ، بينما يطوف الجند حول ألسنة اللهب .

بدا أنهما لا يلقىان بالا للدخان المتصاعد من الشعلات ، والذي كان يغطي بسحبه أعينهما الزجاجية ويُعَفِّرُ وجهيهما .

لم يتحمل مواصلة النظر إليهما . زحف بجوار السور وانزوى في ركن ، مريحا جسده ، مع أنه كان يحس بدودة تتلوى في معدته .

من فوقه ، سمع شخصاً يقول :

- ماذا تنتظرون لإنزال هذين ؟

- ننتظر وصول الآخر . أخبرونا أنهم ثلاثة ، ولا بد أن يكونوا كذلك . يقولون إن الناقص فتى حديث السن ؛ ومهما كان عمره فلن يشفع له ، لأنه هو الذى نصب الكمين للنقيب « باراً » ورجاله وقضى عليهم ، لا بد وأن يقع بين أيدينا كما وقع هذان الآخران الأكبر سناً والأكثر خبرة .

وحيطة . يقول سيدى القائد إذا لم يظهر الثالث من الآن وحتى الصباح سنعلق بدلا منه أول شخص يمر بالموقع ، وبهذا الشكل نكون قد نفذنا الأوامر .

- ولماذا لانخرج للبحث عنه ؟ ولو من باب كسر حدة الملل الذى نشعر به .

- الأمر لا يحتاج . إنه آت لا ريب ، فهناك مجموعة تمشط جبل « كومنخا » وستنضم إليها جماعة الفيلىق الرابع عشر المدرية حديثاً على مثل هذه المهام . يستحسن تركهم ليمسحوا المنطقة العالية بكاملها ويشيروا الهلع بين قاطنيها .

- هذا شيء طيب ، لكن بشرط ألا يكلفوننا نحن أيضا بعد انتهاء هذا الأمر بالسير فى نفسه الاتجاه لعمل شيء مشابه .

انتظر « فيليشيانو رويلاس » حتى تهدأ نائرة المغص الذى يهتصر معدته .

استنشق بعد ذلك كمية كبيرة من الهواء وكأنه سيغطس فى الماء ، وبدأ ينحنى إلى أن انبطح على الأرض وأخذ يزحف ، دافعاً جسده بيديه .

عندما وصل إلى منحدر جدول الماء ، رفع رأسه وأطلق ساقيه للريح ، شاقاً لنفسه طريقاً بين نباتات الحلفاء ، لم ينظر خلفه ولم يتوقف عن الجرى حتى أحس بذوبان الجدول فى السهل .

توقف عندئذ . تنفس بعمق وفرائصه ترتعد .

نقطة العبور إلى الشمال

- أنا مسافر إلى مكان بعيد ، ياأبتاه . أتيت لأحيطك علماً بهذا .
- وإلى أين أنت ذاهب ؟
- إلى الشمال .
- ولماذا تذهب إلى هناك ؟ أليس لك عمل هنا ؟ ألا تعمل في تجارة الخنازير ؟
- كنت . أما الآن فلا ، الأسبوع الماضي لم نجد ما نشترى به طعاماً والأسبوع الذى قبله أكلنا سلقاً فقط . الجوع منتشر انتشار النار فى الهشيم ، ياأبتاه ؛ لاتصلك رائحته لأنك تعيش فى بحبوحة .
- ماذا تعنى ؟
- أقصد أن الجوع فى كل مكان ، وأنت لاتحس به . تبيع أسلحة وذخيرة وباروداً وبأثمانها تقضى حوائجك وزيادة . ومادامت الحروب والنزاعات لاتنتهى سيظل المال ينهمر عليك كالمنى ؛ لكن حالتى مختلفة ، ياأبتاه . لم يعد أحد يقبل على تربية الخنازير فى وقتنا الراهن . وإذا ربّاهم تأكلها أنت وأمثالك ، وإذا باعها فبأسعار مرتفعة ، وفوق هذا وذاك لم يعد المال اللازم لشرائها متوافراً . تجارة الخنازير عفى عليها الزمن ، ياأبتاه .
- وماذا ستفعل فى الشمال ، بحق الشياطين ؟

- أجمع المال ، ألم تر كيف عاد « الكارمیلو » غنياً ، لقد أحضر حتى حاكيا (جرامافون) ويتقاضى على كل رأس خمسة مليمات مقابل سماع موسيقاه . يذيع فيه كل ألوان الموسيقى من أول الرقصات وحتى الأغاني الحزينة لتلك المغنية التي يسمونها « لا أنديرسون » ؛ كله بتعريفه موحدة ، والناس يتزاحمون في صفوف من أجل السماع وليعمروا جيوبه بوافر الأموال . وكما ترى ؛ فليس على أكثر من الذهب والعودة ، لهذا حزمت أمرى وقررت السفر .

- وأين ستترك زوجتك وأولادك ؟

- جئت إليك من أجل هذا ، لكى تتولى رعايتهم .

- أنتظنى مرضعتك ؟ إذا ذهبت فأمرك وأمرهم على الله ، لا أطيق الآن تربية الأطفال ، لقد أدت ما على وزيادة بتربيتك أنت وأختك ، عليها الرحمة . من اليوم فصاعداً لا أريد تحمل أدنى مسئولية ، وكما يقول المثل : « إذا كان الجرس لا يدق فلأنه يخلو من المدقة » .

- لا أدرى ماذا أقول ، ياأبتاه ، لقد حيرتنى . ماذا استفدت من تربيتك لى ؟ أعمالا شاقة متواصلة ، لقد تركتنى وشأنى بمجرد أن تفتحت عيناي على هذا العالم . لم تعلمنى حتى صناعة السلاح ، كما لو كنت تخشى منافستى لك . ألبستنى قماطا وإزارا وألقت بى فى عرض الطريق لكى أتعلم العيش من كدى ، والآن تردننى من بيتك خاوى الوفاض . والنتيجة : أننا هالكون لامحالة من الجوع ، أحفادك وابنك هذا وزوجته ، أى كل سلالتك ، على وشك لفظ الأنفاس جوعاً ، أعتقد أن هذا عدل أو مشروع ؟

- وما علاقتى أنا بكل هذا ؟ لماذا تزوجت ؟ لقد تركت البيت دون أن تفكر فى استئذانى .

- فعلت هذا لنفورك المستمر من « لاترانسييتو » . كنت تسيء معاملتها دائماً كلما أحضرتها ، ألا تذكر أنك لم تكلف حتى خاطرِك برؤيتها عندما جاءت أول مرة : « هاهى ، يا أبى ، الفتاة التى أنوى الزواج بها » . عندما أخذت تتكلم بالشعر وقلت إنك تعرفها بما فيها الكفاية ، كما لو كانت إحدى الساقطات . وتفوهت بكبة من الأشياء لم أفهمها ، لهذا السبب لم أحضرها ثانية . لا أطلب منك الآن سوى رعايتك لها لأن قرار سفرى لارجعة فيه ، لا يوجد حالياً أى عمل هنا ، ولا حتى أمل فيه .

- هذا محض افتراء ، بالعمل يجد الإنسان ما يطعمه ، وبالطعام يعيش . لقد بلغت من الكبر عتياً ومع هذا لا أشكو . ومنذ أن كنت شاباً يافعاً لم يرد على لسانى مثل هذا الكلام ؛ كان معى ليس فقط ما يكفينى بل ما يغطى نفقات مغامراتى النسائية التى لا تحصى . عائد العمل يغطى جميع المتطلبات بما فيها جميع الغرائز الجسدية . كل ما فى الأمر أنك عبيط . ولا تقل لى إننى علمتك هذا أيضاً .

- لكسك والدى . وكان الأجدربك أن تضعنى على الطريق الصحيح ، لا أن تطلقنى كجواد جامح بين حقول الذرة .

- كنت فارع الطول يوم أن تركت البيت ، أكنت تريد منى تحمل مسئوليتك إلى الأبد ؟

السحالي وحدها هي التي ترتبط بمخابئها حتى ساعة موتها . أعترف أن الأمور سارت معك على ما يرام وأنتك تزوجت وأنجبت أولادًا ، كثيرون غيرك لم يعرفوا هذا طول حياتهم ، مروا على الدنيا مرور الكرام مثل مياه الأنهار ، دون أن ينعموا بمشرب أو بمأكل .

- لقد ضننت علىّ حتى بتعلم القريض الذي تبرع فيه ، ولو علمتني لكنت كسبت على الأقل شيئًا من وراء تسلية الناس به كما تفعل . قلت لى يوم طلبت منك ذلك : « عليك بتجارة البيض ، ودع نظم القصائد لغيرك » . وبدأت بتجارة البيض لأتحول إلى الدجاج ثم إلى تجارة الخنازير التي تمتعت في كنفها بالسُّرِّ ، كما يقولون . لكن المال ينفد ؛ يأتي الأولاد ويرتشفونه كالماء لكي لايبقى منه شيء لمزاولة المهنة . في هذه الأيام لا يوجد من يضع ثقته في رجل مفلس . أخبرتك الآن أن السَّلَق الذي لم نجد غيره طعامًا قبل أسبوعين تعذر علينا الحصول عليه الأسبوع الماضي . لهذا أنا ذاهب . قد لاتصدق ، ياأبى ، لو أخبرتك أنني ذاهب والحزن يهتصرني لأننى أحب أولادى ولا أرغب فى فراقهم ، على خلاف ما فعلت أنت بفلذتى كبذك عندما ألقيت بهما فى عرض الطريق بمجرد أن شبَّا عن الطَّوق .

- يابنى ، ضع ما أقوله لك الآن حلقة فى أذنك : فى عش الدواجن الجديد ، لابد وأن تحتفظ ببيضة . عندما ترفرف عليك الشيهخوخة بجناحيها ستتعلم كيف تعيش ، ستدرك كيف يفارقك الأبناء ، دون أن يشكروا لك صنيعًا ؛ يطمرون حتى ذكراك .

- هذا بيت خالص من الشعر .
- سيكون بالفعل ، لكنها الحقيقة .
- أنا لم أنساك ، كما ترى .
- جئتنى عندما دفعتك الحاجة . لو كانت أمورك مستقرة ما تذكرتنى . أحسست بالوحدة منذ وفاة أمك ، ولما ماتت أختك أصبحت وحدتى أشد وطأة ؛ وعندما تركتنى أيقنت أننى سأظل وحيداً بقية عمري . وتأتى الآن قاصداً إثارة عواطفى وتحريكها ثانية ؛ لكن أتعرف أن بعث ميت أصعب بكثير من بث حياة جديدة ؟ تعلم شيئاً . غشيان الطرق يعلم الكثير . ما حَكَ جلدك مثل ظفرك ، وهذا ما يجب أن تفعله .
- أفهم من هذا أنك تتهرب من رعايتهم ؟
- اتركهم هنالك ، لا أحد يموت جوعاً .
- أخبرنى صراحة أنك قبلت الوصية ، لا أريد الذهاب قبل التأكد .
- كم عددهم ؟
- لايزيدون عن ثلاثة أولاد وبتنين بالإضافة إلى زوجة الابن التى تسترد شبابها من جديد .
- تقصد أنها تسترد سلوكياتها المعيبة .
- كنت زوجها الأول . كانت عذراء . إنها طيبة . لاتستمر فى جفائك لها ، يا أبى .

- ومتي ستعود ؟

- سريعاً ، يا أبى . سأعود بمجرد تحقيق الهدف الذى أنا ذاهب من أجله ، سأعطيك ضعف ما ستنفقه عليهم . قدم لهم كل ما يحتاجونه من طعام ، هذا كل ما أوصيك به .

من النجوع والعزب يتجه الناس إلى القرى ، ويذهب أهل القرى إلى المدن . وفى المدن يضيعون ؛ يذوبون بين طوفان البشر . « ألا تعرف مكاناً به عمل ؟ » . « نعم ، عليك بالذهاب إلى مدينة « خواريث » . بإمكانى تسهيل سفرك إلى هناك وتقويتك من نقطة المراقبة نظير مائتى بيزو . ابحث عن فلان الفلانى وأخبره أنك من طرفى . إياك وإفشاء هذا السر لأحد . »

« حسناً ، ياسيدى ، ستكون النقود عندك غداً » .

- اسمع ، يقولون إنهم يحتاجون عمالاً فى « نونو ألكو » لتفريغ القطارات .

- ويدفعون ؟

- بالطبع ، الكيلة بقرشين .

- صحيح ؟ أفرغت أمس حوالى طن من المسوز بالقرب من « لاميرثى » وأعطونى عدة أصابع أكلتها . أتضح فى النهاية أنه سُرق منهم ولم يدفعوا لى شيئاً ؛ حتى أنهم اتهمونى وسلمونى للشرطة .

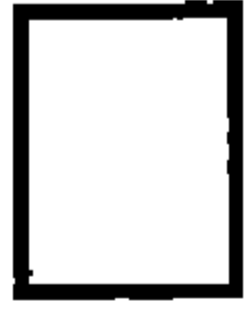
- العمل فى السكة الحديد يتسم بالجدية . إنه شىء آخر . إذا كنت مستعداً فعليك به .

- ولمَ لا !

أنزلنا بضائع من القطارات من شروق الشمس إلى غروبها وفاض من
البضائع ما يكفي لعمل يوم آخر . أعطونا أجرنا . عددت النقود : أربعاً
وستون پيزو . آه لو تسير كل الأيام على هذا المنوال !

- سيدى ، أحضرت لك المائتى پيزو .

- حسناً . سأعطيك ورقة لزميلنا فى مدينة « خواريث » . احتفظ
بها ولا تضعها ، سيساعدك فى عبور الحدود ولن يتركك إلا وعقد العمل
فى يديك . فى الورقة عنوانه وتليفونه لكى تتصل به فى أقرب فرصة .
لا ، لن تذهب الى « تكساس » . أسمعت عن مدينة « أوريجون » ؟ .
حسناً ، قل له إنك تريد الذهاب إلى « أوريجون » . لجمع التفاح ، هذا
أنسب لك . ابتعد عن جنى القطن . (باين عليك راجل نبيه) . قدّم
نفسك لـ « فرناندث » . لاتعرفه ؟ . حسناً ، اسأل عنه . وإذا كنت
لاتريد جمع التفاح سيجعلك تعمل فى تثبيت فلنكات قضبان السكك
الحديدية . العمل الأخير عايدة أكبر ومدته أطول ، ستعود محملاً
بالدولارات . لاتضع الكارت .



- أجهزوا علينا ، يا أبى .

- على من ؟

- علينا . أطلقوا علينا الرصاص ، أثناء عبور النهر ، ومزقونا
أرباً .

- أين ؟

- هناك ، عند نقطة العبور إلى الشمال ، أضواء علينا الكشافات
بينما كنا نتجاوز النهر .

- لماذا ؟

- لا أدري ، يا أبتاه . أتذكر « إستانيسلاو » هو الذى أوعز إلى
بالسفر إلى هناك . حدثنى عن خبرته الطويلة بمسألة السفر وعن إدراكه
لكل دقائقها ، وذهبنا أولاً إلى « مكسيكو » ومنها إلى نقطة العبور . كنا
نعبّر النهر عندما حصدونا ببنادق « الموزر » . عدت أدراجى لأنه توسل
إلى قائلا : « أخرجنى من هنا ، يا ابن بلدى ، لاتركنى » . عندما طلب
منى هذا كان مستلقياً على قفاه وجسده أشبه بمصفاة من كثرة الرصاص
الذى اخترقه . سحبته ، جرجرة ، قدر استطاعتى وابتعدت به عن ضوء
الكشافات التى كانت تبحث عنا . قلت له : « أنت حى » ، فأجابنى :
« أخرجنى من هنا ، يا ابن بلدى » . قال لى بعد ذلك : « لقد تمكنا
منى » . كنت مصاباً بطلق نارى فى إحدى ذراعى وعظمة كوعى
ليست فى مكانها ، لهذا مددت له يدى السليمة وقلت له : « تشبث بها
جيداً » .

مات منى على ضفة النهر جهتنا ، قبالة أنوار قرية تقع داخل حدودنا وتسمى « أوخيناجا » ، بين نباتات الأسل التي لاتزال تمشط النهر وكان شيئاً لم يكن .

رفعته على الشاطئ وسألته : أما زلت حياً ؟ . لم يجب . أمضيت بقية الليل إلى جواره أحاول بشتى الطرق إعادة الحياة إلى « الإستانسيلو » ؛ دلكت جميع أطرافه ونفخت في رثيه لكي يلهث ، لكنه لم ينبس ببنت شفة . اقترب منى آخر النهار أحد موظفي مصلحة الهجرة والسفر .

- أنت ! ماذا تفعل هنا ؟

- أرعى هذا الميت .

- أنت الذى قتلته ؟

- لا ، ياسيدى الجاويش - رددت عليه .

- لا أمتّ بصلة لأى جاويش . من قتله إذن ؟

عندما رأيته مرتدياً البدلة الرسمية وعليها النور تلك حسبته من الجيش ، ولم يتطرق إلى الشك فى هذا عندما شاهدت الطبنجة كبيرة الحجم متدلّية من وسطه .

كرر سؤاله : « من قتله ، إذن ؟ » .

وظل يكرر ويكرر إلى أن أمسك بشعر رأسى وأخذ يهزنى بعنف وأنا لاحول لى ولاقوة ، لا أستطيع الدفاع عن نفسى للذراعى المصاب .

قلت له : - لاتضربنى ، كوعى مهشم .

توقف حينئذ عن توجيه الضربات لى .

- ماذا حدث ؟ ، تكلم .

أضواء علينا الكشافات بالليل . كنا ذاهبين ونشوة العبور إلى جانب الآخر من الحدود تسكرنا وعندما وصلنا إلى عرض النهر انتهمر الرصاص علينا كالطر . لم نستطع تفاديه ، أنا وهو الوحيدان اللذان استطاعا الخروج ، وإن كان الإنصاف يقتضى القول بأن واحدا فقط هو الذى أفلت لأن الثانى ، كما ترى ، قضى نحبه .

- ومن هم الذين أطلقوا عليكم الرصاص .

- إننا حتى لم نرهم . غمرتنا أضواء كشافاتهم وانهالو علينا ، لم نسمع سوى دوى طلقات بنادقهم ، إلى أن أحسست بكوعى ينفجر وسمعت هذا يستغيث بى : « أخرجنى من الماء ، يابن بلدى » . مع أن رؤيتهم لم تكن ستفنعنا بشيء .

- لابدو أنهم كانوا من « الأباتشى » .

- أى « أباتشى » ؟

- جنس من الهنود ، يعيشون على الجانب الآخر .

- أليس أهالى « تكساس » هم الذين يعيشون على الجانب

الآخر ؟

- نعم ، لكنها تعجّ بالأباتشى ، يبدو أنك لاتعرف شيئًا . سأتركك وأذهب إلى « أو خيناجا » لأبلغهم حتى يرسلوا من يحمل صديقك وعليك بالاستعداد للعودة إلى بلدك . من أين أنت ؟ ما كان عليك مغادرتها . معك نقود ؟

- أخذت ما كان فى جيب الميت من نقود قليلة ، لعلها تعيننى على العودة .

- لدى هنا مخصصات لرعاية المغتربين . سأعطيك ثمن التذكرة ؛ ولو لمحتك ثانية هنا سأجعلك تعض أنامل الندم ، لا يروق لى رؤية وجه إنسان مرتين . هيا ، اذهب .

- وأتيت ، ياأبتاه ، لأقص عليك ما جرى .

- حدث لك هذا بسبب بلاهتك وغبائك ، وعندما تذهب إلى بيتك ستُصدم بعاقبة إصرارك على السفر .

- هل حدث ما يعكر الصّفوّ ؟ مات أحد الأولاد ؟

- « لاترانسيتو » هربت مع بغّال . كنت تتغنى بطبيعتها ، أليس كذلك ؟ أولادك نائمون بالداخل . أما أنت فعليك بالبحث عن مكان تُمضى فيه الليل ، لأننى بعث دارك لكى أسدد نفقات أسرتك ، ومازلت مدينًا لى بثلاثين « پيزو » قيمة العقود .

- حسنًا ، لن أنكر عليك ما فعلت ، ياأبى . ربما أجد فى الغد عملا هنا لكى أسدد ما علىّ من دين لك ، فى أى اتجاه ذهبت « لاترانسيتو » مع البغّال ؟

- من هذا الاتجاه . لم أدقق النظر .
- لن أغيب طويلا ، أنا ذاهب للبحث عنها .
- أية وجهة تأخذ ؟
- التي أخبرتنى أنها هربت منها .

ألا تذكر!

(فاكر) « أوربانو جومث » ، ابن « دون أوربانو » ،
حفيد « ديماس » ، ذلك الذى كان يقود الفرقة الغنائية للكنيسة ومات عام
الطاعون أثناء إنشاده « دمدم أيها الشيطان الملعون » . مضى زمن طويل ،
خمسة عشر عامًا تقريبًا ، لكن لا بد وأنت ما زلت تتذكره . كنا نسميه
« الجد » لأن ابنه الثانى ، « فيدنيو جومث » ، كانت له ابنتان لعوبتان :
واحدة سمراء وضامرة مثل شجرة السنديان كانوا يلقبونها « الخنساء »
نكاية فيها ، والأخرى متينة البنيان وطويلة ولون عينيها أزرق فاتح ، ولذا
كان يُشاع أنها ليست ابنته ومن علاماتها المميزة مرضها بالفُواق (الزُّغْطَة) .
تتذكر الجلبة التى كانت تثيرها أثناء القدّاس عندما كانت تعثرها نوبة
الفُواق ، وكان يبدو أنها تبكى وتضحك فى آن واحد ، وكانوا يخرجونها
من الكنيسة ويعطونها ماءً مُحلّى بالسكر لكى تهدأ . تزوجت فى نهاية
المطاف من « لوثيو تشيكو » ، صاحب معمل الخمر الذى ابتاعه من «
ليبرادو » الذى كان يسكن عند أعالي النهر حيث توجد معصرة بذور الكتّان
التى يمتلكها آل « تيودولوس » .

تتذكر أن أمه كانوا يلقبونها بـ « الباذنجانة » بسبب تورطها المستمر
وأنها كانت تخرج من كل ورطة بصبى . يُقال إنها كانت غنية ، لكنها
بددت أموالها فى الإنفاق على مراسم الجنازات العديدة ، فقد مات جميع
أولادها وهم صغار وكانت تُحرص دائماً على تشييعهم إلى مثوانهم الأخير

وسط الموسيقى وجوقات القساوسة التي تتلو جميع الأوراد الدينية من أول « المجد في الأعلى » إلى تلك الأنشودة التي يقول مطلعها : « ها أنذا أرسل إليك ، أيها الرب ، بملاك آخر » . لقد تحولت من الغنى إلى الفقر بسبب ارتفاع تكاليف الدفن ، ولأنها كانت تُقدّم القرفة وغيرها من المشروبات للمعزين والنادبات . لم يعيش لها سوى اثنين : « الأوربانو » و « لاناتاليا » ، اللذين وكذا فقيرين ولم تنعم أمهما برؤيتهما يترعرعان لأنها ماتت أثناء آخر ولادة لها . قد يكون كبر سنها هو السبب لأنها كانت على مشارف الخمسين وقتها .

لا بد وأنك تعرفها ، فقد كانت عدوانية ولا تملّ من الدخول في مشاحنات مع الباعة في السوق مُدّعية أنهم يريدون بيع الطماطم لها بسعر مرتفع ، كانت تصرخ بأعلى صوتها وتقول إنهم يسرقونها . بعد أن افتقرت ، كانت تُشاهد وهي تحوم حول مقالب القمامة لجمع أعناق البصل وقرون الفاصوليا وهشم القصب « لتُسكّر بها فاه ولديها » ، لم يتبق لها سوى اثنين ، كما سبق وأخبرتكم ، الوحيدان اللذان خرجت بهما من الدنيا . انقطعت أخبارها بعد ذلك .

« أوربانو جومث » هذا كان في عمرنا تقريباً ، يكبرنا فقط ببضعة أشهر ، ويجيد لعبة الحجلة والرمي بالسهم . تتذكر أنه كان يبيع لنا الزهور البرية قريبة الشبه بالقرنفل وكنا نشتريها منه بالرغم من أن قطفها من التلّ كان الأسهل لنا . كان يبيع لنا ثمرات المانجو التي يسرقها من الأشجار الموجودة في فناء المدرسة ، ويبيع لنا بخمسة ملليمات البرتقال والفلفل الحار الذي اشتراهما من على البوابة بمليمين فقط . كانت مخلاته

كالمستودع ، تعج بأشياء كثيرة تافهة : كرات زجاجية ، أبواق ، صُفارات ،
وجعارين خضراء من تلك التي تُربط إحدى قدميها بخيط حتى لا تطير
بعيداً .

كان يبيع لنا كل شيء ، ألا تذكر ! .

كان صهر « ناتشيتو ريبيرو » ، ذلك الذى أصيب بالعتة بعد أيام
قليلة من زواجه واضطرت امرأته ، « إيناس » ، لنُصَب كَشك فى الطريق
العام تبيع فيه مشروب العرقى لكى تُنفق على نفسها ، بينما كان
« ناتشيتو » يتعیش من عزف الأغانى العاطفية فى دكان حلاقة « دون
ريفونخيو » على آله المندولين التى استعارها .

كنا نذهب مع « أوربانو » لرؤية أخته ولتناول مشروب العرقى الذى
لم نسدد ثمنه أبداً لأن أيدينا لم تعرف شكل النقود . بقى بعد ذلك بلا
أصدقاء ؛ لأننا جميعاً كنا نعطيه ظهورنا بمجرد أن نراه حتى لا يطالبنا بما
علينا لأخته ، ربما انحدرت أخلاقه إلى السوء من جرأ تلك الظروف ،
ويحتمل أيضاً أنه كان مولوداً بها .

طردوه من المدرسة قبل أن يكمل الصف الخامس الابتدائى لأنهم
ضبطوه وهو يمارس مع ابنة عمه ، « الخنساء » ، لعبة العريس والعروسة
فى بئر جاف خلف دورة المياه ، ويقصد تبكيته والسخرية منه ، أمسكوه
من أذنه وعرضوه على البنين والبنات المصطفين فى القناء ثم أخرجوه من
الباب الرئيسى للمدرسة وسط ضحكات الجميع . اخترق الصفوف رافعاً
هامته ومتوعداً الحشد بقبضة يده وكأنه يقول لهم : « ستدفعون ثمن هذا
غالياً » .

فعلوا الشيء نفسه مع « الخنساء » التي خرجت وصدورها يغلى
كالمرجل ونظرتها تخدش قوالب الآجر ، وعندما وصلت إلى الباب أخذت
تصرخ صريخاً ظل يُسمع طيلة المساء وكأنه عواء ذئب .

كل ما فى الأمر أن ذاكرتك تخونك أكثر مما ينبغى وتجعلك
تنسى .

يقولون إن أبها « فيدنتيو » ، صاحب المعصرة ، ضربها علقه ساخنة
كادت تصيبها بالشلل ، وإنه ترك القرية حسرة وكمداً .

الشيء المؤكد أنه اختفى بعدها ولم نعد لرؤيته إلا عندما أصبح رجل
شرطة وظهر من جديد هنا لأداء مهام وظيفته . لم يكن يفارق مقعده فى
ميدان السلاح وبنديته بين ساقيه يتطلع إلى الناس بمقت ونفور شديدين ،
لم يكن يتحدث أو يوجه التحية لأحد وإذا نظر إليه شخص يتجاهله وكأنه
لا يعرف الناس .

كان حينذاك عندما قتل صهره ، عازف المندولين .
سولت لـ « ناتشيتو » نفسه بالذهاب إليه ليلاً ، قبل الثامنة بقليل ، أثناء
دقّ الأجراس لنوبة « صعود الأرواح » ، لكى يعزف له إحدى أغاني
المساء . سُمعت الصرخات حينئذ ، وعلى إثرها ترك المُصلّون الكنيسة
وهرولوا إلى هناك حيث شاهدوهما « ناتشيتو » مستلقياً على الأرض يدافع
عن نفسه بآله المندولين و « الأوربانو » يسدد له بكعب البندقية الموزر
ضربات متتالية دون أن يتبّه ، من شدة الغضب ، لصرخات الناس وكأنه
كلب مسعور .

إلى أن انثل من بين الجموع رجل غريب ، ليس من هنا ، وهجم عليه وانتزع منه البندقية وضربه بها على ظهره فسقط ممدداً على مقعد الحديقة .

تركوه فى مكانه طيلة الليل ، لكنه غادر البلدة فى الصباح الباكر . يقولون إنه ذهب إلى الكنيسة قبل رحيله وطلب المغفرة من القسيس لكنه رفض أن يباركه .

قبضوا عليه فى الطريق . كان يعرج ، ولما جلس ليستريح وصلوا إليه . لم يقاوم . يقولون إنه هو الذى قام بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التى حازت إعجابه لكى يعلقوه عليها . لابد وأنك تتذكره ، كنا زميليه فى المدرسة وعرفته مثلى .

أتسمع نباح الكلاب ؟

- أنت ، يامن تجشم هناك فوق ، « إجنائيو » ، أخبرنى إذا كنت تسمع شيئاً أو تلمح ضوءاً من أية جهة .
- لا يرى شيء .
- لا بد أن نكون قريبين .
- نعم ، لكن لا يسمع شيء .
- انظر جيداً .
- لا يرى شيء .
- مسكين ، يا « إجنائيو » .

استمر الخيال الطويل والأسود للرجلين يتحرك صعوداً وهبوطاً ، يتسلق الحجارة ، يصغر ويكبر تبعاً لتقدمه على شاطئ النهر الصغير . كان خيالاً واحداً ، يتأرجح . كان القمر يتصاعد من الأرض مثل كتلة مستديرة من اللهب .

- المفروض أن نكون قد وصلنا الآن إلى تلك القرية ، يا « إجنائيو » . أنت يا من لا يعوق أذنيك عائق هناك فوق ، أرهف السمع ، وانظر إذا كان يصل إليك نباح الكلاب . تذكر أنهم أخبرونا بأن « تونايا » تقع خلف الجبل بقليل ، وها نحن أولاء قد تركنا الجبل منذ ساعات .

لاتنسَ ، يا « أجناثيو » .

- لم أنسَ ، لكننى لا أرى أثراً لشيء .

- التعب يقصم ظهري .

- أنزلنى .

نكص العجوز على عقبه حتى أسند عجزه على الحائط الكبير للوهدة ، وهناك عدل حمولته دون أن يلقيها على الأرض ، لم يفكر فى الجلوس رغم ساقية الخائرتين ، لأنه لو فعل لما استطاع من جديد رفع جسد ابنه الذى عاونه آخرون ، قبل ساعات ، فى تحميله على ظهره . ومن وقتها وهو يسير به هكذا .

- كيف حالك ؟

- فى غاية السوء .

كان يتحدث قليلا . كل مرة أقل من سابقتها . تمر عليه أوقات يبدو فيها نائماً ، وأوقات أخرى يتملكه البرد . كان يرتجف . كان يستدل على الوقت الذى تملك فيه ابنه القشعريرة من هزاته له ومن رجليه الملتصقتين بجنبه كالمهسامين ، وأيضاً من يديه الملفوفتين حول عنقه عندما تحركان رأسه حركات توقعية كما لو كانت صنوج دف .

كان يجرّ على أسنانه حتى لا يعض لسانه وعندما يذهب هذا عن ابنه

يسأله :

- تؤلك جراحك كثيراً ؟

- شيء من هذا القبيل - كان يجيب .

قال له في البداية : « أنزلنى هنا اتركنى هنا اذهب وحدك . سألحق بك غداً أو عندما أسترده بعض عافيتى » . طلب منه هذا ما يقرب من الخمسين مرة ، أما الآن فلم يعد يقوى حتى على مجرد طلب هذا .

كان القمر هنالك . فى مواجهتهما ، قمر كبير ملون يغمر عيونهما بالضوء ويبالغ فى مطّ وتساويد خيالهما على الأرض .

- لا أرى موضع قدمى ولا أدرى إلى أين ياخذانى - قال العجوز .
لم يجبه أحد .

الآخر كان معتلياً هناك فوق ، ملفوفاً كله بنور القمر ، بوجه ممتقع ، يخلو من قطرة دم ، عاكساً ضوءاً معتماً . وهو هنا تحت .
- ألم تسمعنى ، يا « إجنائيو » ؟ أقول لك إننى لا أرى أمامى .
ظل الآخر صامتاً .

واصل سيره متعثراً ، كان ينكمش ثم يفرد قامته ليعود للتعثر من جديد .

- ليس هذا هو الطريق . أخبرونا أن « تونايا » على مرمى حجر بعد الجبل ، وها نحن أولاء قد تركناه وراء ظهرينا ولم تظهر « تونايا » ولا يُسمع صوت يُستدل به على قربها . لماذا تستكف عن إخبارى بما ترى ، أنت يا من تجثم هناك فوق ، « إجنائيو » ؟

- أنزلنى ، يا أبى .

- أتشعر بألم ؟

- نعم .

- سأوصلك إلى « تونايا » مهما بُعدت الشُّقة . سأجد هناك من يعتنى بك . يقولون إن بها طبيياً ، وسأحملك إليه ، احتملتك ساعات لآتى بك ولن أتركك طريحاً هنا لينال منك أعداؤك .

ترنح قليلا . خطا خطوتين أو ثلاثة يُمنه ويسارا ثم نصب قامته من جديد .

- سأحملك إلى « تونايا » .

- أنزلنى .

خرج صوته ضعيفاً ، قريباً من الهمهمة .

- أريد الاضطجاع ولو قليلا .

- نم حيث أنت ، فأنا أمسك بك جيداً .

كان القمر يواصل صعوده ، بلون يقترب من الزرقة ، فوق سماء صافية . غمر الضوء وجه العجوز المبلل بالعرق . أغمض عينيه لكى لا ينظر أمامه ، إذ لم يكن باستطاعته طأطأة الرأس الذى تشبث به يدا ابنه .

- لا أفعل هذا من أجلك ، بل من أجل المرحومة والدتك . أفعله فقط لأنك كنت ابنها ، كسنت ستؤنبنى لو تركتك ممدداً هناك ، حيث وجدتك ، ولم ألملم شعئك وأحملك لمن يداويك ، كما أفعل الآن ، هى التى تبث فى روح العزيمة ، وليس أنت . لا أدين لك إلا بالمتاعب الجمّة والتلظى بنيران العذاب وحمرة الخجل .

كان يتفصد عرقًا أثناء كلامه ، لكن هواء الليل كان يتكفل بتجفيف عرقه ، ويعود ليعرق من جديد فوق عرقه الجاف .

- سينكسر حُقي ، لكنى سأصل بك إلى « تونايا » لكي يعالجوا هذه الجروح التي أحدثوها بك . وأنا على يقين بأنك ستعود سيرتك الإجرامية الأولى بمجرد أن تُشفى . لن يهمنى هذا ، مادمت ستبتعد عني وتنقطع أخبارك .

ما دمت . . . لأننى لم أعد أشعر بينوتك . لقد دَنَسْت الدم الذى يسرى فى عروقك منى ؛ لهذا لعنت الجزء الذى يخصنى فيك . دعوت الرب أن : « يفسد ما تحتوى عليه كليتك من دمي » . قلت هذا بعد أن عرفت أنك تقطع الطرق ، وتعيش على السرقة وإزهاق أرواح الناس . . . المسالين الطيبين ، وإلا ، فماذا تقول فى أبى من العِمَاد « ترانكيلينو » . الذى عَمَدَكَ أنت الآخر وأعطاك اسمه ، ومع هذا لم تتورع عن قتله . من يومها قلت لنفسى : « هذا لا يمكن أن يكون ابنى » .

- انظر حوالبك لعلك ترى أو تسمع شيئًا . تستطيع فعل هذا من علٍ حيث تجلس ، لأننى بدأت أشعر بالصمم .

- لا أرى شيئًا .

- عاقبة هذا وخيمة بالنسبة لك ، يا « إجناثيو » .

- أنا عطشان .

- تحمل . لابد أنا قريبان الآن ، نحن فى الهزيع الأخير من الليل
ولابد أنهم أطفأوا أنوار القرية ، لكن ، على الأقل ، لابد وأن يكون قد
تناهى إلى أذنك نباح الكلاب . أرهف السمع .
- أعطنى ماءً .

- المكان يخلو من الماء . لاتوجد سوى الحجارة . تحمل ، وحتى لو
كان الماء موجوداً فلن أنزلك لتشرب ؛ لأنه لا يوجد أحد يساعدى فى
حملك ثانية وأنا وحدى لا أقدر .

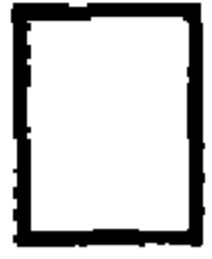
- العطش يقتلنى والنعاس يُثقل رأسى .

- أتذكر أنك منذ ولادتك كنت هكذا ، كنت تصحو من نومك
جائعاً وتأكل ثم تعود للنوم . كانت أمك تعطيك ماءً بعد أن تُفرغ ما فى
صدرها من لبن ، لم تكن تمتلىء ولا تشبع قط . وكنت غضوباً وحنقاً ،
ولم أتخيل مطلقاً أن يصعد الحنق إلى رأسك بمرور الأيام . . . لكن هذا ما
حدث ، وأمك ، عليها الرحمة ، كانت تريد تنشئتك قوى البنية . كانت
تعتقد أنك ستكون سندها عندما تكبر . لم يكن لها غيرك . الابن الثانى
الذى كانت ستلده قتلها ، وكنت ستقتلها ثانية لو عاشت وشاهدت ما أنت
فيه .

أحس بتراخى ركبتى ذلك الرجل المُعتلى ظهره وبعدم تحكمه فى
قدميه وبشروعه فى التمايل جهة اليمين وجهة اليسار ، وبدا له أن الرأس
الموجودة هناك فوق تنتفض وكأنها تنتحب .

أحس بتساقط قطرات سميكة فوق شعره ، مثل الدموع .

- أتبكي ، يا «إجنائيو» ؟ أهاجت مشاعرك ذكرى والدتك ، حقًا ؟
لكنك لم تُسدّ لها أى معروف ، لم نلقَ منك إلاجزاء سنمار . يبدو أننا ،
بدلاً من الحنان ، ملأنا بالشر جسدك . ألا ترى ؟ لقد أثنخوك بالجراح .
وماذا جرى لأصدقائك ؟ قتلوهم عن بكرة أبيهم . لكنهم مقطوعين من
شجرة ، دون أهل . وكأن لسان حالهم يقول : « لا يوجد من يهتم أمرنا
أو يحزنه مصيرنا » . أما أنت ، يا «إجنائيو» ، أنت ؟



هاهي القرية . شاهد أسقف المنازل وهي تلمع تحت ضوء القمر .
تولد لديه الانطباع بأن ثقل ابنه يسحقه عندما أحس بانثناء مفاصله تحت
وطأة آخر مجهود عليه أن يبذله . عندما وصل لأول بيت مال على حافة
الرصيف وألقى بالجسد المُنهك المُفكك الأوصال .

تخلص بصعوبة من أصابع ابنه التي كانت متشبثة بعنقه ، وعندما
تحرر من حمولته خال أن نباح الكلاب يأتي من جميع الاتجاهات .

- ألم تكن تسمعها ، يا «إجنائيو» ؟ - قال - . إنك لم تساعدنى
حتى بهذا الأمل .

يوم الزلزال

- وقع هذا فى شهر سبتمبر من العام الماضى ، أم أنه كان فى العام ما قبل الماضى ، يا « ميليتون » ؟
- بل الماضى .

- نعم . ما زلت أتذكر جيداً . حدث فى سبتمبر من العام الماضى ، فى اليوم الحادى والعشرين . اسمع ، يا « ميليتون » ، ألم تحدث الرجفة اليوم الحادى والعشرين من سبتمبر ؟

- حدثت قبله بقليل . ما أعرفه أنها وقعت فى اليوم الثامن عشر .
- عندك حق . أنا كنت ، بالفعل ، خلال تلسك الأيام فى « توثكاكويكسكو » ورأيت بعينى رأسى كيف تهاوت البيوت وكأنها مصنوعة من الحلوى ، بمجرد أن انثت وعوّجت قسماتها جاء عاليها سافلها . كان الناس يخرجون مذعورين من تحت الأنقاض ويجرون وهم يصيحون نحو الكنيسة مباشرة . لكن ، انتظر . يبدو لى أنه لا توجد كنيسة من أى نوع فى « توثكاكويكسكو » . أليس كذلك ، يا « ميليتون » ؟

- لا توجد بالفعل . ليست هناك سوى أطلال يقولون إنها كانت لكنيسة قبل مائتى سنة تقريباً ؛ لكن لا أحد يتذكرها ، ولا يتذكر كيف كانت ، الأطلال الباقية هناك تشبه حظيرة منسية موبوءة بنباتات الخروع .

- لأفضل فوك . الزلزال لم يسقع ، بالتالى ، وأنا فى « وثكاكويكسكو » بل فى « ألبوتشيتى » دون شك . لكن ، أليست « ألبوتشيتى » قرية معظم سكانها من مربى الماشية والقطعان ؟

- نعم ، إنها تبعد قليلا عن « الكاترايس » ، وبها مصلّى صغير يطلقون عليه كنيسة .

- هى ، إذن ، التى لحقنى فيها الزلزال الذى أحدثكم عنه ، عندما ارتجفت الأرض بكاملها وكأنهم يهزون باطنها . بعد أيام قليلة ؛ لأننى أذكر أننا كنا لانزال مشغولين برفع الحوائط من جديد ، جاء الحاكم ليتفقد الموقع وليرى ما يمكن أن يسديه حضوره من صنيع . تعرفون ، حضراتكم . أن مجرد حضور الحاكم ورؤية الناس له كاف لأن يبقى كل شىء على ما يُرام . لبّ القضية يكمن - على الأقل - فى قدومه لرؤية ما يحدث ، لا أن يظل حبيس قصره مكتفياً بإصدار التعليمات . وبمجرد أن يأتى يبقى كل شىء تمام ، والناس ، الذين خرّت أسقف بيوتهم فوقهم يتملكهم الحبور للتشرف بطلعته البهية . أليس هذا بصحيح ، يا « ميليتون » ؟

- كل الصحة .

- حسناً ، كما كنت أقول لكم ، فى سبتمبر من العام الماضى ، بعد وقوع الهزة الأرضية بقليل ، هبط علينا الحاكم ليتفقد آثارها . لاتظنوا أنه جاء بمفرده ، بل كان بصحبته علماء جيولوجيا وآخرون عرفاء ببواطن الأمور . اسمع ، يا « ميليتون » ، كم كلفنا إطعام حاشية الحاكم من أموال ؟

- أربعة آلاف « پيزو » تقريبًا .

- هذه نفقات نهار واحد لأنهم انقشعوا عندما حلّ المساء ، ولو بقوا أكثر من هذا لما استطاع أحد تقدير الخسائر التي كانت ستتحقق بنا ، ومع هذا كانت الفرحة الغامرة تملو كل الوجوه : أنهك الناس رقابهم من كثرة مدّها للتمكن من رؤية الحاكم ومن انهمار سيل تعليقاتهم عن كيفية ازدراده للديوك الرومي ومصمصمة عظامها وعن سرعة التهامه لأقراص الذرة ، قرصًا بعد آخر ، بعد غمرها بصلصة « الجواكامولى » * ؛ لقد أمعنوا النظر فى كل شاردة وواردة . كان فى غاية الهدوء والجدية أثناء تنظيفه ليديه فى الجوارب حتى لا يوسخ المنشفة التى استخدمها فقط ، ومن حين لآخر ، لإزالة الغبار من على شاربه . وبعد ذلك ، عندما صعد تأثير نبيذ غرناطة إلى رءوسهم شرعوا فى الغناء بصوت واحد . اسمع ، يا « ميليتون » أتذكر الأغنية التى ظلوا يكررونها كالأسطوانة المشروخة ؟

- تلك التى يقول مطلعها ! « لاتشعل البال بنوائب الأيام » .

- (عفارم) عليك ، يا « ميليتون » . لا يفوتك شىء . نعم ، كانت هى ، ولم يكن للحاكم من عمل سوى الابتسام ؛ سأل عن دورة المياه ، ولما انتهى عاد لإحتلال موقعه ثم مد أنفه للاستمتاع برائحة « بوكيه » الفلّ الموجود أمامه فوق المائدة . كان ينظر مبتسمًا

* الجواكامولى (guacamole) : صلصة تتكون من : كمثرى التمساح ، الملح ، البصل ، الفلفل الحار والجبن المبشور (المترجم) .

إلى المغنيين ويحرك رأسه متبَعًا نغمات اللحن . لامراء في أنه كان متشياً وسعيداً لسعادة شعبه ؛ ولمَ لا ، وقد كان بالإمكان قراءة ما يعتمل في صدره من مجرد النظر إليه . ولما حانت ساعة الخطب وقف واحد من مرافقيه ، ذو وجه شامخ على صفحته اليسرى أثر اعوجاج ، وتكلم . لاشك في أنه كان يحفظ عن ظهر قلب كل كلمة يقولها . تحدث عن « خواريث » الموجود عندنا فوق قاعدة بالميدان ولم نكن حتى تلك اللحظة نعلم أنه تمثال « خواريث » ، ومن أين لنا بالمعرفة ولم يسبق أن استطاع أحد الإدلاء بأية معلومة عن ذلك الشخص المتسلق لتلك القاعدة الحجرية . اعتقدنا دائماً أن صاحب التمثال يمكن أن يكون « هيدالجو » أو « موريلوس » أو « بيتو ستيانو كارانثا » ، لأننا ظللنا نحتفل سنوياً بذكرى كل واحد من هؤلاء الثلاثة عند القاعدة نفسها ، إلى أن جاء ذلك الرجل الأنيق وأخبرنا أن التمثال يخص « دون بينيتو خواريث » . ياه ا على الكلام الذي قاله . أليس هذا بصحيح ، يا « ميليتون » ؟ لا بد وأن ذاكرتك القوية مازالت تحتفظ بما تشدق به ذلك الرجل .

- أتذكره بجلاء ؛ لكنني سئمت من كثرة تكراره .

- حسنا ، وإن كنت بهذا قد فوت على هؤلاء السادة سماع شيء منقطع النظر ، لكنني في المقابل أطلبك بأن تعيد على مسامعهم ما قاله الحاكم .

« ما يدعو للدهشة أن ذلك قد تحول من زيارة لمواساة الموجهين والذين فقدوا ديارهم في الزلزال إلى حفلة سُكر وعريدة . تذكر أن فرقة تبيك الموسيقية جاءت متأخرة عن موعدها لشغل حاشية الحاكم لجميع السيارات مما اضطر أفرادها لقطع المسافة سيراً على الأقدام .

دخل الموسيقيون القرية وهم يقرعون أدواتهم بكل ما أوتوا من قوة . كانت الطبول الضخمة والأبواق تصدر أصواتاً مزعجة ، بينما لم تكف الصنوج النحاسية الكبيرة عن الزعيق : « تاتا تشوم ، تشوم ، تشوم ، تشوم » . *

أما عن الوليمة فحدث ولا حرج ، عندما بدأت خلع الحاكم سترته وأرخى رباط عنقه ، وبعد ذلك لم يعد فى وسع أحد إيقافها . كانوا محاطين بدنان لا حصر لها من النيذ وأقبلوا على التهام لحم الأيائل بشراهة ، قد لا تصدقون أنه لم يدر بخلد أحدهم أنه كان يأكل لحم أيائل مما تغص بها المنطقة . كنا نضحك عليهم عند سماعهم وهم يقولون إن لحم « البارباكوا » ** لذيذ للغاية ؛ لأننا لانعرف هنا حتى ما تعنيه هذه الكلمة . ما عرفناه بالفعل وتأكدنا منه هو أننا كنا بمجرد أن نقدم لهم صينية مملوءة باللحم يطلبون غيرها وغيرها لدرجة أن طاقم الخدمة تفرغ لإحضار المزيد من الصوانى ؛ وكما قال « ليوريو » ، موظف الطوابع الأميرية ، وأنا أضع كلامه بين قوسين لأننى أتذكره بالحرف الواحد : « لتكلف هذه الحفلة ما عليها أن تتكلفه ، فالمال لا بد وأن تكون له فائدة » ؛ وبعد ذلك جاء دورك يا « ميليتون » ، وكنت وقتها رئيس المجلس المحلى ، لتقول ما أزعجنى وأثار استغرابى :

* « تاتاتشوم ، تشوم ، تشوم » : الأصوات التي تصدرها تلك الآلة الموسيقية .

** البارباكوا (Barbacoa) ، نوع جيد من اللحم المشوى لاتعرفه إلا الطبقات الغنية الراقية . (المترجم) .

« ليجرى النبذ كالأنهار ، فزيارة كهذه تستحقه » . وبالفعل سال النبذ ، وهذه هي الحقيقة التي لاتشوبها شائبة ، لدرجة أن المفارش قد أحمرّ لونها . بدأ هؤلاء الناس وكان بطونهم لاتعرف الامتلاء . لاحظت أن الحاكم لم يكن يتحرك من مكانه ؛ لم يكن يمد ولاحتى يديه ، بل اقتصر فقط على ازدراد الطعام وتجرع كل ما يقربونه منه ؛ ولم يدخر المنافقون والأفاقون وسعاً في تعبئة طاولته بكل ألوان الطعام حتى لم يعد بها متسع للملاحة التي حملها الحاكم فى يده وعندما لم يجد لها مكاناً اضطر لوضعها فى جيب قميصه . عرفت هذا مصادفة عندما تقدمت إليه وسألته : « ألا تريد ملحاً ، سيدى الجنرال ؟ » ، فما كان منه إلا أن أشار ، مبتسماً ، إلى الملاحة القابعة فى جيب قميصه .

أما العظمة فقد تجلّت عندما شرع فى الكلام . وقفت شعور رءوسنا من شدة التأثير والانفعال . أخذ ينهض رويداً رويداً ، ببطء شديد ، حتى شاهدناه وهو يدفع الكرسي برجله إلى الوراء ؛ يحنى رأسه وكأنه يستعد للإقلاع ثم نحنته التى أسدلت ستر الصمت على المكان . ماذا قال ، يا « ميليتون » ؟

- « الأخوة المواطنين - قال - اجتماعى بكم اليوم يعتبر تتويجا لمشوارى الحافل ، ويحيى الآمال فى تنفيذ الوعود التى قطعناها على نفسى . لقد شرفت من قبل بزيارة هذه الأرض وقت أن كنت زميلاً مجهولاً لمرشح الرئاسة ومستشاراً عاماً لذلك الرجل الذى لم تنسلخ أبداً نزاهته عن مضمون تصريحاته السياسية التى تنطلق من قاعدة صلبة قوامها المبادئ الديمقراطية ذات الصلة الوثيقة بنبض الجماهير ، والتى تمزج فى بوتقة واحدة التقشف وخلاصة المثالية الثورية المترعة ، حتى الآن وبشكل لم يسبق له مثيل ، بالإنجازات والقرارات الصائبة » .

- تعالت الأُكف بالتصفيق هنا ، أليس كذلك ، يا « ميليتون » ؟

- نعم ، كان تصفيقًا حادًا . تابع بعد ذلك :

« وكما ترون ، يا إخواني ، فإن سياستي مضت قدمًا الى الأمام دون تحريف أو زيغ . عندما كنت مرشحًا لم أسرف في الوعود ؛ لأنني قطعت على نفسي عهدًا بالأعداء بما يمكن تنفيذه وأن يكون هدف الإنجازات الصالح العام لا المصلحة الفردية أو مصلحة فئة بعينها . وهانحن نجتمع اليوم لجابهة كارثة طبيعية لم يتوقعها برنامج الحكومة .

« تمامًا ، سيدي الجنرال - صاح واحد من هناك - . تمامًا ، قلت هذا وقولك الحق » .

« . . . وفي هذا المقام لا أخفى عليكم أننا بمجرد أن علمنا بعقاب الطبيعة هذا سارعنا بالحضور ، واللوعة تعتصرنا ، إلى بؤرة الحدث الذي خرب ديارا كان يمكن أن تكون ديارنا ، بل إنها كذلك بالفعل ؛ ونحن نجتمع هنا ، لابدافع النزوة « النيرونية » * للتشفي والاستمتاع بمآسى الغير بل لمديد العون وللإعلان عن استعدادنا الوشيك بتوحيد الجهود للبدء في العمل من أجل إزالة آثار الزلزال ، ولتقديم واجب العزاء الأخوي للبيوت التي فتّ الموت في عضدها . هذا المكان الذي كان يرقل في حلل السعادة عندما زرته منذ سنوات ، عندما لم يكن لي في السلطة مطمع ، يحزنني ويزلزل كياني رؤيته الآن في ملابس الحداد . نعم ، يا إخواني المواطنين ، تلهبني سياط جراح الأحياء الذين ضاعت ممتلكاتهم وأثبات أولئك الذين فقدوا ذويهم تحت هذه الأنقاض الماثلة أمام أعيننا » .

* نسبة إلى « نيرون » ، الامبراطور الذي حرق روما وجلس فوق إحدى القمم القريبة ليستمتع بمشاهدة النيران (المترجم) .

- هنا حدث أيضا تصفيق ، أليس كذلك يا « ميليتون » ؟

- لا ، بل سُمعت من جديد الصيحة السابقة : « تمام ، سيدى الحاكم ! قلت هذا وقولك الحق » . وبعدها قال واحد من هناك : « أسكتوا هذا المخمور » .

- آه ، فعلا . كما بدت بوادر شغب فى الصفوف المواجهة للمنصة الرئيسية ، لكن الهدوء سرعان ما خيم على الجميع عندما استأنف الحاكم حديثه .

« أهالى توثكاكويكسكو » الكرام ، يلح على الإفصاح عن ألى لنكبتكم ، فبالرغم من مقولة « بيرنار » الشهيرة ، « بيرنار ديات دل كاستيو » العظيم : « الرجال الذين لقوا حتفهم كانوا على موعد مع الموت » ، إلا أن الوازع الإنسانى والتبحر فى علم الأحياء يحملانى على تجاوز هذه العبارة لأهتف من صميم قلبى : يؤلنى بشدة ما حدث ألما يضارع الألم الناجم عن رؤية شجرة اجتثت من جذورها وهى فى ريعان الصبا . سنساعدكم بما لنا من سلطة ، ولا أذيع سرا إن أشرت إلى أن جميع أجهزة الدولة وعلى رأسها المسئول الأول تعبىء كل قسواها من أجل نجدة المضارين فى هذه المذبحة التى لا يتمناها أحد ولم يسبق لها مثيل ، وأنا من هذا المكان أجدد الوعد بالوفاء بما قطعته على نفسى قبل انتهاء مدة رئاستى . ومن جهة أخرى ، لا أعتقد أن إرادة الله لها دخل فى هذه البلوى التى حلّت بكم وخربت دياركم . . . » .

- كان هذا آخر كلام سمعته منه . ما قاله بعد ذلك لم أفهمه لأن الجلبة التي انطلقت من الصفوف الخلفية علت وارتفعت وأصبح من العسير متابعة باقى الخطبة .

- فى غاية الصحة ، يا « ميليتون » ، فأنت لم تكن قريباً من تلك الصفوف لترى ما حدث ، ولذا سأحاول أن أسرد عليك كل وقائعه . حدث أن الشخص نفسه ، وهو من الحاشية ، أخذ يزعم من جديد : « تماما ! تماما ! » بصوت كالرعد كان يصل إلى الشارع . وعندما تكاثروا عليه وأسكتوه سحب مسدسه وأخذ يقذفه فى الهواء ، من فوق رأسه ويتلقفه ليطلق الرصاص تجاه السقف ثم يعود ليقذفه ويتلقفه ، وهكذا دواليك حتى أفرغ خزانة المسدس . كل من كان قريباً منه ورأى هذا المشهد البهلوانى أطلق ساقيه للريح فرارا بجلده . انكفأت الطااولات من جراء الركض العشوائى وارتفع صوت تكسير الأطباق والزجاج وتهشم الزجاجات التى كانوا يلقونها على صاحب المسدس وكانت تتعداه لترتطم بالحائط . والآخر ، الذى كان مازال لديه وقت لاستبدال الخزانة بأخرى مملوءة شرع فى إفراغها بالطريقة نفسها بينما كان يتطوح يُمْنَةً ويساراً متفادياً الزجاجات الطائرة المُسَدَّة إليه من كل حذب وصبوب .

« لو شاهدتم الحاكم لرأيتموه واقفا هناك وقد علاه التجهم ، ينظر إلى مصدر الشغب وكأنه يريد أن يخمده بنظرته .

« لا أحد يدرى من الذى استنجد بالموسقيين وطلب منهم عزف أية مقطوعة ، المهم أنهم انبروا فى عزف « النشيد الوطنى » بكل ما لديهم

من قوة لدرجة أن الطبول كانت على وشك الانفجار من شدة الخبط ، لكن جهودهم ضاعت سدى واستمر الوضع على ما كان عليه . ولم يقتصر الأمر على الشغب المشتعل بالداخل ، بل نشبت في الشارع أيضاً معركة طاحنة . جاءوا ليخبروا الحاكم بوقوع اشتباك بالسَّنج بين ليف من المواطنين ؛ كان الخبر صادقاً تماماً لأننا كنا نسمع من مكاننا هنا أصوات النساء وهى تولول قائلة : افصلوا بينهم ، لأنهم سيقتلون بعضهم ! ولم تكد تمر دقائق معدودات حتى سمعنا صرخة أخرى تقول : لقد قتلوا زوجي ! اقبضوا عليهم ! . ظل الحاكم واقفاً فى مكانه ، دون أن يتململ . أسمع ، يا « ميليتون » ، أتعرف الكلمة التى تقول . . .

- رباطة الجأش .

- نعم هى ، رباطة الجأش . المهم أن الشغب الذى جرى فى الخارج كان سبباً ، على ما يبدو ، فى عودة الهدوء إلى الداخل . كان مخمور الـ « تماماً . . . » نائماً ، أصابته إحدى الزجاجات الطائرة وبقي مستلقياً على الأرض بكامله . اقترب منه الحاكم حيثئذ وأخذ المسدس الذى كان لا يزال قابضاً عليه بكلتا يديه تحت تأثير الإغماء . أعطاه لآخر ثم قال له : « عليك به وأشرف بنفسك على إلغاء ترخيص حمله للسلاح » ، وأجاب الآخر : « أمرك ، سيدى الجنرال » .

« لا أدرى لماذا استمرت الفرقة الموسيقية فى عزف « النشيد الوطنى » إلى أن قام الرجل الأنيق ، الذى تحدث فى بدايه الحفل ، برفع يديه مطالباً بالتزام الصمت حداً على أرواح الضحايا . اسمع ، ياميليتون ، أى ضحايا كان يقصد عندما طلب منا الصمت ؟

- ضحايا الهزة الأرضية .

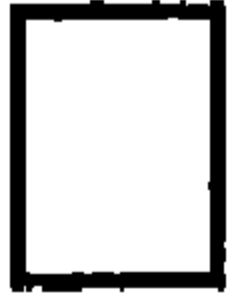
- حسنًا ، كان لضحايا الزلزال إذن . جلس الجميع بعد ذلك وعدّلوا الموائد ثانية وواصلوا احتساء النبيذ وغناء تلك الأغنية : « لاتشغل البال بنوائب الأيام » .

أتذكر للآن أن حادثة الشغب تلك ، جرت في الحادى والعشرين من سبتمبر ؛ هذا لأن زوجتى وضعت ابنتا « ميريتشو » فى ذلك اليوم نفسه ، وأنا وصلت الى البيت فى الهزيع الأخير من الليل فى حالة أقرب للسُّكْر منها الى الفوقان . خاصمتنى ولم تكلمنى لأسابيع طويلة متهممة إياى بتركها وحيدة ساعة الجلد . ولما ذهب عنها الغضب قالت لى إننى كنت عديم المروءة ؛ لأننى لم أساعدها حتى ولو بطلب الدّاية وأنها عندما لم تجد مخرجًا توكلت على الله ، الذى لم يخذلها ، واعتمدت على نفسها .

تَرْكَة « ماتيلدى أركانخل »

فى « كوراثون دى ماريا » كان يعيش ، منذ زمن ليس ببعيد ، أب وابن يطلق الناس عليهما لقب « لوس إيريميتس » ؛ ربما لأن الاثنين كانا يسميان « إوريموس » : الأول ، « إوريمو ثيديو » ؛ والثانى ، « إوريمو ثيديو » أيضاً ، ومع هذا فقد كان التمييز بينهما فى غاية اليسر ، ذلك لأن الأول كان يتقدم الثانى بخمس وعشرين سنة مستوفاة بكاملها .

يكمن الاستيفاء فى ما منَّ به الخالق على « أوريمو » الكبير من طول قامة وامتانة بنيان . وعلى خلاف هذا شاءت حكمة الرب أن تصوغ الصبى على صورة مناقضة تماماً ، حتى أنها تنسحب كذلك على العقل والفهم . وعلاوة على النحافة التى تكبل الفتى فقد كان يعيش ، إذا كان لا يزال ينعم بالحياة ، مطحوناً طحن حجر بالكرهية ؛ والحق الذى لامرأ فيه أن نكبته تتمثل فى قدره الذى ألقى به فى خضم الحياة ذاتها .



كان أشد الناس له بغضاً والده ، أو على الأصح أبى من العماد ؛ لأننى من عمِّد له الصبى ، ويبدو أن ما فعلته كان مجازفة بكل المقاييس نظراً لقامته ، . كان رجلاً ضخماً الجثة ، بلغ من الضخامة مبلغاً يجعل من

الشجاعة أمرا لاغنى عنه للوقوف إلى جواره ولاختبار قوته ولو بمجرد النظر . وإذا حدث ووجه إليه أحد نظرة ، فإنه كان يعتبرها صادرة عن سوء طويّيه أو للزراية به . لم يكن للناس من حديث فى « كوراثون دى ماريا » والمناطق المجاورة إلا عن الحالة الفريدة لرجل لايتوقف عن النمو إلى أعلى ، فى حين أنهم يتميزون هناك بالقصر والنماء بالعرض ؛ لقد كان معروفاً أن تلك النواحي هى منبت قصار القامة ، وإن القصر هو سمّت أناسها حتى فى الطبائع .

أرجو ألا يشعر بالإهانة أحد الحضور لو تصادف وكان من هناك ، وإن كنت لا أريد قيد أمثلة عن رأى .

والآن أعود إلى حيث توقفنا ، إلى بداية حديثى لكم عن بضعة أشخاص كانوا يعيشون حتى وقت قريب فى « كوراثون دى ماريا » . كان « إورييو » الكبير يمتلك ضيعة يطلقون عليها « لاس أنيماس » ، أخذت أطرافها تتآكل بمرور الأيام نتيجة للعديد من أوجه الخلل ، وعلى رأسها اللامبالاة وعدم الحرص ، إذ لم يرد بخاظره بتاتا ترك شىء لابنه ، وهو ابنى من العماد كما سبق وأخبرتكم . احتساها بكاملها فى أقداح العرقى الذى كان يحصل عليه ببيع أرضه قطعة قطعة ويقصد ألا يجد الفتى عندما يكبر ما يعينه على التثبيت بالحياة . وقد تحقق له ، تقريبا ، ما كان يصبو إليه . فإذا كان الابن قد استطاع ، فى غير قليل من العنت ، الارتفاع قليلا عن الأرض فإن الفضل فى ذلك يرجع لبعض المحسنين الذين ساعدوه على أن يقيم أودّه ؛ فلم يكن أمره يعنى والده الذى كان يبدو وكأن الموت أهون عليه من مجرد رؤيته .

لكى نستوعب كل هذا لامناص من العودة الى الوراء ، إلى ما قبل ولادة الفتى بكثير ، وربما إلى ما قبل تَعَرُّفِ « إوريبيو » نفسه على من ستكون والدته .

الأم هي « ماتيلدى أركانخل » . وبين قوسين أضع أنها لم تكن من « كوراثون دي ماريا » ، بل من مكان قصي يدعى « تشوپا ديروس » ، لم يذهب إليه أبداً « ثيديو » هذا وربما اقتصرت معرفته له على ما كانت تتناقله الألسن . فى ذلك الوقت كانت خطيبتى ؛ لكن الواحد لا يدري ما تخبئه له الأقدار ، وهكذا فعندما قدمته للفتاة ، قاصداً - من جهة - الزهو عليها ولأستحثة - من جهة أخرى - على التطوع بوكالة حفل الزفاف ، لم يدر بخلدى أن نبع مشاعرها تجاهى سينضب سريعاً ولا أن تنهيداتها الحارة سيعتورها البرود أو أن آخر سيفوز بقلبها .

- عرفته بعد ذلك .

ومع هذا ، أرى من الواجب قطع الاستطراد لأحدثكم عن « ماتيلدى أركانخل » وأعرفكم من تكون ، وهذا ما سأفعله فى التوّ . سأحكى لكم دون عجلة . بروية . فليس لدينا ما نخسره وأمامنا حياة بأكملها تنتظر .

هى ابنة السيدة « سينيسيا » ، صاحبة خان « تشوپا ديروس » ؛ مكان انشقت عنه الأرض - كما يقولون - ، وعنده كان ينتهى عملنا اليومي . وهكذا فكل بغال يطوف بتلك النواحي تنهى إليه خبرها واستطاع أن يمتع عينيه بالنظر إليها . فى ذلك الوقت كانت « ماتيلدى » ، قبل أن تحتجب ، صبية تتسلل كالماء من بيننا جميعاً .

وفى يوم لم نحسب له حسابًا ، ودون أن ندري كيف ، تحولت إلى امرأة يانعة ، نبتت لها نظرة حاملة كانت تخدش بها وترشقها داخل الواحد كمسمار يصعب اقتلاعه . اكتظت شفتاها بعد ذلك وكأنهم أزالوا نضارتهما من كثرة القُبَل . أصبحت الفتاة ، بإجماع جميع الأذواق ، آية فى الجمال . لاغضاضة فى أن يحس الواحد بأنها كثيرة عليه . تعرفون حضراتكم ، لأن هذا الواحد بغال ، لا يوجد ما يحول بينه وبين الهيام بها ، أو لكى يحدث بها نفسه أثناء طوافه بالطرق .

لكن الطرق المؤدية إليها كانت أكثر طولاً من جميع الطرق التى قطعتها طوال حياتى لدرجة أننى اعتقدت أننى لن أبرأ أبداً من حبها . والمحصلة ، فوز « إورييو » بها .

عندما عدت من إحدى جولاتى علمت أن صاحب ضيعة « لاس أنيماس » ابنتى بها . اعتقدت أن الطمع هو الذى جرحها وربما ما كان عليه الرجل من ضخامة . لم أعدم أبداً تبريرات لذلك . ما آلمنى هنا فى المعدة ، المكان الأكثر تأثراً بالمواقع والاختزان ، هو نسيانها لهذه اللمة من الشياطين الفقراء التى كانت تذهب لرؤيتها والهجعان تحت لفح نظراتها ، وعلى وجه الخصوص أنا ، « تراتكيلينو إيريرا » ، خادمكم الأمين ، والذى عاهدته بالقبل والأحضان وزيادة . وبالرغم من هذا فلو تدبرت الأمر ملياً لأدركت أن الإحساس بالجوع كفىل باستعداد أى حيوان على المروق من سياج حظيرته ؛ وما لاشك فيه أن بطنها لم تعرف الشبع كما ينبغى ، والسبب فى هذا كثرتنا التى جعلت المؤونة لا تكفى ، ولأنها - من جهة أخرى - كان دائماً مستعدة لانتزاع اللقمة من بين شفتيها وإيثارنا بها .

سمنت بعد ذلك ، وضعت مولوداً ثم ماتت ، قتلها جفول حصان .



قدمنا لتعميد المولود . أحضرته بين ذراعيها . لا أستطيع إخباركم بالتفاصيل حول أسباب وكيفية جفول الحصان ، لأن غايتي هي الانطلاق صوب الأمام . أتذكر فقط أن لون الجواد كان أحمر فاتحاً . مرّ إلى جوارنا كغمامة رمادية ، ما رأيناه كان أقرب إلى الريح منه إلى الجواد ؛ وحيداً ، ملوثاً بطين يشبه طين الأرض تقريباً . تخلفت « ماتيلدى أركانخل » ، كانت مزروعة على مقربة من هناك بوجه غائص في مستنقع . ذلك الوجه الذى أحبيناه حباً جمّاً ، متوارياً الآن فى الطين ، وكأنه شرق بالدم الذى كان يتدفق كالينبوع من جسدها الذى لا يزال يتفرض .

فى تلك اللحظة لم تكن منّا . كانت متاعاً خالصاً لـ « إوريبيو ثيديو » ، الوحيد الذى روضها لتكون له . والأكثر من ترويضها أنه توغل فيها إلى ما هو أبعد من ضفاف اللحم ليهبها غلاماً . وهكذا فلم يكن قد تبقى لى منها ، آنذاك ، سوى الطيف أو ربما مزقة شجية من الذكرى .

ومع هذا لم أستسلم لقدرى بعدم رؤياها . سعيت لتعميد ابنيهما لكى استمر بالقرب منها ، بصفة الأب من العماد ليس أكثر .

لهذا ما زلت إلى الآن أحس بذلك الهواء يمر إلى جوارى ؛ الهواء الذى أطفأ جذوة حياتها وكأنه يواصل هبوه على الواحد .

نَحَصْنِي القدر بمهمة غلق عينيها المترعتين بالماء ؛ وتعديل فمها الذي عوجته سكرة الموت : ذلك الجزع الذي انتابها وأخذ ، بالتأكيد ، يتنامى بداخلها أثناء مشوار جموح الجواد إلى أن أَحَسَّتْ بسقوطها فى النهاية . أخبرتكم أننا وجدناها مقوسة فوق الغلام . كان لحمها قد بدأ يجف ، متحولاً إلى قشرة بفعل العصارة التى أفرزتها طوال الوقت الذى استغرقتة محتتها . كانت عيناها مفتوحتين ومُسَدَّدَتَيْن إلى الطفل . قلت لكم إنهما كانتا مخضلتين بالماء ، لاحتسبوه دموعاً ، بل ماء قدراً من المستنقع الطينى حيث انغمس وجهها . من الفرحة التى كانت تطل من عينيها بدا أنها ماتت مسرورة لأنها لم تسحق ابنها فى السَّقْطَةِ . سبق وأخبرتكم أننى تكفلت بإغلاق تلك النظرة التى ظلت تحتفظ بدعابتها التى عهدناها فيها وهى على قيد الحياة .

دقناها . ذلك الفم ، الذى كان الوصول إليه ضرب من الخيال ، لم يمانع فى الامتلاء بالتراب . شاهدنا كيف تختفى بكاملها ، خانعة ، فى أعماق الحفرة ، وتتوارى عنا هيئتها إلى غير رجعة . وهناك ، كان « إوريميو ثيديو » واقفاً مثل مشنقة هائلة . قلت لى نفسى : « لو تركها وشأنها فى « تشوپاديروس » ، فلربما ظلت تنعم إلى الآن بالحياة » .

« الذنب ذنب الغلام - أخذ يقول - . لو لم يكن معها ما حدث لها مكروه » . كان يقول أن الغلام أخذ يصيح مقلداً صوت البومة ، والجواد الذى كانا يمتطيانه يفرع لأتفه الأسباب ، وأنه حذر الأم التحذير الكافى إلى حد إقناعها بمغبة السماح للصبى بإصدار هذا الصوت . كان يقول أيضاً إنه كان بوسعها حماية نفسها عند السقوط ؛ لكنها أقدمت على شىء مخالف تماماً : « قوَّست جسدها لتصنع فراغاً للصبى حتى لا تضغط عليه بثقلها . وهكذا ، فجميع الملابس تشير بإصبع الاتهام

للغلام ، الذى يطلق صغيراً يثير فزع أشجع الشجعان ، فلأجل ماذا أحبه ، ولا فائدة ترجى من ورائه . كان بإمكان الأخرى أن تهبنى أكثر وجميع الأولاد الذين أحلم بهم ؛ لكن هذا لم يترك لى حتى الاستمتاع بها . وهكذا كانت تنفلت منه أشياء وأشياء لدرجة أن الواحد أشكال عليه ولم يعد يدرى إذا كان ما يفعله نابعاً من شدة الألم أو من الإحساس بعقدة الذنب تجاهها .

ما تبين لى على وجه اليقين هو المقت الشديد الذى عشتش بداخله تجاه الغلام .

وبسبب ما سردته على مسامعكم من بدايته ، استسلم « إوريميو » للكأس وأفرط فى الشراب ، بدأ بتغيير قطع من أرضه بزجاجات العرقى ، وانتهى به الحال إلى شرائها بالبراميل . أنا نفسى ، جاء علىّ الدور مرة لأشحن متن بغلة عن آخره ببراميل خالصة من العرقى مخصصة لـ « أوريميو » . لقد أودع كل طاقته هنا : فى الشرب وفى ضرب ابنى من العماد حتى تكلّ يده .

وعلى هذا المنوال دارت رحى سنوات عديدة . ويرغم هذا كبر الغلام متوكئاً على شفقة بعض المحسنين ؛ لا يكاد يشد من أزره سوى فطرة حب الحياة التى اندفع بها من رحم أمه . كان يصبح كل يوم ممزقاً شراً ممزق من الأب الذى كان يعتبره ندلاً وقاتلاً ؛ وهو وإن كان قد أحجم عن قتله إلا أنه سعى ، على الأقل ، للقضاء عليه جوعاً حتى ينسيه وجوده - لكنه عاش . وعلى النقيض ، تدهورت صحة الأب بمرور الأيام ، وحضراتكم وأنا والجميع نعلم أن الزمن أشد وطأة من أى

حمل باهظ يمكن أن يطيقه كاهل الإنسان . وهكذا ، فبالرغم من استمرار تعهده لأحقاده فقد أخذت الكراهية تتقلص شيئاً فشيئاً ، إلى أن انقلبت حياته إلى وحدة تمشي على رجلين .

لم أكن أحفل بهما كثيراً . عرفت ، لأنهم قصَّوه علىّ ، أن ابني من العماد كان يعزف على القيثارة أثناء نوم أبيه من شدة السكر . لم يكن أحدهما يكلم الآخر ولا ينظر إليه ؛ ومع هذا كان صوت القيثارة يُسمع في جميع أرجاء « كوراثون دي ماريا » بعد أن يُرخي الليل سدوله ؛ وفي بعض الأحيان يستمر سماعها إلى ما بعد منتصف الليل بشوط طويل .

حسنًا ، حتى لا أطيل عليكم، ذات يوم هادئ ، من تلك الأيام التي تفيض بها هذه القرى ، اجتازت مجموعة من مثيري الشغب « كوراثون دي ماريا » . لم يحدثوا ضوضاء تقريبًا ، لأن الشوارع كانت مكسوة بالحشائش ؛ وهكذا جاء مرورهم صامتًا ، بالرغم من امتطاء الجميع للجياذ . يقولون إن المكان كان غارقاً في الهدوء وأنهم عبروا دون إحداث أي ضجيج ، حتى أنه كان يُسمع صياح « السمور موخو » * وصراخ الجداجد ** ؛ ما كان يُسمع أكثر منهم هو صوت قيثارة انضم إليهم حينما مروا بدار « لوس إيريميتس » وأخذ يذهب ، مبتعدًا ، حتى تلاشى .

* « السمور موخو » : طائر ذو منقار مستقيم وحاد . يطير طيرانًا قصيرًا وبإمكانه البقاء فترة طويلة تحت الماء . (المترجم) .

** الجداجد : نوع من الذباب ، طوله ٣ سنتيمترات ، مستدير الرأس ، لونه أسود مُشربَّب بحمرة ، يحدث عند طيرانه أزيزًا حادًا ورتيبيًا (المترجم) .

لا أحد يعلم هوية مشيرى الشغب هؤلاء ولا ماذا كانوا يصنعون .
الشيء المؤكد ، وهذا ما قصوه على أيضاً ، أن فرقاً من القوات الحكومية
اجتازت هي الأخرى القرية بعد أيام قليلة دون أن تتوقف . وأن
« إورييو » العجوز ، الذى كان السقم قد بلغ منه مبلغاً عظيماً ، انتهز
الفرصة وطلب الانضمام إليهم بحجة الأخذ بثأر له من أحد المتمردين
المطاردين من تلك القوات . وافقوا . خرج من داره ممتطياً جوادا والبندقية
فى يده ، راکضاً للحاق بالقوة ، كان فارع الطول ، كما سبق وأخبرتكم ،
وبدا ، وهو مكشوف الرأس ، أشبه ببيرق منه إلى رجل ، ذلك لأنه لم
يهتم بالبحث عن القبعة .

انقطعت أخبارهم لعدة أيام . استمر الهدوء مخيماً . وصلتُ فى
تلك الأثناء ، كنت قادمًا من « تحت » ولم أسمع هناك أيضاً خبراً أو
إشاعة ، إلى أن بدأت تُترى جموع من البشر . « فواعلية » ، تعرفون
حضراتكم : أجراء من هؤلاء الذين يمضون شطراً من حياتهم فى العمل
بسفوح الجبال ولا ينزلون إلى القرى إلا للحاجة أو لأمر جلل ، الآن أنزلهم
الفرع . وصلوا قائلين إن معركة طاحنة تدور رحاها هناك فى الربى منذ
عدة أيام ، ومن هنا جاء رؤسهم الاضطرابى .

فات المساء دون رؤية أحد يمر . وصل الليل . ظن البعض أنهم
سلكوا طريقاً آخر . كنا نتنظر خلف الأبواب المغلقة ، أعلنت
ساعة الكنيسة التاسعة ثم العاشرة ، ومع دقائق الساعة كان يُسمع ما
يشبه صوت النفير . وبعده خبب الجياد ، مددت عنقى حينئذ لرؤية من
يكونون ، ورأيت لُمَّةً من مرتدى الأسمال على خيول عجفاء ؛

البعض يُقَطَّر دَمًا ، والبعض الآخر نائمًا ، بالتأكيد ، لأنهم كانوا يطوحون
رءوسهم في الهواء .

عندما انتهى طابور عرض الأشباح المعتمدة التي تتميز بالكاد عن
سواد الليل ، أخذنا نسمع ، منخفضًا في البداية وأكثر وضوحًا بعد
ذلك ، صوت قيثارة . وبعد فترة وجيزة شاهدت ابنتي من
العماد ، « إوريبيو » ، قادمًا على صهوة جواد « إوريبيو ثيديو » . كان
راكبًا على كَفَل الحصان ، وباليدي اليسرى يعزف على قيثارته لحنا موجهًا ،
بينما تمسك اليمنى بجسد أبيه المستلقى بالعرض على السرج .

« أنكليتو مورونيس »

آه منكن ، أيتها العجائز ، يا حَفْدَةَ الأبالسة ! رأيتهن قادمات ، فى موكب ، متشحات بالسواد ، يتصبين عرفًا كالبغال تحت وهج الشمس . رأيتهن من بعيد يُثرن الغبار مثل قطع من البهائم ، جميعهن سوداوات . كنّ آيات من طريق « أمولا » رافعات ، فى الحرّ ، أصواتهن بالغناء والصلوات ، بتمائهن الكبيرة الداكنة التى يتساقط عليها العرق بغزارة . رأيتهن يصلن واختبأت ، كنت أعرف وجهتهن وعمن يفتش . لهذا أسرعت بالاختباء فى مؤخرة الحظيرة ، راکضًا والسروال لا يزال بيدي ، لكنهن دخلن وعثرن علىّ . صحن قائلات : « المجد لمريم البتول ! » . واقتربن أكثر .

كنت مقعيا فوق حجر ، ساكنًا ، جالسا هناك وحسب دون إتمام لبس السروال ، لكى يرونى هكذا ولا يقتربن ، لكنهن لم يقلن سوى : « المجد لمريم البتول ! » ، وواصلن الاقتراب .

يالكن من عجائز وقحات ! ألا تعرفن حمرة الخجل ! أشرن على أنفسهن بعلامة الصليب واقتربن إلى أن وقفن إلى جوارى ، كلهن ، متجاورات مثل أعواد فى حزمة ، يتصبين عرفًا وشعورهن ملتصقات بوجوههن وكأن رزاز المطر قد تساقط عليهن .

- أتينا لرؤياك ، يا « لوكاس لوكاتيرو » . من « أمولا » أتينا لهذا الغرض دون سواه . أخبرونا قريباً من هنا أنك موجود بدارك ؛ لكننا لم نتخيل أنك فى مؤخرتها وعلى هذا الوضع . اعتقدنا أنك دخلت لإطعام الدجاج ، ولهذا اقتحمنا عليك خلوتك . جئنا لمقابلتك .

أيتها العجائز الشمطاوات ! مُسنّات وقبيحات وكأنهن مصابات بداء كُزّاز الحمير .

- ماذا تردن ؟ - سألتهن بينما كنت أغلق فتحة السروال وأحکم وثاقه حول وسطى ، عندئذ حجبن عيونهن حتى لا يرونى .

- نحمل لك رسالة . بحسنا عنك فى « سانتو ستياجو » وفى « سانتا إينيس » ، لكنهم أخبرونا أنك تركت هناك وانتقلت إلى هذه القرية ، وها نحن قد أتينا . نحن من « أمولا » .

كنت أعرف المكان الذى ينتسب إليه ومن يكنّ ؛ بل كان باستطاعتى تعداد أسمائهن ، اسماً اسماً ، لكننى تغايبت .

- الحمد لله . عثرنا عليك أخيراً ، يا « لوكاس لوكاتيرو » .

دعوتهن إلى فناء الدار وأحضرت مقاعد ليجلسن عليها . سألت إذا كن يردن طعاماً أو على الأقل جرّة ماء ليرطبن ألسنتهن .

جلسن وهنّ يجففن العرق بتمائمهن .

- لا ، شكراً - قلن - . لانريد أن نُثقل عليك . نحمل لك

رسالة . لاشك أنك تعرفنى ؟ - سألت إحداهن .

- بعض الشيء . يخيل إلى أننى رأيتك فى مكان ما .
ألسـت « پانتشا فريجوسو » ، التى خطفها « أوموبونو راموس » بمحض
إرادتها ؟

- بالفعل أنا ، لكن لم يخطفنى أحد ، هذه محض افتراءات . كل
ما فى الأمر أننا تُهنا فى الصحراء ونحن نبحث سويًا عن الصبّاريات . أنا
أتمى إلى الرهبانية ولم أكن لأسمح بأى شكل من الأشكال ...
- بماذا ، يا « پانتشا » ؟

- آه ! يالسوء ظنك ، يا « لوكاس » ! إلى الآن لم تُقلع عن عادتك
السيئة فى اتهام الناس بالباطل ! وبما أنك تعرفنى ، دعنى أفصح لك عن
سبب مجيئنا .

- ألا تردن ولو جرة ماء ؟ - عدت لسؤالهن .

- لاتتعب نفسك ، لكن ما دمت تُصر ، فلن نكسر بخاطرك .

أحضرت لهن دَورقًا بماء الريحان فشربنه ، وأحضرت آخر فلم ينتظر
كسابقه . عندئذ قَرَبت منهن جرة مترعة بماء النهر ، تركتها هناك ، على
أهبة الاستعداد ، لكى يدفعن بها ، فى القريب العاجل ، الظمّ الشديد
الذى يعتورهن - حسبما يدعين- مع بداية هضم الطعام .

عشر نساء ، جالسات فى صفّ ، بملابسهن السوداء المُتربة . بنات
« يونثيانو » ، « إيميليانو » ، « كريستيثيانو » ، « تورييو » - صاحب
الحانة - و « أنا ستاسيو » الحلاق .

عجائز شمطاوات ! لا تُستساغ منهن واحدة ، كلهن على مشارف الخمسين ، ذابلات ، مكتئبات وضامرات . لامجال بينهن للاختيار .

- وعن ماذا تبحثن هنا ؟

- أتينا لمقابلتك .

- وها أنذا أمامكم ، بخير كما ترون .

- تركت ما وراءك وانتقلت إلى مكان قصي . إلى هذا المكان المتواري . المتزوي على الخريطة حيث لا يهتدى إليك أحد . أتعبتنا في العثور عليك بعد كثير من التقصي والسؤال .

- أنا لا أختبئ . أعيش هنا قرير العين ، دون مضايقة الناس . وأية رسالة تحملن ، إن حق لي السؤال ؟

- المسألة تتعلق . . . لكن لاتزعج نفسك بالتفكير في إطعامنا ، لقد أكلنا جميعا في بيت « لاتوركائيتا » . ومن ثمّ عليك بالانتباه والتركيز معنا ، اجلس أمامنا هنا لكي نراك وتسمعنا جيدا .

لم يكن بمقدوري الركون إلى الدّعة ، كنت أود الذهاب ثانية إلى الحظيرة ، كنت أسمع صوت الدجاجات وسيطرت على الرغبة في الذهاب لجمع البيض قبل أن يأكله الأرنبان .

- أنا ذاهب لجمع البيض .

- لقد أكلنا بالفعل ، فلا تشغل بالك .

- لدى هناك أرنبان طليقان وأخاف أن يأكلا البيض . ، سأعود حالا . وذهبت إلى الحظيرة .

لم تكن فى نيتى العودة ، بل التسلل من الباب المؤدى الى الربوة
وترك تلك السلسلة من العجائز السقيمت للسأم من طول الانتظار .

ألقىت نظرة على كومة الحجارة المنتحية الى زاوية وطالعتنى صورة
لحد . شرعت حيثذ فى بعثرتها ، ملقيًا بها فى كل اتجاه ، جاعلا خيطا
هنا وآخر هناك . كانت حجارة مخروطية من النهر يسهل على تطويحها
بعيدا . أيتها العجائز ، يا حفدة يهوذا ! لولاكن ما تجشمت عناء هذا العمل
. لا أدرى لماذا سيطرت عليكم نزوة المجرى .

تركت العمل ورجعت . أهديتهن البيض .

- قتلت الأرنيين ! شاهدناك وأنت ترشقهما بالحجارة . سنحتفظ
بالبيض الى وقت لاحق ، ما كان عليك أن تتعب نفسك .

- البيض فى الصدور هكذا يمكن أن ينفقس ، الأفضل تركه
خارجها .

- آه ، لم تتغير يا « لوكاس لسوكاتيرو » ! ما زلت تحب (الهذار) .
نحن لسن حاميات الى هذا الحد .

- لا أعلم شيئًا عن هذا ، قلت ما قلته بسبب شدة الحرارة التى
عليها الجو .

ما كنت أبتغيه هو (توزيعهن) . توجيه دفتهن الى اتجاه آخر ريثما
أبحث عن وسيلة لطردهن من دارى طردة تقضى على أية رغبة لديهن فى
العودة ، لكننى لم أوفق فى الاهتداء لشيء .

كنت أعرف أنهم يبسحثن عنى من يناير ، بعد قليل من
اختفاء « أنكليتو مورونيس » . لم أعدم من يحذرني من اقتفاء عجائز
رهبانية « أمولا » لأثرى . كن الوحيدات اللاتى يمكن أن يهمن أمر
« أنكليتو مورونيس » .

وها هن ما ثلاث أمامى .

كان بوسعى الاستمرار فى مطّ الحديث معهن أو إلهائهن بأية طريقة
حتى يُمسى عليهن النهار ويضطرون للانصراف ، فلم يكن من المعقول أن
يخاطرن بتمضية الليل فى دارى .

بعد قليل سنحت الفرصة لأجسّ نبضهن : عندما قالت
ابنة « يونثيانو » أنهم يردن الانتهاء بسرعة حتى يتمكن من العودة
إلى « أمولا » فى وضح النهار ، كنت جاهزاً وقلت إنه لاداعى للانعاج
لأن حصيرة الصيف واسعة وتوجد أغطية تكفى الجميع وزيادة . رددن فى
صوت واحد قائلات أما هذا فلا ، فماذا يقول الناس عنهن عندما يعرفون
أنهن أمضين الليل فى بيتى وأنا بداخله . أما هذا فلا .

كان شغلى الشاغل ، إذن ، هو إطالة الحديث معهن حتى يمسك
الليل بتلابيبهن ، وساعتها أكون قد تخلصت من الفكرة التى تتر فى
أدمغتهن .

سألتُ إحداهن :

- وما هى أخبار زوجك ؟

- لست متزوجة ، يا « لوكاس » . أنسيت أنني كنت خطيبتك ؟
انتظرتك وانتظرتك وبقيت منتظرة ، إلى أن علمت بعدها أنك تزوجت ،
في وقت لا يرغب فيّ راغب .

- وأنا ؟ ما حدث أن شواغل أخرى ألهمتني ؛ لكن الوقت لا يزال
يسمح .

- لكنك متزوج ، يا « لوكاس » ، وليس أيّ زواج ، بل من
ابنة « الطفل القديس » ذاتها . لماذا تقلّب علىّ المواجه مرة أخرى ؟
لقد نسيتك .

- أما أنا فلا . ما اسمك ؟

- « نيبس » ما زلت أسمى « نيبس » . « نيبس جارثيا » .
وأرجوك لا تثر أشجاني وتدفعني إلى البكاء ؛ لأن مجرد تذكري لعودك
المعسولة يجعلني أزفر الحشرات .

- « نيبس » . . . « نيبس » . كيف لا أتذكرك وأنت عن لاينسي .
. . . كنت كالنسمة الرقيقة . لم أنس ، ما زلت أحسك بين ذراعي ، رقيقة
غضّة . الفستان الذي كنت ترتدينه لرؤيتي كانت تفوح منه رائحة
الكافور ، كنت تسدّين كل حواسي وتهتصريني بشدة حتى أنني كنت
أحس بك داخل عظامي . نعم ، ما زلت أذكر .

- لاتستمر ، يا « لوكاس » . اعترفت بالأمس وتأتى أنت لتوقظ
المشاعر الأثمة وتغرقني في بحر من الذنوب .

- أتذكر أنني كنت أُقبلُ بروزات جسدك وأنت كنت تقولين هنا لا ،
لأنك سريعة التأثر . أما زالت النونات موجودة بباطن ساقيك ؟

- كُفَّ عن هذا ، يالوكاس لوكاتيرو « . لن يغفر لك الله ما فعلته
معى ، سيكون حسابك عسيراً .

- أفعلت بك سوءاً ؟ هل أذيتك بمعاملتى ؟

- تفلت هذا وألقيته وراء ظهري . ولا تضطرنى لقوله أمام الناس .
لكن لكى تضعه حلقه فى أذنك : لقد تفلته وألقيته وراء ظهري ، كان
شيئاً هكذا مثل مضغة . ولماذا كنت ساقع فى غرامك والمجون والاستهتار
ديدتك ؟

- هذا ما حدث إذن ؟ لم أكن أعرف ، ألا تردن قليلا من ماء
الريحان ؟ لن أتأخر فى إعداده . انتظرن .

وذهبت مرة أخرى إلى الحظيرة لقطف الريحان ، وهناك تلكأت قدر
ما استطعت ، ريثما يخف هياج تلك المرأة .
عندما رجعت كانت قد رحلت .

- ذهبت ؟

- نعم ، ذهبت . لقد أبكيتها .

- ما قصدت بالحديث معها إلا تسلية الوقت ، ألا يلفت انتباهكن
جفاف المناخ هنا ؟ هناك ، فى « أمولا » لا بد وأنها أمطرت ، أليس
كذلك ؟

- نعم ، انهمر أول أمس وابل من المطر .
- لاشك أن « أمولا » مكان جميل . تمطر دائماً ويعيش من بها عيشة رغدة . أما هنا فلا تظهر حتى السحب . مازال « روجاثيانو » رئيس البلدية ؟
- نعم .
- رجل طيب « روجاثيانو » هذا .
- لا . إنه ملعون .
- قد تكونن على صواب . وما أخبار « إيلد ليمرو » ، ما زالت صيدليته مغلقة ؟
- « إيلد ليمرو » مات . فعل خيراً بموته ، وإن كان من القبح التصريح بهذا ؛ لكنه كان ملعوناً آخر . كان واحداً من الذين شنّوا على « الطفل أنكليتو » ، اتهمه بالاحتيال والشعوذة وخداع البسطاء . ولم يكف عن ترديد هذا فى كل مكان ، لكن الناس لم تحفل به وجازاه الله شر الجزاء . مات بداء الكلب .
- ندعو الله أن يكون من نزلاء سقر .
- وألا تكلّ الشياطين من تزويد نيرانها بالحطب .
- الشيء نفسه نرجوه للقاضى « ليريو لويث » الذى أيد دعواه وأمر بإدخال « الطفل القديس » السجن .
- الآن هن اللاتى يتكلمن . تركتهن يتفوهن بكل ما يشتهين . مادمن لايتعرضن لى فكل شيء على ما يرام . وفجأة ورد بخاطرهن سؤالى :

- ألا تريد المجيء معنا ؟

- إلى أين ؟

- إلى « أمولا » ، لهذا أتينا ، لاصطحبك .

حدثتني نفسى بالرجوع إلى الحظيرة والخروج من الباب المؤدى إلى
الرّبوة والاختفاء . أيتها العجائز التعيسات !

- وما لى أنا و«أمولا» بحق الشياطين ؟

- نريد منك المساندة فيما نسعى إليه . لقد خصص كل المنتمين إلى
رهبانية « الطفل أنكليتو » تسعة أيام للصلوات والتوسلات من أجل المطالبة
بتقنين هذه الأخوية الدينية وجعلها رسمية . أنت صهره ونحتاجك كشاهد
عيان . أوصانا القسيس بإحضار أحد يكون قد خَبَره عن قرب وعرفه قبل
أن يصبح شهيراً بمعجزاته ، ومن لنا أفضل منك وقد عشت إلى جواره
وبإمكانك ، أكثر من غيرك ، سرّد الكرامات التى جرت على يديه ، لهذا
نحتاجك ، لكى تدعمنا فى هذه الحملة .

أيتها العجائز الشائعات ! خامرنى هذا الإحساس من قبل .

- لا أستطيع الذهاب - قلت لهن - . لا يوجد من يعتنى بدارى فى

غيايى .

- عملنا حساب هذا واتفقنا على بقاء فتاتين لحراسة الدار ولمرافقة

زوجتك الموجودة هنا .

- الآن لا يوجد لدى زوجة .

- وأين هي ؟ أين ابنة « الطفل أنكليتو » ؟

- رحلت . تخلصت منها .

- هذا شيء لا يُصدق . لا بد وأن المسكينة تعاني . مع ما كانت عليه

من طيبة قلب وشباب وجمال . وإلى أين أرسلتها ، يا « لوكاس » ؟ لن
نقنع بأقل من إدخالها دير « التائبات » .

- لم أدخلها أى مكان . تخلصت منها وحسب ، وأنا على يقين

بأنها ليست مع « التائبات » ، فقد كانت مولعة بالصخب والزحام ولا بد
أنها تهيم على وجهها فى هذه النواحي منهكة فى فكّ أحزمة السراويل .

- لانصدق ولاحتى كلمة مما قلت يا « لوكاس » . قد تكون هنا

معتكفة بإحدى غرف البيت ، مشغولة بصلواتها . عهدناك كذاباً أشر

ومروحاً للشائعات ، ألا تذكر بنات « إيرميليندو » المسكينات اللاتي

اضطرن للرحيل إلى « الجريو » لأن الناس كانت تصرخ فيهن بأغنية

« الساقطات » بمجرد أن يخرجن إلى الشارع ، وكان هذا بسبب اختراعك

للأقاويل . لا يمكن تصديق شيء يصدر عنك يا « لوكاس » .

- لافائدة تُرجى ، إذن ، من ذهابى إلى « أمولا » .

- تعترف أولاً وينصلح الحال . منذ متى وأنت لاتعترف ؟

- أوه ! منذ ما يقرب من الخمسة عشر عاماً . من الساعة التي كان

سيعدمنى فيها « لوس كيرستيروس » . صوبوا البندقية إلى ظهري

وجعلوني أجثو أمام القسيس واعترفت ، حتى بما لم أفعله . اعترفت وقتها لسنوات عمرى الباقية .

- لولا حاجتنا إليك ، بصفتك صهر « الطفل القديس » ، ما فكرنا أبداً فى الاستعانة بك ، كنت دائماً فى منتهى الشيطنة يا « لوكاس » .

- لهذا كنت مساعداً لإبليس ذاته : « انكليتو مورونيس » .

- لا تكفر .

- لاتعرفنه إذن .

- عرفناه كقديس .

- ولم تعرفنه كبائع للإيقونات ؟

- ما هذا الترهات ، يا « لوكاس » ؟

- بالفعل لاتعرفن هذا ؛ لكنه بدأ ببيع تماثيل القديسين فى الموالد وعلى أبواب الكنائس ، وأنا الذى كنت أحمل عدته وأدواته فى جوال . كنا نمضى نحن الاثنين ، واحداً إثر الآخر ، من قرية إلى قرية ، هو فى المقدمة وأنا خلفه حاملاً الجوال وبه إيقونات « سان پانتاليون » و « سان أمبروسيو » و « سان پاسكوال » ، التى كانت تزن مالا يقل عن ستة وثلاثين كيلو جراماً .

ذات يوم تقابلنا مع فوج من الحجاج . كان « أنكليتو » منكفئاً على مساكن للنمل يشرح لى كيف لايلسع النمل إذا ضغط الواحد بأسنانه على طرف لسانه . تصادف هذا مع مرور الحجاج . رأوه . توقفوا ليشاهدوا تلك النادرة - سألوا : « كيف يمكن ملامسة مساكن النمل دون أن تعضه النملات ؟ » .

فما كان منه إلا أن عقف ذراعيه على شكل صليب وأخذ يقول إنه واصل لتوه من روما ومعه رسالة وأنه يحمل فلقّة من « الصليب المقدس » الذي صُلب عليه المسيح .

حملوه من هناك على أكفّهم ، وأبقوه مرفوعًا هكذا حتى وصلوا به إلى "أمولا" . وانتهى به المطاف هناك ؛ كان الناس يجثون أمامه طلبًا للمعجزات .

- ما أنت إلا قوأل وكافر . ماذا كنت قبل أن تتعرف عليه ؟ راعى خنازير نكرة ، وجعلك غنيًا ، تدين له بكل ما تملك . كان من واجبك ذكره بالخير والثناء عليه ولو من أجل هذا فقط . أيها التعس ، الناكر للجميل .

- أعترف له بانتشالي من وهدة الجوع وأشكره على هذا الصنيع ، لكنني لا أحمده قسيد أنملة عن رأيي فيه وهو أنه شيطان يمشی على رجلين ، ولا يزال كذلك إلى الآن أينما وجد .

- إنه في السماء بين الملائكة ، في نعيم الجنة ، وإن كان هذا يوجعك ويوغر صدرك .

- ما أعرفه أنه في السجن .

- كان هذا من فترة ، هرب ، وبعدها اختفى دون أن يترك أثرًا . إنه الآن في السماء جسدًا وروحًا . وباركنا من هناك . عليكن بالركوع أيتها الفتيات ! لنصل : « التوبة والمغفرة ، ياربنا » لكي يشفع لنا « الطفل القديس » .

وركعت العجايز وهن يقبلن ، عقب كل « يا أبونا الذى فى السماء » ،
التمائم المطرزة بصورة " أنكليتو مورونيس " .

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر .

انتهزت الفرصة لأدخل المطبخ وأزدد بعض لقيمات من عجة اللوبيا .

عندما رجعت لم أجد منهن سوى خمس نساء .

- أين الأخريات ؟ - سألت .

ردت على " لايانتشا " محرقة الأربعة شعيرات المتدللية من شاربها :

- ذهن . لا يردن التعامل معك .

- أحسن ، تكثر الذرة عندما تتناقص أعداد الحمير ، ألا تردن ماءً آخر بالريحان ؟

تطوحت إحداهن ، " لا فيلومينا " ، التى ظلت صامته طوال الوقت يلقبونها « بالقتيلة » نكاية فيها ، وانكفأت على إصيص للزرع وأدخلت إصبعها فى فمها وأخذت تفرغ كل مياه الريحان التى تجرعتها ، مخلوطة بقطع صغيرة من لحم الخنزير وبيعض الحبوب .

- لا أريد منك ماء ريحان ولاغيره ، أيها الكافر . - وضعت البيضة التى أهديتها لها على الكرسي - . ولا أريد بيضك ! الأفضل لى الانصراف .

لم يتبق الآن منهن سوى أربع .

- أنا الأخرى لى رغبة فى التقيؤ - قالت "لاپانتشا" - . لكنى أقاوم . لا بد وأن نحمك إلى "أمولا" بأى شكل من الأشكال ، أنت الوحيد الذى بإمكانه تقديم البراهين على قداسة «الطفل القديس» . بالتأكيد سيجعل قلبك يلين ، لقد علقنا صورته بالكنيسة وليس من الإنصاف انتزاعها من هناك وإلقائها فى عرض الطريق بسبك .

- ابحن عن آخر . لا أريد المشاركة فى الحملة .

- كنت ابنه تقريبًا . ورثت ثمرة قداسه . وضع فيك نظرتة لتدوم وتخلد . أعطاك ابنته .

- بالفعل ، لكنه أعطاه لى جاهزة .

- سترك يارب ! كلامك فظيع يا "لوكاس لوكاتيرو" .

- أعطاه لى حاملا فى الشهر الرابع على أقل تقدير .

- لكنها كانت تتضوع قداسة .

- بل تفوح منها التانة . صعد إلى رأسها كشف بطنها أمام الرائح والغادى لكى يتأكدوا أنها من اللحم . كانت تظهر لهم (كرشها) المنتفخ ، الضارب إلى الزرقة بفعل كبر حجم الجنين . كانوا يضحكون . كانت خالعة العذار . تلك هى ابنة "أنكليتو مورونيس" .

- ياكافر . كيف يصدر عنك هذا الكلام ! سنهديك تميمة لتطرد الشيطان الذى يلبسك .

- هربت مع واحد منهم ، زاعمة أنه يحبها . قلت لها فقط : « سأخاطر بإعطاء المولود اسمى » وهربت معه .

- كانت ثمرة « الطفل القديس » . فى ريعان الشباب . وحصلت عليها دون مقابل . كنت مالكا لتلك الثروة سليمة القداسة .

- ترهات !

- ماذا تقول ؟

- فى بطن ابنة " أنكليتو مورونيس " كان يرقد ابن " أنكليتو مورونيس " .

- هذا من اختراعك لتفترى عليه بالباطل ، الافتراء شيمتك .

- نعم ؟ وما بال الأخريات ؟ لقد ترك هذه البقعة من العالم دون عذراوات ، إذ كان يصر على أن ترافقه آنسة تسهر عليه طوال الليل لتتعهد منامه .

- كان يفعل هذا لأنه ينشد النقاء والطهارة . لكى لا تدينه الآثام . كان يريد أن يحيط نفسه بالبراءة حتى لا تتدنس روحه .

- تعتقدن هذا لأنه لم يطلب إحداكن لمرافقته .

- لقد دعانى - قالت واحدة منهن تدعى " ملكيادس " - . وسهرت أرمي منامه .

- وماذا حدث ؟

- لاشيء سوء اهتمام يديه الخارقتين لى فى تلك الساعة التى يحس فيها بوصول البرد . وحمدت له الدفء المنبعث من جسده . لاشيء أكثر .

- هذا لأنك كنت عجزاً . إنه يحبهن لِدُنَات ؛ من تطقطع عظامهن الصغيرة بين أحضانه مثل قشر الفول السوداني .

- أنت زنديق ملعون ، يا " لوكاس لوكاتيرو " ، بل أبشع زنديق على وجه الأرض .

الآن تتحدث " لا إويرفنا " * ، المشهوره ببكائها الدائم . أعجزهن . كانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، ويدها ترتجفان :

- أنا يتيمة وهو الذى أنسانى اليتيم ؛ وجدت فيه أبى وأمى من جديد . أمضى الليل يداعبنى ليزيل عنى الكآبة والحزن .

كانت دموعها تتساقط .

- إذا كان الحزن قد ولى فلا داعى ، إذن ، للبكاء - قلت لها .

- هذا لأن والدى ماتا وتركانى وحيدة ؛ يتيمة فى تلك السن التى يصعب فيها العثور على مؤازرة . الليلة السعيدة الوحيدة أمضيتها فى كنف " الطفل أنكليتو " ، بين ذراعيه المفعمتين بالعزاء والسلوى ، وتأتى الآن لتتناول عليه وتذكره بالسوء .

- كان قديساً .

- منبعاً للصلاح .

- كان أملنا أن تسير على دربه ، لقد ورثته بكامله .

* (La Huérfana) (لا إويرفنا) ، هذه الكلمة مستخدمة كلقب ومعناه : اليتيمة . (المترجم) .

- أورثنى كَمَا هائلا من الرذائل ، علاوة على عجوز بلهاء . ليست طاعنة فى السنّ مثلكن ؛ لكن خبَلَهَا لا مرآء فيه . فعلت خيراً برحيلها . أنا الذى فتحت لها الباب .

- هرطقة ا تخترع هرطقات واضحة للعيان .

لم يبق عندئذ سوى اثنتين منهن .

تسلت الباقيات ، ناكصات على أعقابهن ، واحدة إثر أخرى ، وهن يلوحن فى وجهى بالصليب ويعدننى بالرجوع معهن المُعَوِّزُونَ الطاردون للأرواح الشريرة .

- لانتطيع إنكار المعجزات التى جرت على يديّ « الطفل أنكليتو » - قالت ابنة " أنا ستاسيو " - . لن تعارض فى هذا بالتأكيد .

- تصنيع الأطفال لايندرج تحت أى بند من بنود المعجزة . كان هذا مجال تخصصه .

- لقد شفى زوجى من الزُّهْرِى .

- لم أكن أعرف أن لك زوجاً . أأست ابنة " أنا ستاسيو " الحلاق ؟ . ابنة " تاتشو " غير متزوجة ، حسب علمى .

- أنا عزباء ، لكن لدى زوج . العزباء شىء ، والآنسة شىء آخر . تعرف هذا . أنا لست آنسة ، لكن عزباء .

- فى سِنِّيكَ تلك تفعلين هذا ، يا " ميكائيل " .

- كان علىّ أن أفعله ، ما الذى كنت سأجنيه من حياة العزوبية ؟ أنا امرأة ، والواحدة تُولد لتهب ما أودع فيها .

- تتحدثين بلسان « أنكليتو مورونيس » .
- نعم ، هو الذى نصحنى بفعل هذا للشفاء من داء الكبد ، اقترنت بشخص ما ، لأن الوصول لسن الخمسين مع البقاء جديدة خطيئة .
- أفتاك بهذا « أنكليتو مورونيس » !
- نعم ، هذه فتواه . لكننا آتينا لشيء آخر ؛ لتذهب معنا وتشهد بأنه كان قديسًا .
- ولماذا لا أكون أنا ؟
- لم تصدر عنك أية معجزة . هو شفى زوجى . وأنا شاهدة على ذلك . هل شفيت أحدًا مرة من الزهرى ؟
- لا ، ولا حتى أعرفه .
- إنه شيء هكذا مثل الغرغرينة . أصبح لونه بنفسجيًا وامتلا جسده بالثُدب . لم يكن يعرف طعم النوم . كان يقول إنه يرى كل شيء مصطبغا بالحمرة وكأنه يطل من بوابة الجحيم ، كان يحس بعد ذلك بحرقان يجعله يثب من الألم . ذهبنا حيثُذ إلى « الطفل أنكليتو » وشفاه ، كواه يعود مشتعل من البوص ومس الجروح بلعابه ، وجفت واختفت أوجاعه . أخبرنى إذا لم تكن هذه معجزة .
- لا بد وأنه كان يعانى من الحصبة . أنا أيضًا عاجلونى باللعب عندما كنت صغيرًا .
- أكرر ما سمعته من قبل : أنت زنديق ملعون .
- عزائى الوحيد أن « أنكليتومورونيس » كان أسوأ منى .
- عاملك معاملة الأب لابنه . ومازلت تجرؤ . . . لا أريد مواصلة سماعك . إنى راحلة . أتبقين يا « پانتشا » ؟

- لبعض الوقت ، لأحاول معه المحاولة الأخيرة .

- اسمعى ، يا " فرانثيكا " ، بعد أن رحلت الأخريات ولم يبقِ إلا أنت ؛ ستنامين عندى الليلة ، أليس كذلك ؟
- ولو رأيت حكمة أذنك ، وكلام الناس ؟ ما بقيت إلا بغرض إقناعك .

- على كل واحد منا ، إذن ، إقناع الآخر . لن تخسرى شيئاً فى النهاية . بلغت أَرذل العمر ولن يهتم بك أحد أو يُسدى إليك معروفاً .
- وأقاويل الناس ، وظنونهم السيئة ؟

- دعيهم يظنون كما يحلو لهم . فالأمر سواء . وعلى أية حال فهم يلقبونك " يانتشا " * .

- حسنا ، سأبقى معك ؛ لكن إلى مطلع الفجر فقط . وهذا على شرط أن تعدنى بالمجىء معى إلى " أمولا " ، لكى أخبرهن بأننى أمضيت الليلة بطولها فى الإلحاح والتوسل إليك . وإلا ، فماذا سيكون موقفى ؟

* « يانتشا » (Pancha) : بمعنى بطن أو كِرْش . وقد أُطلق عليها هذا اللقب لأنها كانت دائمة التورط والحمل السّفاح . (المترجم) .

- موافق . لكن عليك قبل هذا بقص الشعيرات المتدلّية من شاربك ، سأحضر لك المقصّ .

- أنت تسخر منى . لا يشغلك سوى النظر إلى عيوي . اترك الشارب على حاله ، على الأقل حتى لا يتسرب إليهن الشك .
- حسنا ، كما تبغين .

عندما أدبر النهار ، ساعدتني فى إصلاح عريشة الدجاج وجمع الحجارة التى كنت قد بعثرتها فى الحظيرة ، وإعادة تكويمها فى الركن الذى كانت فيه من قبل .

لم أفسد عليهن حملتهن وأخبرهن أن " أنكليتومورونيس " مدفون فى ذلك الركن ، ولا أنه مات فى اليوم نفسه الذى هرب فيه من السجن وجاء إلى هنا ليطالبنى بإعادة ممتلكاته .

وصل قائلا : - بع كل شىء وأعطني المال ، لأتنى فى حاجة للسفر إلى الشمال .

سأكتب لك من هناك وسنعود للعمل سوياً .

- لماذا لاتأخذ ابتك معك ؟ - سألته - . هى التى تفيض عن كل مالى وتدعى أنه يخصك . لقد أوقعتنى فى حبالك الشائنة .

- ستلحقان بى فيما بعد ، عندما أرسل لكما بعنوانى ، وهناك سنصفى حساباتنا .

- الأفضل تسويتها الآن وإلى الأبد ، ليعرف كلُّ منا ما له وما عليه .

- الوقت لا يَحتمل (الهزار) - قال لى - . أعطنى ما يخصنى .
كم معك الآن من النقود ؟

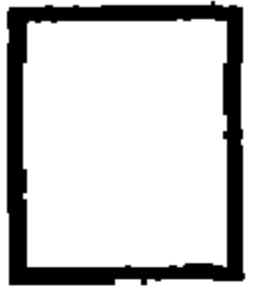
- بعض المال ، لكنى لن أعطيه لك . لقد أمضيت أيامًا حالكة مع
المستهتره ابتك ، وقد وصلك حقك وزيادة بإنفاقى عليها .

أرغى وأزيد . كان يضرب الأرض بقدميه ويتعجل الذهاب . . .

« عليك رحمة الله » ، يا « أنكليتومورنيس » ، قلت له عندما
دفتته ، وكلما ذهبت إلى النهر أعود منه محملاً بالحجارة لألقيها فوق
قبره : « لن تخرج من هنا حتى ولو استخدمت كل ما فى جرابك من
حِيل » .

والآن تساعدنى « لايانتشا » فى وضع ثقل الحجارة فوقه من
جديد ، دون أن يدور بخلدتها أن « أنكليتو » يرقد تحتها وأنى أفعل هذا
خوفًا من خروجه من لحده ، وعودته لمناصبتى العداء ثانية . لم أكن
أشك ، نظرًا لما كان يتمتع به من مهارة ، فى أنه لن يعدم وسيلة للخروج
بها من هناك والعودة إلى الحياة .

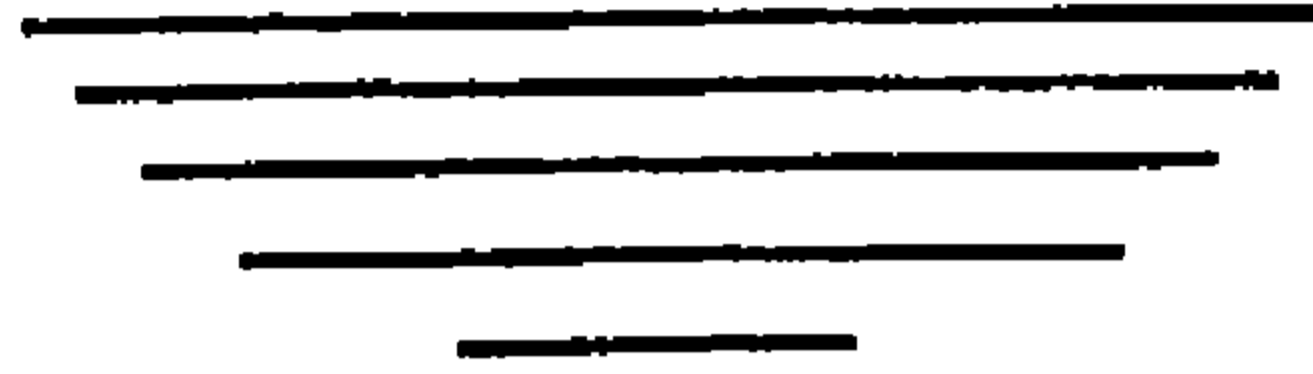
- ألقى ما تقدرين عليه ، يا « يانتشا » . كوميها فى هذا الركن ،
لا يعجبنى منظر أرضية حظيرتى وهى مكتظة بالحجارة .



قالت لى بعد ذلك ، عند السَّحر :

- أنت بلوى وعديم الخبرة ، يا "لوكاس لوكاتيرو" . لا تحمل مثقال ذرة من الحتان أو الدفء . أتدرى من كان ضليعاً فى هذا المضمار ؟
- من ؟

- « الطفل أنكليتو » . كان داهية فى ممارسة الحب .



انتهت ترجمة هذه المجموعة القصصية .

الفهرس

رقم الصفحة

- خوان رولفو « والسهل الصامت الحزين (مقدمة بقلم المترجم) . 5
- ١ - لقد أعطونا الأرض 29
- ٢ - مطلع العرابات 37
- ٣ - فقراء لحد الضياع 49
- ٤ - الرجل 55
- ٥ - عند السحر 69
- ٦ - " تاليا " 79
- ٧ - " ماكاريو " 91
- ٨ - السهل يحترق 99
- ٩ - قل لهم يتركوني أعيش 125
- ١٠ - " لوبينا " 137
- ١١ - الليلة التي تركوه فيها وحيداً 151
- ١٢ - نقطة العبور إلى الشمال 157
- ١٣ - ألا تذكر ا 169
- ١٤ - أسمع نباح الكلاب ؟ 175
- ١٥ - يوم الزلزال 183
- ١٦ - تركة " ماتيلدي أركانخل " 195
- ١٧ - " أنكليتو مورونيس " 205

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالمين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

ت . أحمد سريش	جون كوين	١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو يانيكار	٢ - الوثنية والإسلام
ت : شوقى جلال	جورج جيمس	٣ - التراث المسروق
ت : أحمد الحضرى	انجا كاريتنكرفا	٤ - كيف تتم كتابة السيناريو
ت : محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	٥ - ثريا فى غيبوبة
ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	٦ - اتجاهات البحث اللسانى
ت : يوسف الأنطكى	لوسيان غولدمان	٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة
ت . مصطفى ماهر	ماكس فريش	٨ - مشعلو الحرائق
ت : محمود محمد عاشور	أندرو س. جوى	٩ - التغيرات البيئية
ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزنى وعمر حلى	جيرار جينيت	١٠ - خطاب الحكاية
ت : هناء عبد الفتاح	فيسواقا شيمبوريسكا	١١ - مختارات
ت : أحمد محمود	ديفيد براونستون وايرين فرانك	١٢ - طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميت	١٣ - ديانة الساميين
ت : حسن المودن	جان بيلمان نويل	١٤ - التحليل النفسى والأدب
ت : أشرف رفيق عفيفى	إدوارد لويس سميت	١٥ - الحركات الفنية
ت : بإشراف / أحمد عثمان	مارتن برنال	١٦ - أثينة السوداء
ت : محمد مصطفى بدوى	فيليب لاركين	١٧ - مختارات
ت . طلعت شاهين	مختارات	١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية
ت : نعيم عطية	جورج سفيريس	١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة
ت : يعنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	٢٠ - قصة العلم
ت : ماجدة العناني	صمد بهرنجى	٢١ - خوخة وألف خوخة
ت : سيد أحمد على الناصرى	جون أنتيس	٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين
ت : سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	٢٣ - تجلى الجميل
ت : بكر عباس	باتريك بارتر	٢٤ - ظلال المستقبل
ت : إبراهيم الدسوقى شقا	مولانا جلال الدين الرومى	٢٥ - مثنوى
ت : أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	٢٦ - دين مصر العام
ت . نخبة	مقالات	٢٧ - التنوع البشرى الخلاق
ت : منى أبو سنه	جون لوك	٢٨ - رسالة فى التسامح
ت : بدر الديب	جيمس ب. كارس	٢٩ - الموت والوجود
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو يانيكار	٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)
ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	٣١ - مصادر لراصة التاريخ الإسلامى
ت : مصطفى إبراهيم فهمى	ديفيد روس	٣٢ - الانتقراض
ت : أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هويكنز	٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية
ت : حصه إبراهيم المنيف	روجر آلن	٣٤ - الرواية العربية
ت : خليل كلفت	بول . ب . ديكسون	٣٥ - الأسطورة والحداثة

- ٢٦ - نظريات السرد الحديثة والاس مارتن
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها يوجيت شيفر
٢٨ - نقد الحداثة آلن تورين
٢٩ - الإغريق والحسد بيتر والكوت
٤٠ - قصائد حب آن سكستون
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية بيتر جران
٤٢ - عالم ماك بنجامين باريز
٤٣ - اللهب المزدوج أوكتافيو پات
٤٤ - بعد عدة أصياف ألدوس هكسلي
٤٥ - التراث المغدور روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين
٤٦ - عشرون قصيدة حب بابلو نيرودا
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١) رينيه ويليك
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية فرانسوا نوما
٤٩ - الإسلام في البلقان ه . ت . تورييس
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير جمال الدين بن الشيخ
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية داريو بيانوييا وخ . م بينياليستي
٥٢ - العلاج النفسي التدميمي بيتر . ن . توفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل
٥٣ - الدراما والتعليم أ . ف . النجتون
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح ج . مايكل والتون
٥٥ - ما وراء العلم جون بولكنجهوم
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١) فديريكو غرسية لوركا
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢) فديريكو غرسية لوركا
٥٨ - مسرحيتان فديريكو غرسية لوركا
٥٩ - المحيرة كارلوس مونيهيت
٦٠ - التصميم والشكل جوهانز ايتين
٦١ - موسوعة علم الإنسان شارلوت سيمور - سميت
٦٢ - لذة النص رولان بارت
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢) رينيه ويليك
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة) آلان وود
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى برتراند راسل
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية أنطونيو جالا
٦٧ - مختارات فرناندو بيسوا
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى فالنتين راسبوتين
٦٩ - العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين عبد الرشيد إبراهيم
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية أوخينيو تشانج رودريجت
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مغيث
ت : منيرة كروان
ت : محمد عيد إبراهيم
ت : عطف أحد / إبراهيم قحى / مصد ملجد
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تادرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد علي
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جويجاتي
ت : عيد الوهاب طوب
ت : محمد برادة وعثمانى الميلاوي ويوسف الأنطكي
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفى فطيم وعادل نمرdash
ت : مرسى سعد الدين
ت : محسن مصياحي
ت : علي يوسف علي
ت : محمود علي مكى
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهيم
ت : صبرى محمد عبد الغنى
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاعى .
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض .
ت : رمسيس عوض .
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمالكي في مصر
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢
٧٨ - العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - برشكين عند «ناقورة الدموع»
٨١ - الجماعات التخيلية
٨٢ - مسرح ميجيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالتغرب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - رسم السيف (تخصص)
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسباني وأمريكي المعاصر
٩٣ - محدثات العولمة
٩٤ - الحب الأول والصحية
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث رنقيات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)
٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مسامحة العولمة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوبرا ماهوجني
١٠٥ - منخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأندلسي
١٠٧ - سرية الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . إليوت
جين . ب . توميكنز
ل . ا . سيمينوفا
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
بوريس أوسبينسكي
ألكسندر بوشكين
بندكت أندرسن
ميجيل دي أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكي أقطاي
جمال مير صادق
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنتوني جينتز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
بارير الاسوستكا
كارلوس ميغل
مايك فيذرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بويرو يايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روبنسون
بول هيرست وجراهام توميسون
بيرنار فاليط
عبد الكريم الخطيب
عبد الوهاب المؤدب
برتوات بريشت
جيرارچينيت
د. ماريا خيسوس روبييرامتي
نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت . حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومي
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
ت : مكارم الفمري
ت : محمد طارق الشرقاوي
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالي
ت : عيد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحي يوسف شتا
ت : ماجدة العناني
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عيد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوي
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إيوار الخراط
ت : بشير السباعي
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحي
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : عبد العزيز شميل
ت : أشرف على دعدود
ت : محمد عبد الله الجعدي

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأثليسي
١٠٩ - حروب المياه
١١٠ - النساء في العالم النامي
١١١ - المرأة والجريمة
١١٢ - الاحتجاج الهادئ
١١٣ - راية التمرد
١١٤ - مسرحيتا حصاد كرنجى وسكان المستنق
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
١٢٤ - الفجر الكاذب
١٢٥ - التحليل الموسيقى
١٢٦ - فعل القراءة
١٢٧ - إرهاب
١٢٨ - الأدب المقارن
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)
١٣٢ - ثقافة العولة
١٣٣ - الخوف من المرايا
١٣٤ - تشريح حضارة
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)
١٣٦ - فلاحو الباشا
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف
١٣٩ - باريسيفال
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل
١٤٣ - قضايا التطير فى البحث الاجتماعى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة
- مجموعة من النقاد
جون بولوك وعادل درويش
حسنة بيجوم
فرانسيس هيندسون
أرلين علوى ماكليود
سادى بلانت
ول شويتكا
فرجينيا وولف
سينثيا تلسون
ليلى أحمد
بث بارون
أميرة الأزهرى سنيل
ليلى أبو لغد
فاطمة موسى
جوزيف فوجت
نيزل الكسندر وفنادولينا
جون جراى
سيدريك ثورپ ديفى
قولفانج إيسر
صفاء فتحى
سوزان باسنيت
ماريا دولورس أسيس جاروتة
أندريه جوتدر فرانك
مجموعة من المؤلفين
مايك فيذرستون
طارق على
بارى ج. كيمب
ت. س. إليوت
كينيث كونو
جوزيف مارى مواريه
إيفلينا تارونى
ريشارد فاچنر
هربرت ميسن
مجموعة من المؤلفين
أ. م. فورستر
ديريك لايدار
كارلو جولدونى
- ت : محمود على مكى
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سمىة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : ليس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحة الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقى جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبورى
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كارلوس فويتس
- ١٤٦ - الورقة الحمراء ميغيل دي ليبس
- ١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة تانكريد دورست
- ١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت
- ١٤٩ - النظرية الشعرية عند إلبوت وأنوفيس عاطف فضول
- ١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. ليمان
- ١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل
- ١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
- ١٥٣ - غرام الفراعنة فيولين فاتويك
- ١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
- ١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء
- ١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو
- ١٥٧ - خسرو وشيرين النظامي الكنجي
- ١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل
- ١٥٩ - الإيديولوجية ديفيد هوكس
- ١٦٠ - آلة الطبيعة بول إيرليش
- ١٦١ - من المسرح الإسباني اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
- ١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا الآسيوي
- ١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١ جوردون مارشال
- ١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور) جان لاکوتير
- ١٦٥ - حكايات الشعب أ . ن أفانا سيفا
- ١٦٦ - العلاقات بين التدين والعلمانيين في إسرائيل يشعياهو ليتمان
- ١٦٧ - في عالم طاغور رابندراناث طاغور
- ١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
- ١٦٩ - إبداعات أدبية مجموعة من المبدعين
- ١٧٠ - الطريق ميغيل دلبيس
- ١٧١ - وضع حد فرانك بيجو
- ١٧٢ - حجر الشمس مختارات
- ١٧٣ - معنى الجمال ولترت . ستيمس
- ١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء ايليس كاشمور
- ١٧٥ - التلفزيون في الحياة اليومية لورينزو فيلشس
- ١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتنبرج
- ١٧٧ - أنطون تشيخوف هنري تروايا
- ١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث نخبة من الشعراء
- ١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب
- ١٨٠ - قصة جاويد إسماعيل فصيح
- ١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي فنسنت . ب . ليتش
- ت : أحمد حسان
- ت : علي عبد الرؤوف البعبي
- ت : عبد الغفار مكاوي
- ت : علي إبراهيم علي متوفى
- ت : أسامة إسبر
- ت : منيرة كروان
- ت : بشير السباعي
- ت : محمد محمد الخطابي
- ت : فاطمة عبد الله محمود
- ت : خليل كلفت
- ت : أحمد مرسى
- ت : مي التمساني
- ت : عبد العزيز بقوش
- ت : بشير السباعي
- ت : إبراهيم فتحى
- ت : حسين بيومي
- ت : زيدان عبد الحليم زيدان
- ت : صلاح عبد العزيز محجوب
- ت : ياشراف : محمد الجوهرى
- ت : نبيل سعد
- ت : سهير المصادقة
- ت : محمد محمود أبو غدیر
- ت : شكرى محمد عياد
- ت : شكرى محمد عياد
- ت : شكرى محمد عياد
- ت : بسام ياسين رشيد
- ت : هدى حسين
- ت : محمد محمد الخطابي
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : أحمد محمود
- ت : وجيه سمعان عبد المسيح
- ت : جلال البنا
- ت : حصة إبراهيم منيف
- ت : محمد حمدي إبراهيم
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : سليم عبد الأمير حمدان
- ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والنبوة و . ب . بيتس
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه چيلسون
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام هانز إيندورفر
١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود
١٨٧ - الأرضة بُزُجْ علوى
١٨٨ - موت الأدب الثين كرنان
١٨٩ - العمى والبصيرة پول دى مان
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
١٩١ - الكلام وأسمال الحاج أبو بكر إمام
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك زين العابدين المراغى
١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
١٩٤ - مختارات من نقد الأطلو - أمريكى مجموعة من النقاد
١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
١٩٦ - المهلة الأخيرة فالتين راسبوتين
١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إيوين إمري وآخرون
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندواى
٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبروك
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جزء رينيه ويليك
٢٠٢ - الشعر والشاعرية أطفاف حسين حالى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زالمان شازار
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافاللى - سفورزا
٢٠٦ - الهيلولية تصنع علماء جديداً جيمس جلايك
٢٠٧ - ليل إفريقي رامون خوتاسنديز
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوريان
٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى
٢١١ - فرديناند بوسوسير جوناثان كلر
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بين رستم بين شروين
٢١٣ - مصر منذ قوم ثلثين حتى رحيل عبدالنصر ريمون فلاور
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيدنز
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك جزء زين العابدين المراغى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت
٢١٨ - رايولا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
ت : فتحى العشرى
ت : دسوقى سعيد
ت : عبد الوهاب علوب
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : علاء منصور
ت : بدر الديب
ت : سعيد القانمى
ت : محسن سيد فرجاني
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : محمود سلامة علاوى
ت : محمد عبد الواحد محمد
ت : ماهر شفيق فريد
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : أشرف الصباغ
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد الطيف حماد
ت : فخرى لبيب
ت : أحمد الأنصارى
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : أحمد محمود هويدى
ت : أحمد مستجير
ت : على يوسف على
ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت : محمد أحمد صالح
ت : أشرف الصباغ
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : محمود حمدى عبد الغنى
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : سيد أحمد على الناصرى
ت : محمد محمود محى الدين
ت : محمود سلامة علاوى
ت : أشرف الصباغ
ت : نادىة البنهاوى
ت : على إبراهيم على منوفى

ت : طلعت الشايب	كازو ايشجورد	٢١٩ - بقايا اليوم
ت : على يوسف على	بارى باركر	٢٢٠ - الهبولية فى الكون
ت : رفعت سلام	جريجورى جوزدانيس	٢٢١ - شعرية كفاى
ت : نسيم مجلى	رونالد جراى	٢٢٢ - فرانز كافكا
ت : السيد محمد نفاى	بول فيراينو	٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر
ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد	برانكا ماجاس	٢٢٤ - دمار يوغسلافيا
ت : السيد عبد الظاهر عبد الله	جايريل جارثيا ماركت	٢٢٥ - حكاية غريق
ت : طاهر محمد على البريرى	ديفيد هريت لورانس	٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى
ت : السيد عبد الظاهر عبد الله	موسى مارينا ديف بوركى	٢٢٧ - المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر
ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن	جانيت وولف	٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
ت : أمير إبراهيم العمرى	نورمان كيماى	٢٢٩ - مازق البطل الوحيد
ت : مصطفى إبراهيم فهمى	فرانسواز جاكوب	٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر
ت : جمال أحمد عبد الرحمن	خايمى سالوم بيدال	٢٣١ - الدرافيل
ت : مصطفى إبراهيم فهمى	توم ستينر	٢٣٢ - مابعد المعلومات
ت : طلعت الشايب	أرثر هيرمان	٢٣٣ - فكرة الاضمحلال
ت : فؤاد محمد عكود	ج. سبنسر تريمنجهام	٢٣٤ - الإسلام فى السودان
ت : إبراهيم الدسوقي شتا	جلال الدين الرومى	٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج ١
ت : أحمد الطيب	ميشيل تود	٢٣٦ - الولاية
ت : عنايات حسين طلعت	روين فيدين	٢٣٧ - مصر أرض الوادى
ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى مديولى أحمد	الانكتاد	٢٣٨ - العولة والتحرير
ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيلزافر - رايوخ	٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى
ت : صلاح عبد العزيز محمود	كامى حافظ	٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار
ت : ابتسام عبد الله سعيد	ك. م كويتز	٢٤١ - فى انتظار البرابرة
ت : صبرى محمد حسن عبد النبى	وليام إمبسون	٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض
ت : مجموعة من المترجمين	ايفى بروفتسال	٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١
ت : نادية جمال الدين محمد	لاورا إسكيبيل	٢٤٤ - الفليان
ت : توفيق على منصور	إليزابيتا أديس	٢٤٥ - نساء مقاتلات
ت : على إبراهيم على منوفى	جابريل جرثيا ماركت	٢٤٦ - قصص مختارة
ت : محمد الشرقاوى	ولتر أرمبرست	٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر
ت : عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	٢٤٨ - حقول عدن الخضراء
ت : رفعت سلام	دراجو شتامبوك	٢٤٩ - لغة التمزق
ت : ماجدة أباطة	دومنيك فينك	٢٥٠ - علم اجتماع العلوم
ت : بإشراف : محمد الجوهري	جورجون مارشال	٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢
ت : على بدران	مارجو بدران	٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية
ت : حسن بيومى	ل. أ. سيمينوفا	٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودى جروفز	٢٥٤ - الفلسفة
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودى جروفز	٢٥٥ - أفلاطون

٢٥٦ - بيكارت	ديف روينسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريز	ت : عبادة كحيله
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	نخبة	ت : ثاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إيوارد مندوتا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلي	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جوتسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عروكي
٢٦٨ - ليوان شمس تبريزي ج ٢	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ١	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ٢	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سي . باترسون	ت : شوقي جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية في مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوي
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود علي مكي
٢٧٥ - س. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمساني
٢٧٧ - الجنيتات . الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزي
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الألب الهندي الحديث والمعاصر	بريم شند وأخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - القردوس الأعلى	مولانا عبد الحلیم شرر الكهنوي	ت : جلال الحفناوي
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : علي البمبي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٦٢٢ / ٢٠٠١

El llano en llamas



Juan Rulfo

إن الحديث عن هذه المجموعة القصصية التي تضم سبع عشرة قصة قد يطول إلى ما لا نهاية ؛ لأنها نبع ثرٌّ لا يفيض ماؤه ويكتنفها الغموض والإبهام ، ومن ثم فإنها تحتمل العديد من التأويلات ، إن الكلام عنها - مهما كثر - لا يغنى عن الانفراد بها وقراءتها مرات ومرات ؛ لأنها كالماء الأجاج كلما عبَّ منه الإنسان ازداد عطشه وأحس بالحاجة للرجوع إليه .

الجميل في هذه المجموعة أشبه بدفقات سلاح نارى ، لكنه سلاح من أرض «رولفو» ، تخرج طلقة من فوهته إلى الأمام ، وترتد الثانية من مؤخرته في الاتجاه المعاكس ؛ فهي تتقدم خطوة وتتقهقر أخرى ، وكأن كل جملة تعض ذيل سابقتها وتعوقها عن الحركة ، وليس هذا وحسب ، بل إننا نجد أحياناً خالية من الروابط ، وأحياناً أخرى نجد بها كلمة محورية تدور حولها بقية الكلام .